

www.kotobarabia.com
القهر والحيلة
أنماط المقاومة السلبية
في
الحياة اليومية
د. شحاتة صيام
www.kotobarabia.com

القهر والحيلة

أنماط المقاومة السلبية في الحياة اليومية

الدكتور
شحاتة صيام
جامعة القاهرة

إهداء

إلى ثالث كنز حباني ا به

إلى

سارة

فهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

صور القهر والحيلة في الحياة اليومية:

مقدمة الكتاب

قليلة هي الدراسات التي حاولت أن تطرح موضوع الدراسة الراهنة على بساط البحث في ضوء التسلح بالأطر النظرية الحديثة التي تأخذ من الحياة اليومية مدخلاً أساسيا للكشف عن علاقات السيطرة والخضوع بعيدا عن الأطر النظرية الواسعة، التي حاولت أن تكشف عن مثل هذه العلاقات في إطار الرؤى النظامية الواسعة، التي اهتمت بدراسة علاقة الكل بالجزء وليس العكس. إن اهتمام الدراسة الحالية بمسألة السلطة والخضوع يأتي من خلال خبر الحياة اليومية، للوقوف على مواقف المواجهة والتفاعل الذي يتخذه علم الاجتماع الجزئي موجها أساسيا في تحليل السلوك اليومي باعتباره جزءا من كل.

إن تسلحنا برؤى علم الاجتماع الجزئي يفرض نفسه في الدراسة الراهنة باعتبارها تساهم في توضيح الأنماط التأسيسية لعملية التفاعل المباشر، الذي يمكنه أن يمدنا بكل أشكال التفاعل الاجتماعي ليس على صعيد التنظيمات الواسعة الانتشار في عالمنا المعاصر، ولكن في إطار

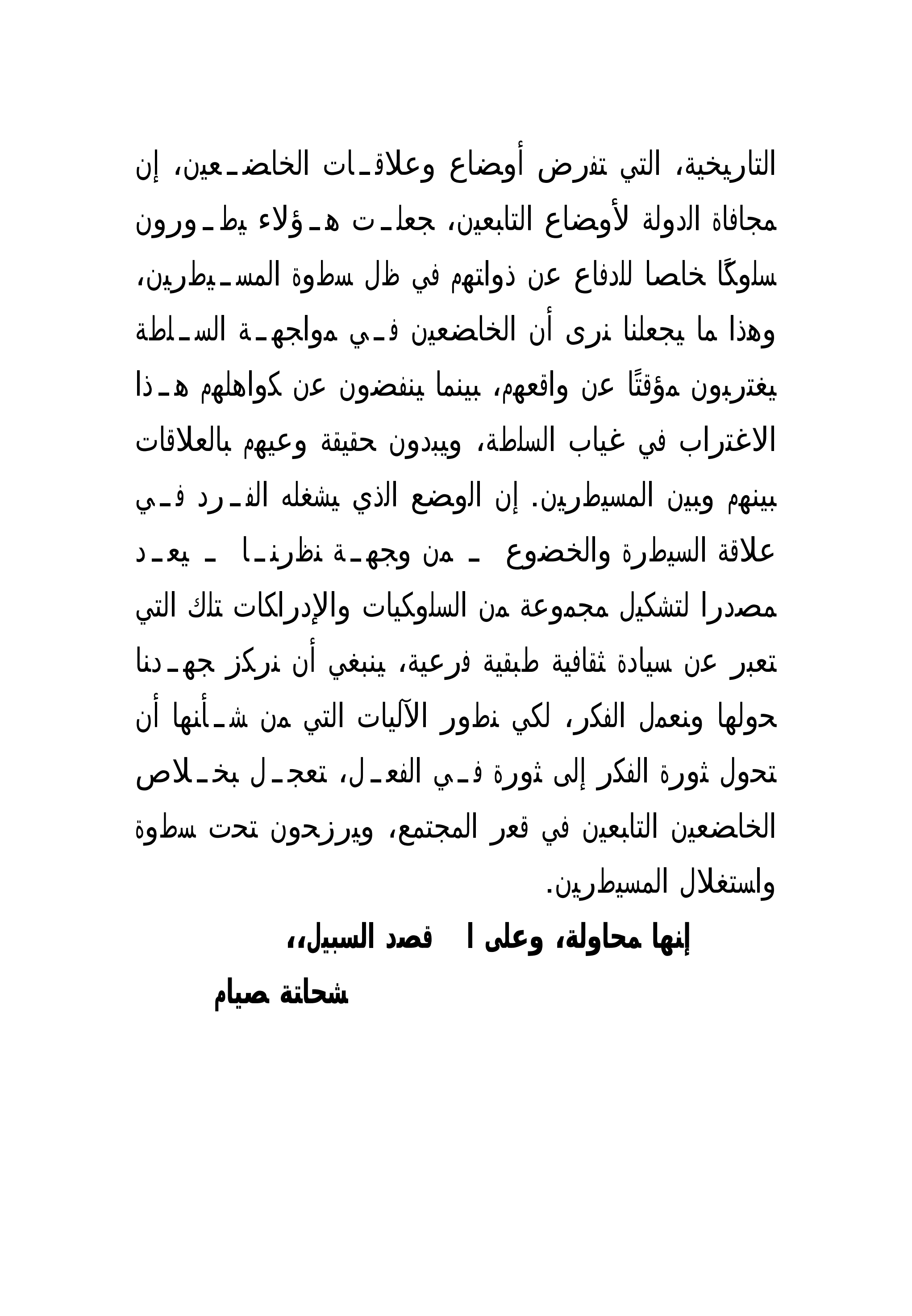
التفاعل اليومي، إنه في إطار هذا التوجه يمكننا سبر أغـوار الحياة اليومية في إطار علاقة القوة والخضوع، ذلـك الـذي يمكنه أن يفعل آليات التحليل للكشف عن طرائـق التفكيـر وردود الأفعال تجاه هذه العلاقة، أو بمعنـى آخـر إن علـم الاجتماع الجزئي وفق هذا التوجه، يمكنه أن يكشف عن زبدة الفكر المحايث للتجارب الصراعية الواقعية، التي ترافقت مع الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية لواقع ما بعد الليبرالية.

ففي إطار مجتمع ما بعد الليبراليـة، أو فـي ظـل أوضاع الليبرالية المتوحشة، التـي أعـادت إنتـاج طبقـة اجتماعية بعينها، وأدارت ظهرها للطبقات الأخرى، خاصـة في ظل أفول الدور الاجتماعي للدولة في العالم الثالـث. إن السياسات الحكومية في هذه البلدان باتت مجـرد ضـلالات، حيث تركت الحبل على الغارب لتفوق الطبقات المالكة، فـي مقابل تدني وانسحاق الطبقات الأخرى، إنـه نتيجـة لهـذه الأوضاع، وفي ظل تفوق المسيطر الذي تحميه الدولة فـي العالم الثالث، وفي إطار توجهات الدولة العالمية ومشوراتها التي تصدرها، فإن ثمة حيلاً دفاعية اصطنعها الخاضـعون لحماية ذواتهم من عدم تسريحهم والزج بهم على الطرقـات

والشوارع والأزقة. إن تطوير الحيل الدفاعية من قِبل الخاضعين، جعل من هؤلاء في وضع مرائي أو نفاقي، الأول أمام السلطة إذ يبدون موافقتهم على الخضوع، وفي غياب السلطة يبدون مواقفهم الحقيقية التي تعبر عن الصراع الطبقي الحقيقي ولكن في شكله المستتر.

إن الأداء التمثيلي الذي يؤديه الخاضعون في إطار الواقع الحياتي لضمان بقائهم الجسدي وإشباع احتياجاتهم الأساسية حتى لا يواريهم التراب، تعد من وجهة نظرنا ثورة في الفكر وليست في الفعل، تلك التي توضح إلى أي مدى يحمل الخاضعون سلوكًا متناقضا، الأول يأتي على نحو محافظ في وجود السلطة، والآخر رافض من خلف ظهر السلطة. إن طبيعة السلطة أملت على الخاضعين سلوكًا رجعيا في مواجهة السلطة، وهو ما فرضه نمط التفكير وإدراك عادات وظروف الحياة التي يعيشون في إسارها.

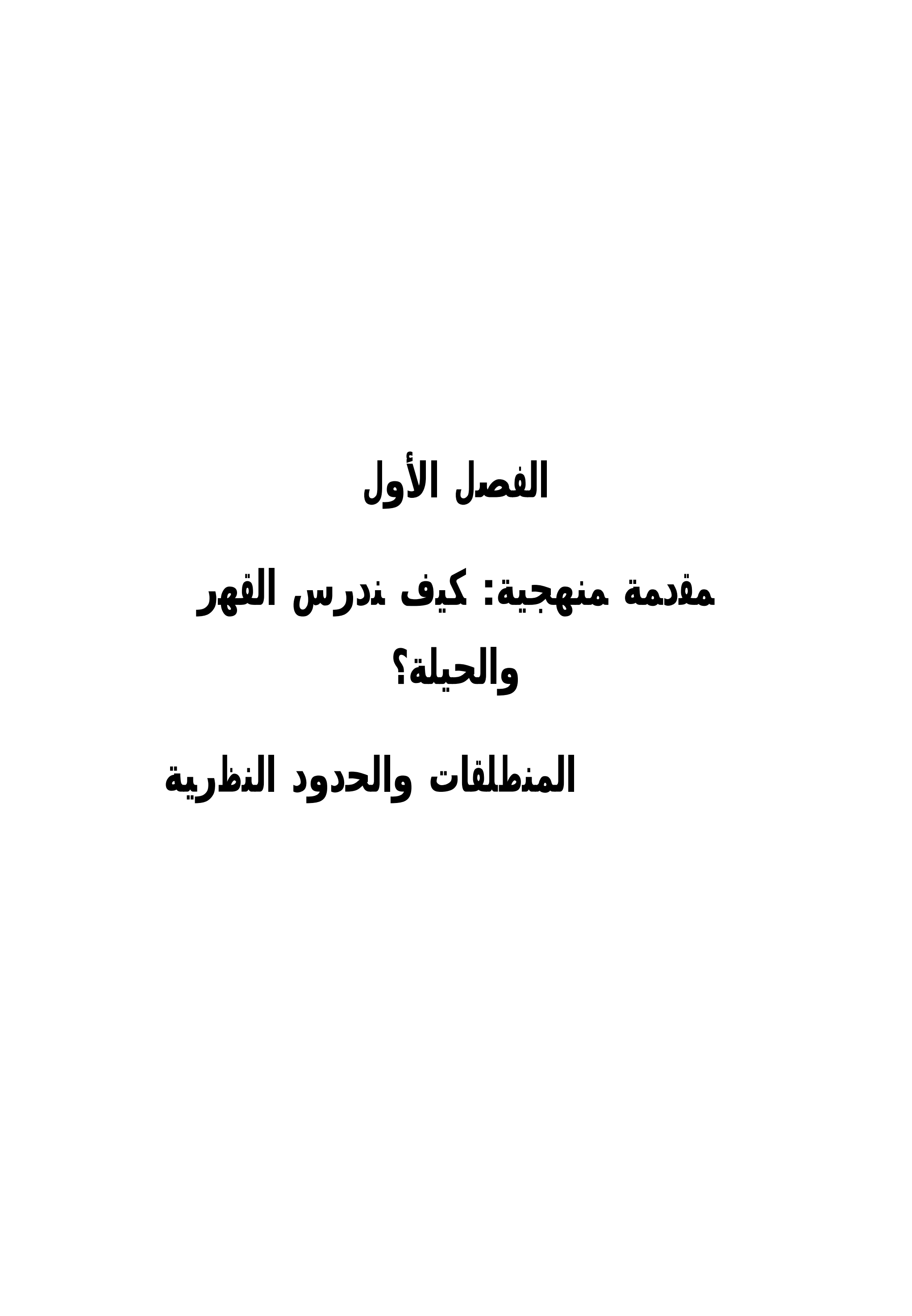
وأحرى بنا أن نسجل هنا، أنه إذا كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية المعاشة تفرض هذه الأوضاع على الخاضعين، فإن ذلك لا يتخاصم مع تاريخ هذه المجتمعات، التي لم تنفصل عن المركب النفسي والثقافي وشخصيتها



التاريخية، التي تفرض أوضاع وعلاقات الخاضعين، إن مجافاة الدولة لأوضاع التابعين، جعلت هؤلاء يطورون سلوكًا خاصا للدفاع عن ذواتهم في ظل سطوة المسيطرين، وهذا ما يجعلنا نرى أن الخاضعين في مواجهة السلطة يغتربون مؤقتًا عن واقعهم، بينما ينفضون عن كواهلهم هذا الاغتراب في غياب السلطة، ويبدون حقيقة وعيهم بالعلاقات بينهم وبين المسيطرين. إن الوضع الذي يشغله الفرد في علاقة السيطرة والخضوع - من وجهة نظرنا - يعد مصدرا لتشكيل مجموعة من السلوكيات والإدراكات تلك التي تعبر عن سيادة ثقافية طبقية فرعية، ينبغي أن نركز جهدنا حولها ونعمل الفكر، لكي نطور الآليات التي من شأنها أن تحول ثورة الفكر إلى ثورة في الفعل، تعجل بخلاص الخاضعين التابعين في قعر المجتمع، ويرزحون تحت سطوة واستغلال المسيطرين.

إنها محاولة، وعلى ا قصد السبيل،،

شحاتة صيام



الفصل الأول

مقدمة منهجية: كيف ندرس القهر والحيلة؟

المنطلقات والحدود النظرية

مقدمة:

يعج عالم الحياة اليومية بمجموعة متنوعة من أشكال السلوك والتفاعل الاجتماعي، التـي تلعـب فيهـا الأشـكال التعبيرية والرمزية دورا متعاظمـا. إن الأشـكال الرمزيـة للتعبيرات اللفظية والإشارات والحركات، تعد آلية هامة فـي عملية الاتصال في واقع الحياة الاجتماعية الإنسانية، خاصة مع اتساع وتطور الرأسمالية، إذ تم إعـادة إنتـاج الوسـائل الرمزية. والتأكيد عليها كوسـيلة اتصـال بـين الفـاعلين الاجتماعيين في محيط ومواقع العالم المعاش.

وإذا كان هذا الشكل من الاهتمام قد حظي باهتمـام الرواد الأوائل في علم الاجتماع، بدءا من دور كايم وزيميل ومانهايم وفيبر وحتى ماركس، فإنه اليوم قد لاقـى اهتمامـا واسعا، وهو ما يشهد عليه كم التنظيـرات الحديثـة التـي طرحت على ساحة السوسيولوجيا، وعلى الرغم من أن هذه التنظيرات تعد - من وجهة نظر البعض - انقلابـا علـى الأسس النظرية الأولى التي طرحها الرواد، إلا أنهـا تعـد تطويرا لها في إطار ما هو معاش وواقعي. إن التطوير الذي حدث للرؤى النظرية تعد فـي نظرنـا تجـاوزا للمقـولات

الأساسية في ضوء التطور الذي طرأ على واقع المجتمعـات الإنسانية، وانهيار ما يسمى بـالرؤى الواسـعة المتحزبـة والأيديولوجيات التي عرفتها الإنسانية في وقت سعار الحرب الفكرية بين ما يسمى بالرأسمالية والاشتراكية.

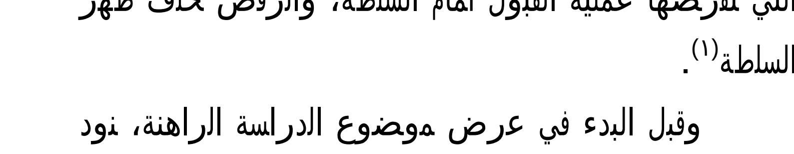
ولما كان البحث الراهن معنـي بالأسـاس بتحليـل وسائل السيطرة والخضـوع مـن خـلال فهـم العلاقـات الاجتماعية بينها، وآليات التأثر والتأثير في هذا الصدد، فإننا يمكن أن نسبر غور هذه المسألة في ضوء فهم آليات الفهـم العقلاني والمعنى الخاص الذي يدفع به في إطار العلاقـات الاجتماعية. إن علاقات القوة في إطار أي نظـام اجتمـاعي ترتبط بشكل خاص بعلاقات السيطرة التي تفرضها معـايير القوة، أي قوة، سواء بشكل مادي أو حتى بشكل رمزي. إن ذلك يفرض بالضرورة تفحص المفـاهيم الاجتماعيـة لهـذه العلاقة في ضوء ما تفرضه الأشكال الرمزية القائمة في أي تركيب اجتماعي. إن تشخيص هذه المفاهيم تفرضها الأشكال الرمزية - التي ترتبط بشكل عام بالأيديولوجية القائمة فـي المجتمع من جانب، وبالقيم والعادات والظروف الحياتية مـن جانب آخر.

ويجدر أن نشير هنا، إلى أنه يمكن الكشف عن علاقات القوة والسلطة من خلال المفاهيم الاجتماعية السائدة في إطار الحياة اليومية مثل: المدن والعمل والفصول، أو في الأماكن التي يقضي فيها الناس معظم أوقاتهم، ويفعلون فيها تفاعلاتهم، ويطورون سلوكياتهم من أجل تحقيق أهدافهم ومقاصدهم. وإذ هنا نركز على مفهوم القوة والسلطة في إطار الحياة اليومية، فإننا سوف نتجنب قليلاً ما تشير إليه الأدبيات السوسيولوجية الواسعة (الماكرو) التي تعرض لها كل من ماركس وإنجلز وحتى فيبر، على أننا سوف نركز على الأشكال الرمزية التي تعبر عنها واقع الحياة اليومية، أقصد الجدل والنزاع الذي يدور رحاه بين الناس في إطار الكلمات والرموز والتصرفات في مجال الحياة الاجتماعية، إننا نرى وفقًا لذلك أن الأشكال التعبيرية التي تنتج عن الصراع والنزاع، تعد جزءا متمما للصراعات الاجتماعية التي تنتج في إطار الواقع المعاش.

لقد أضحت لسوسيولوجيا الحياة اليومية التي عرفها علم الاجتماع المعاصر نفوذها الخاص، إذ جعلت لعالم الاجتماع دورا يتصل بدور المصور الفوتوجرافي، إنه

مصور النظام الاجتماعي في لحظة معينة من الزمن، إذ من خلال الإيديولوجية الخاصة بالنظريات الاجتماعية الحديثة الكامنة خلف هذا التصور، جعلته يركز وحسب على ملاحظة التفاعلات والتصرفات، وتحليل النظام وفق حالته الراهنة، والبرهنة من خلال هذه الحالة على حالات الصراع التي تتضح بجلاء من خلال آليات الخضوع والمقاومة والحيل الدفاعية أو ما نسميه بالسلوك العقلاني.

إن الوقوف على حالات الصراع في إطار الحياة اليومية من خلال مفهومي الخضوع والسيطرة، تفضي إلى وجود ما يسمى بالمقاومة السلبية، وتفرض تنوعا في صور المقاومة التي تفرضها الحيل الدفاعية، وما ينتج عنها من تصرفات في مواجهة السلطة أو في غيابها. إن الوقوف على هذه السلوكيات أو التصرفات من خلال الموقف أو الحيز المكاني، يجعلنا نتوجه إلى الفعل ورد الفعل، وهذا ما يجعلنا نبتعد عن التوجه الماكرو سوسيولوجي، وفي الوقت عينه يجعلنا لا نبتعد عن الفعل الاجتماعي الذي إما أن يفرض الانتظام والتكامل، أو يفرض الصراع بصورة غير مباشرة. إن ذلك يفرض بالضرورة الكشف عن المجاز أو الاستعارات


التي تفرضها عملية القبول أمام السلطة، والرفض خلف ظهر السلطة[١].

وقبل البدء في عرض موضوع الدراسة الراهنة، نود أن نؤكد مرة أخرى، على أننا نشيح عن اهتمامنا السقوط في فخ النزعة النظامية، أو الموضوعات الكبرى، التي لا تستند إلى المتغيرات التفسيرية في ضوء إعادة تركيبها مع البناء الثقافي السياسي القائم. بمعنى آخر، إننا سوف لا نلجأ إلى التبسيط السوسيولوجي، لذا تجدنا نتجافى مع التحليلات الواسعة التي لا تفيد في رؤية وتحليل الأفعال في داخل البنيات غير النظامية - تلك التي سوف تفيد في الوقوف على الاختيارات الرشيدة أو العقلانية في علاقة السيطرة بالخضوع.

أولاً: في تبديل المقولات النظرية:

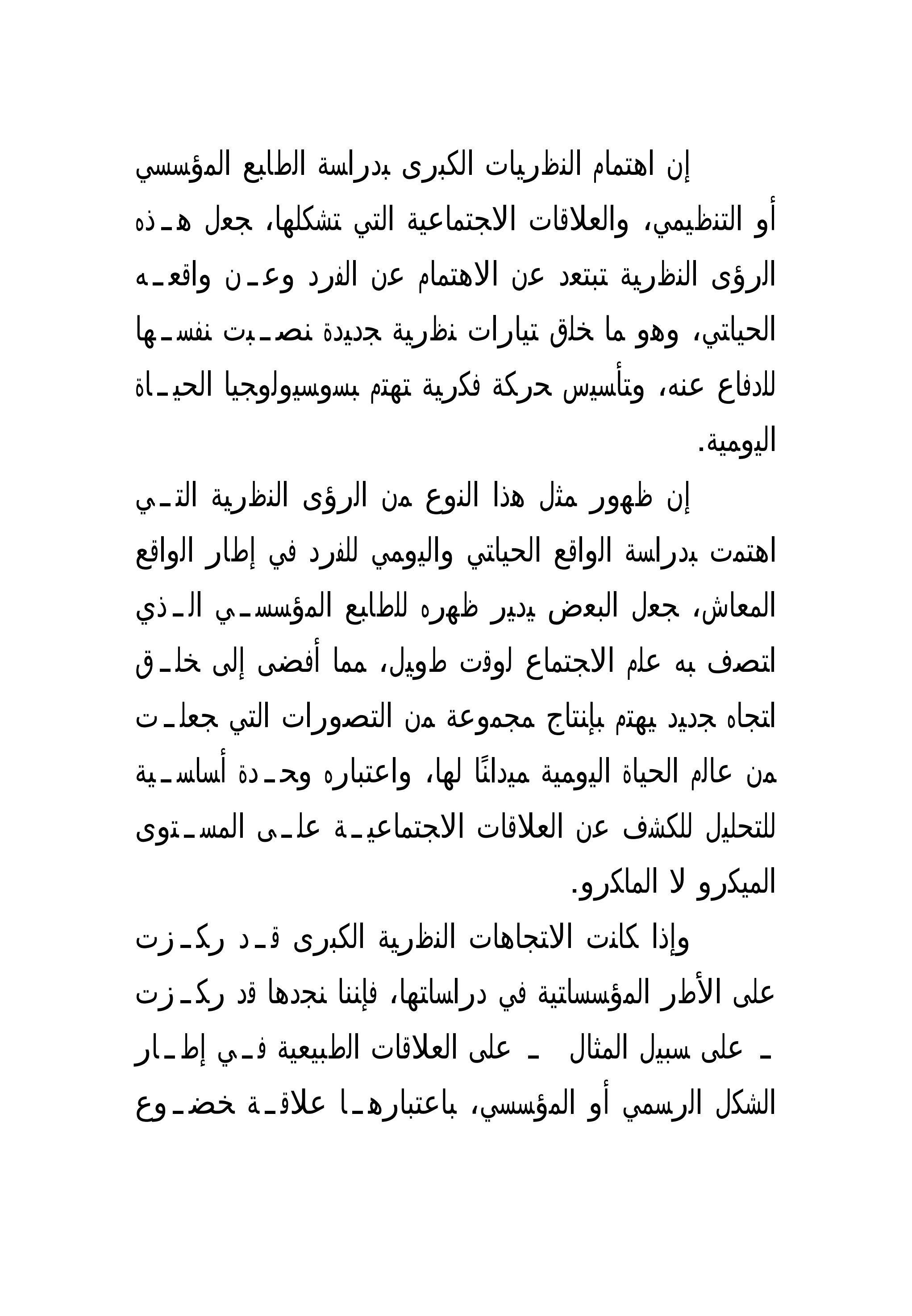
السيطرة والخضوع:

شهدت ساحة علم الاجتماع جدلاً واسعا بين الرؤى النظرية التي عرفها، تلك التي عبرت عن فكر ووجود تكوينات اقتصادية واجتماعية بعينها. إن الصراع الاجتماعي

الإيديولوجي الذي دار رحاه بين الاتجاهات النظرية الواسعة التي تعكس تحزبا واضحا لنمط إنتاج بعينه، ناهيك عن دفاعها عن طبقة اجتماعية بذاتها.

إن الذود عن حصون أنظمة اجتماعية معينة من قِبل توجهات الرؤى النظرية الواسعة أو الكبرى، جعل من هذه الأنظمة هي نهاية المطاف، أو الجنة الموعودة، التي لا ينبغي تجاوزها أو تفعيل حفاري قبورها، وإن كانت هذه الاتجاهات الكبرى قد شحذت كل قواها المادية والفكرية من أجل عدم تجاوزها، أو حتى كشف عوراتها، فإنها في المقابل قد أفرزت مجموعة من الدفوعات النقدية، تلك التي ساهمت في إبراز المآزق النظرية والمنهجية التي تكتنف كلاً منها.

وبغض النظر عن طبيعة النقد الموجه من كل من الاتجاهين إلى الآخر، إلا أن أهم المدفوعات النقدية التي جاءت من بين طيات كل منها تتمثل في أن الاتجاهات النظرية الكبرى كانت ذات نظرة واسعة أو رحبة، اهتمت بتحليل الأبنية الكلية، أو قل اهتمت بدراسة النظم والأطر الضابطة، الأمر الذي جعلها ترتكن إلى دراسة العلاقات المؤسسية أو التنظيمية.



إن اهتمام النظريات الكبرى بدراسة الطابع المؤسسي أو التنظيمي، والعلاقات الاجتماعية التي تشكلها، جعل هذه الرؤى النظرية تبتعد عن الاهتمام عن الفرد وعن واقعه الحياتي، وهو ما خلق تيارات نظرية جديدة نصبت نفسها للدفاع عنه، وتأسيس حركة فكرية تهتم بسوسيولوجيا الحياة اليومية.

إن ظهور مثل هذا النوع من الرؤى النظرية التي اهتمت بدراسة الواقع الحياتي واليومي للفرد في إطار الواقع المعاش، جعل البعض يدير ظهره للطابع المؤسسي الذي اتصف به علم الاجتماع لوقت طويل، مما أفضى إلى خلق اتجاه جديد يهتم بإنتاج مجموعة من التصورات التي جعلت من عالم الحياة اليومية ميدانًا لها، واعتباره وحدة أساسية للتحليل للكشف عن العلاقات الاجتماعية على المستوى الميكرو لا الماكرو.

وإذا كانت الاتجاهات النظرية الكبرى قد ركزت على الأطر المؤسساتية في دراساتها، فإننا نجدها قد ركزت - على سبيل المثال - على العلاقات الطبيعية في إطار الشكل الرسمي أو المؤسسي، باعتبارها علاقة خضوع

وسيطرة من قِبل فئات معينة على أخرى، تقرر بشكل صريح ومعاش كيفية الاستيلاء على العمل فضلاً عـن توضـحيها للآليات المستخدمة في هذا الصدد. وحيث إننا نهتم في هـذه الدراسة بهذه القضية، أقصد علاقات السيطرة والخضـوع، فإننا لا نستند إلى المستويات الواسعة. إننا ندير ظهورنا إلى المستويات الماكرو، ونتعلق بالرؤى النظريـة التـي تهـتم بسوسيولوجيا الحياة اليومية، لاقترابها بشكل كبير من الواقع اليومي المعاش، والتي من خلالهـا يمكـن الوقـوف علـى وتشخيص علاقات القوة (السيطرة - الخضـوع) وآليـات التصرف تجاه مثل هذه العلاقة.

وعلى الرغم من إدراكنا أن العلاقة بـين المسـيطر والخاضع هي شكل مـن أشـكال السـيطرة البنيويـة فـي المجتمعات الإنسانية، إلا أننا هنا ننظر إليها في إطار الحكـم الشخصي الذي من خلاله يمكن الوقـوف علـى مجـالات التصرف الواسعة لكل من المسيطر والخاضـع فـي إطـار علاقات القوة. إننا نسعى إلى الوقوف على آليـات السـلطة سواء بشكلها العلني أو المستتر، في مقابل الوقـوف علـى آليات الخضوع وفق هذا المنحنى أيضا. إننا بمعنـى آخـر

سوف نحاول أن نقف على قواعد تنظيم الاتصال العلني بين الطبقات الاجتماعية، وما يفرز ذلك مـن مجـال أو وجـود اجتماعي لهذه العلاقة، في ضـوء رد الفعـل أو المقاومـة وأشكالها سواء العلنية أو المستترة.

إننا وفقًا لما سبق يمكن قراءة وفهم علاقات القوة من خلال مفهوم السلطة في إطار ما هو يومي، وكيف أن لكـل جماعة خاضعة أو مسيطرة إرثًا خفيا للممارسات، يظهر في حين، ويختفي في حين آخر، وهو ما نطلق عليه بالخطـاب الخفي أو العلني لكل من أصحاب السلطة والخاضـعين فـي إطار ما هو يومي.[٢].

ولكن ماذا يقصد بالحياة اليومية هنـا، إننـا سـوف نردها إلى ما ذكره أحمد زايد، الذي يقول ".. إنها الوجـود المتعين للإنسان أو حالة الوجود التـي لا يحـددها حـدود نظامية.. إذ تتضمن مكونات عدة هـي: الوسـط المعيشـي Habitus.. أو الوسط الثقافي.. وأشـكال التبـادل المـادي والثقافي.. وأشكال التدخل التي تسهم في إعادة إنتاج الحيـاة اليومية.." وإذا كنا نوافق على ما أتى به زايـد حـول هـذا التعريف، فإننا يمكن أن نضيف إليه أنه الوجـود الجسـدي

والاجتماعي والتاريخي الذي يمسك ببنية العـالم المعـاش، والذي يسعى في الوقـت ذاتـه لتعيـين الأسـس الحياتيـة والعلاقات الاجتماعية القائمة في الواقع المعاش..

إنه في إطار التعريف السابق فإننا يمكـن أن نحـدد العلاقة بين الأطراف الفاعلة في علاقة السيطرة والخضـوع من خلال ما يسمى بالخطاب العلني أو المستتر، ذلك الـذي يتحدد من خلال مجموعة المحكات التالية:

أولاً: إن الخطاب (سواء العلني أو المستتر) يعبر عن علاقة اجتماعية في إطار موقع حياتي معين، يؤدي فيه كل من الخاضع والمسيطر أدوارا محددة.

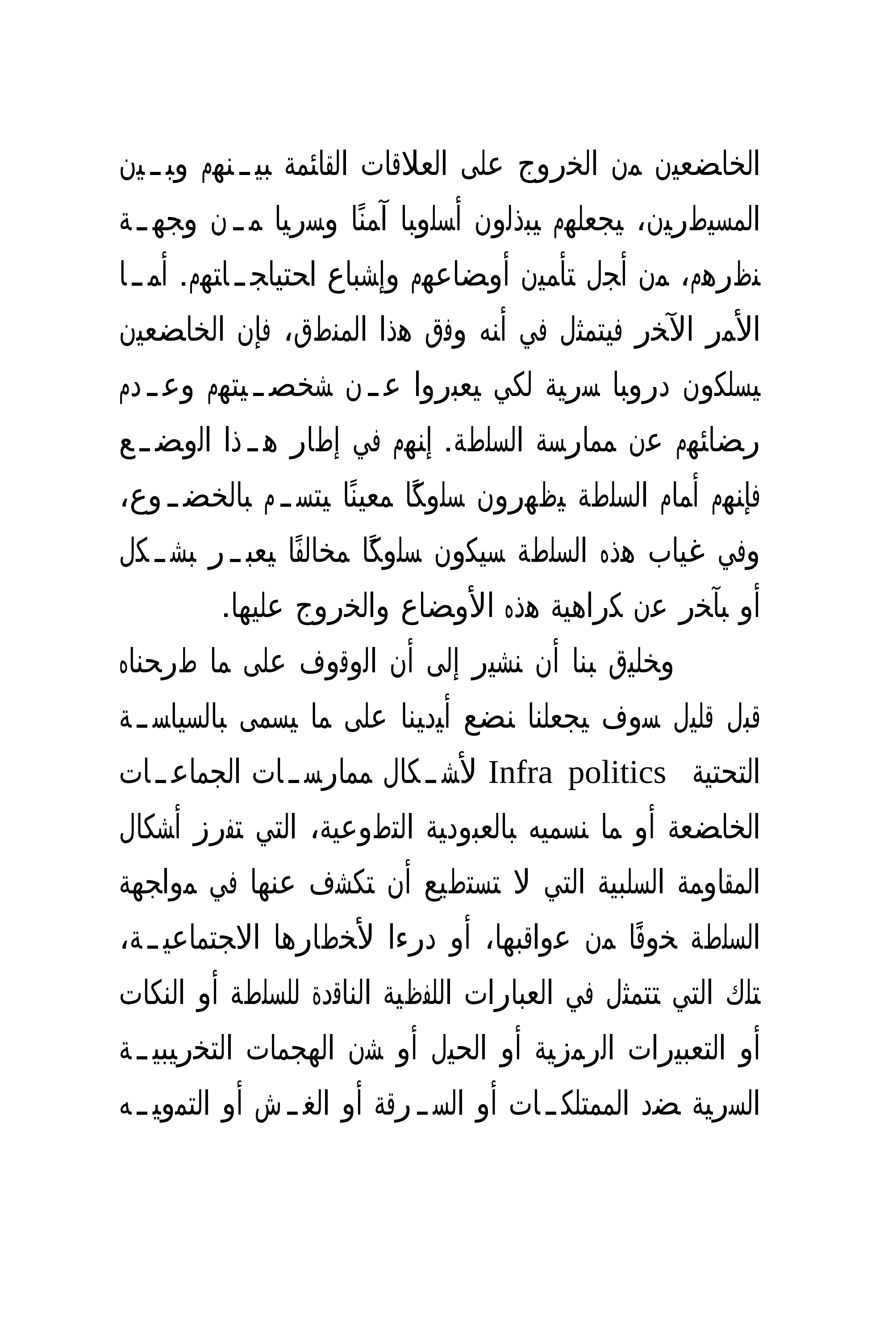
ثانيا: إن الحدود بين الخطاب العلني والمستتر تفصـح عـن وجود نوع من العلاقـات الصـراعية، التـي هـي بالأحرى شكل من الأشكال اليومية للصراع الطبقي.

ثالثًا: إن الخطاب وفق شكله الصراعي لا يأتي مـن خـلال أفعال واضحة، بل هي مجموعة مـن التصـرفات المستترة التي تأتي إما ملفوظة أو مموهة أو تحتيـة، وتأتي دائما من وراء السلطة.

رابعا: إن الخطاب الخفي للجماعات الخاضعة يأتي وفق حيل معينة أو ممارسات سرية، من شأنها أن تعبر عن عدم الرضا بهذه العلاقة والمقاومة السلبية لها من جانب، وتكشف عن كيفية تعايش الخاضع مع السلطة من جانب آخر أو ما يفرزه من اقتصاد أخلاقي رمزي، يكشف عن أدوار الفاعلين في ضوء مفهوم الصراع الاجتماعي.

خامسا: إن الخطاب الخفي يعبر عن تفاعلات الحياة اليومية للقابعين في قعر السلطة، وذلك الذي يفرز نوعا من الثقافة التحتية الانشقاقية، أو ما نسميه بالمقاومة السلبية التي نعتبرها نوعا من العراك الطبقي في ضوء المعايير المجتمعية الجديدة، التي تدير ظهرها لحق الخاضعين، وتقف في صف المسيطرين.

ومن المقطوع به في إطار المحكات السابقة، أن قراءة وتفسير العلاقة بين السيطرة والخضوع تمكننا من فهم سياسات المقاومة التي يمارسها الخاضعين لتحرير سياسات الخضوع برغم تعارضها مع مصالحهم. وفي هذا الإطار ينبغي ألا يفوتنا أن نعي أمرين، الأول مؤداه، أن خوف



الخاضعين من الخروج على العلاقات القائمة بينهم وبين المسيطرين، يجعلهم يبذلون أسلوبا آمنًا وسريا من وجهة نظرهم، من أجل تأمين أوضاعهم وإشباع احتياجاتهم. أما الأمر الآخر فيتمثل في أنه وفق هذا المنطق، فإن الخاضعين يسلكون دروبا سرية لكي يعبروا عن شخصيتهم وعدم رضائهم عن ممارسة السلطة. إنهم في إطار هذا الوضع فإنهم أمام السلطة يظهرون سلوكًا معينًا يتسم بالخضوع، وفي غياب هذه السلطة سيكون سلوكًا مخالفًا يعبر بشكل أو بآخر عن كراهية هذه الأوضاع والخروج عليها.

وخليق بنا أن نشير إلى أن الوقوف على ما طرحناه قبل قليل سوف يجعلنا نضع أيدينا على ما يسمى بالسياسة التحتية Infra politics لأشكال ممارسات الجماعات الخاضعة أو ما نسميه بالعبودية التطوعية، التي تفرز أشكال المقاومة السلبية التي لا تستطيع أن تكشف عنها في مواجهة السلطة خوفًا من عواقبها، أو درءا لأخطارها الاجتماعية، تلك التي تتمثل في العبارات اللفظية الناقدة للسلطة أو النكات أو التعبيرات الرمزية أو الحيل أو شن الهجمات التخريبية السرية ضد الممتلكات أو السرقة أو الغش أو التمويه

أو الفرح في المصائب. ناهيك عن إبراز سياسات التواطـؤ التي تتجلى في عبارات التبجيل والانصياع والصور المادحة والتوقير، ذلك الذي يعد جزءا من ثقافة الجماعات الشـعبية الخاضعة[٣] وأحرى بنا أن نشير هنا إلى أن مـا يـتم فـي مواجهة السلطة أو خلفها أو في غيابها، هو ما يطلق عليـه بالشكل البراني أو الجواني لعلاقات السيطرة والخضوع التي تأخذ أنماطًا متباينة وفق اعتبارات الحيز الاجتماعي الذي يتم في إطاره الفعل[٤].

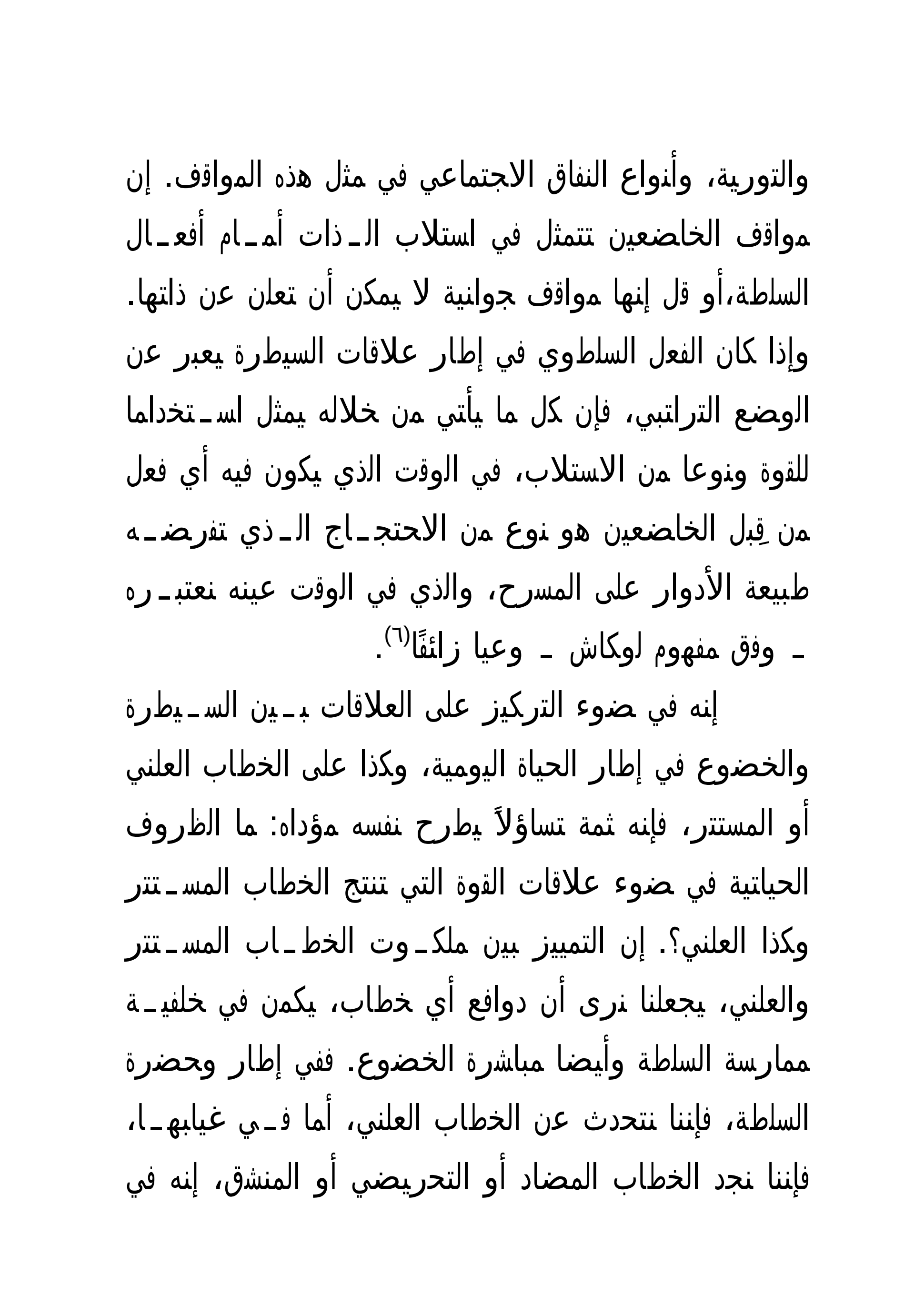
وإذا كانت الحياة اليومية تفرض تأثيرا معينًـا علـى السلطة في ضوء مفهوم التراتبية، فـإن ذلـك يتضـح دون مواربة من خلال ممارسات الاحترام والتبجيـل والتـوقير، الذي في الوقت آنه يسعى بشكل أو بآخر إلى كبت المشـاعر أو السيطرة عليها، أو إضفاء قناع معـين يخفـي الجـواني ويبرز البراني الذي يعتبر نوعا من الفعل المرائي أو النفاقي الذي تفرضه طبيعة الوجود وعلاقات التراتبية.

ففي الوقت الذي يبدو فيه الخاضع مكرها على هـذا الفعل من أجل البقاء والاستمرار، فإن من يقـع فـي دائـرة

السلطة يكون على عكس ذلك، إذ إن السلطة تكون غير مضطرة إلى لبس الأقنعة وممارسة التمثيل[5].

إن هذا الفعل هو ما نطلق عليه وفق تعبير سيكولوجي بالاستيهام، ذلك الذي يعتبر من ركائز الخطاب المستتر، الذي يمكن تعيينه من خلال العبارة التالية ".. إنه يعني لولا وجود أنواع معينة من العقوبات التي تفرضها السلطة، لبادل الخاضعون الفعل بالفعل، مثله أو زيادة..". إن الاستيهام وفق تعبير سكوت الفائت يأتي دائما في الأماكن الأكثر أمانًا، أو في المناطق الخلفية التي تأتي إما بشكل رمزي أو بشكل واضح وصريح.

وإزاء التعريف السابق فإنه يمكن أن نضيف أيضا، أنه إذا كان الخاضع يمثل، فإن السلطة لا تمثل، إن السلطة وفق نظام السيطرة، فإنها تنتج وفق وضعيتها التراتبية اندفاعه طبيعية نحو الغضب، وذلك الذي يتضح في الاستحواذ على العمل وإبراز الإهانات والاحتقار والعدوان على الآخر الخاضع، في مقابل إن الخاضع يفرز نوعا من كبح جماح مثل هذه الأفعال، ورد الفعل المتبادل، مما يفرض نوعا من السرية على الممارسات، ناهيك من بروز الحيل



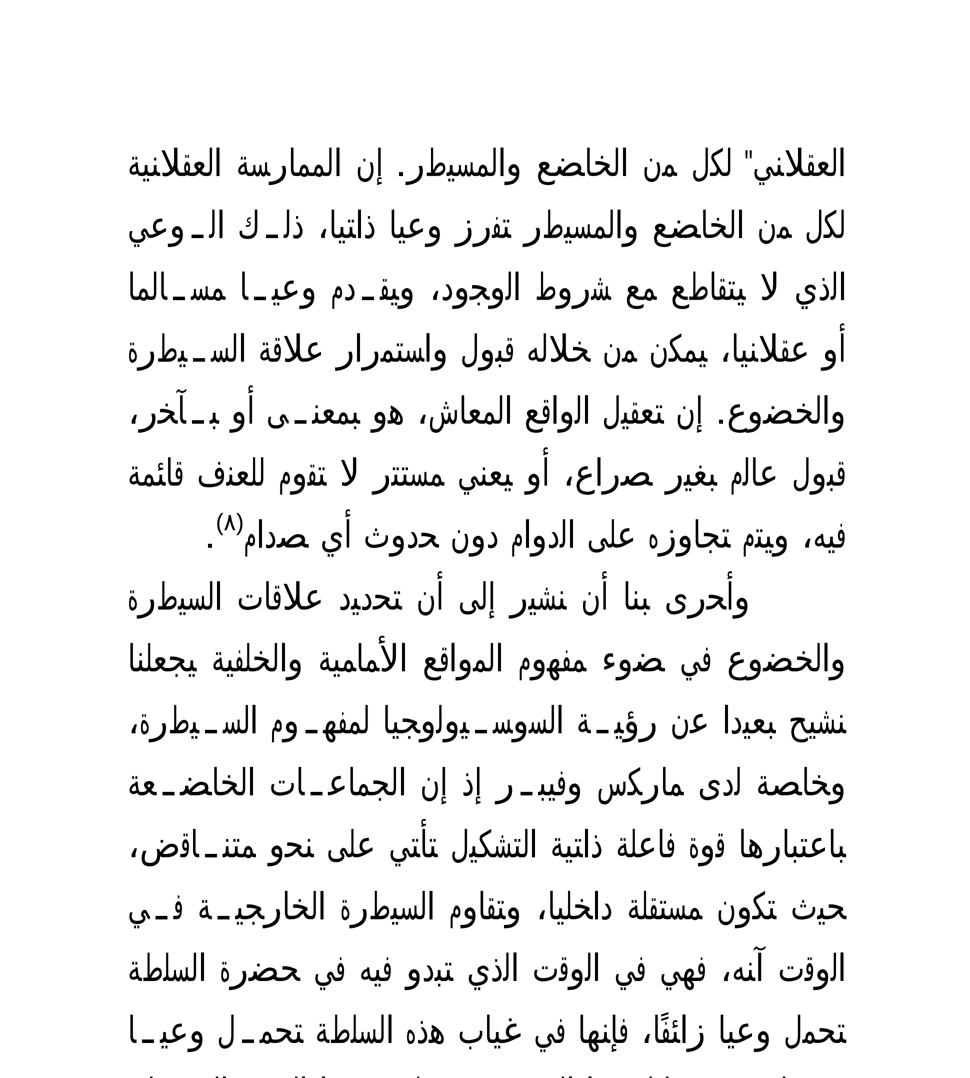
والتورية، وأنواع النفاق الاجتماعي في مثل هذه المواقف. إن مواقف الخاضعين تتمثل في استلاب الذات أمام أفعال السلطة،أو قل إنها مواقف جوانية لا يمكن أن تعلن عن ذاتها. وإذا كان الفعل السلطوي في إطار علاقات السيطرة يعبر عن الوضع التراتبي، فإن كل ما يأتي من خلاله يمثل استخداما للقوة ونوعا من الاستلاب، في الوقت الذي يكون فيه أي فعل من قِبل الخاضعين هو نوع من الاحتجاج الذي تفرضه طبيعة الأدوار على المسرح، والذي في الوقت عينه نعتبره - وفق مفهوم لوكاش - وعيا زائفًا(٦).

إنه في ضوء التركيز على العلاقات بين السيطرة والخضوع في إطار الحياة اليومية، وكذا على الخطاب العلني أو المستتر، فإنه ثمة تساؤلاً يطرح نفسه مؤداه: ما الظروف الحياتية في ضوء علاقات القوة التي تنتج الخطاب المستتر وكذا العلني؟. إن التمييز بين ملكوت الخطاب المستتر والعلني، يجعلنا نرى أن دوافع أي خطاب، يكمن في خلفية ممارسة السلطة وأيضا مباشرة الخضوع. ففي إطار وحضرة السلطة، فإننا نتحدث عن الخطاب العلني، أما في غيابها، فإننا نجد الخطاب المضاد أو التحريضي أو المنشق، إنه في

هذا الخطاب يمكن تصور الوسط أو الحيز الاجتماعي الـذي يفرز الخطاب العلني، ففي إطار ما يسمى "بالمواقع الأمامية" تكون علاقات القوة حاضرة، بينما في إطار "المواقع الخلفية" يتخلّق دائما ما يسمى بالخطاب المستتر.

إنه مما سبق يمكن القول، أن ثمة علاقة جدلية بـين الخطاب المستتر والخطاب العلني، ففي الوقت الذي يظهـر بشكل جلي ما يسمى بالخطاب العلني فـي إطـار ممارسـة السلطة، فإن هذه الممارسة هي التي تخلق الخطاب المستتر، أو بمعنى آخر، إن الخطاب المستتر هو رد فعـل للخطـاب العلني، وهو في الوقت عينه هو إنتاج ثقافة تحتية تعبر عـن نوع خاص من السيطرة الاجتماعية، وعن الدفاع عن مصالح خاصة، وهو ما نطلق عليها بملكوت السلطة والمصالح(٧).

وإذا كنا هنا نميز بين المواقـع الأماميـة والمواقـع الخلفية في إطار المسرح الاجتماعي، فإنه يتوجب علينـا أن نشير إلى المعنى الإصلاحي لمفهوم المواقـع. إنـه الحيـز الاجتماعي أو الوجود Existence، الذي من خلاله يمكن أن نمسك ببنية العالم المعاش، أو ما يطلق عليها "هـابرمـاس" بالانطولوجيات الإقليمية التي تفرز ما يسـمى "بالبراكسـس



العقلاني" لكل من الخاضع والمسيطر. إن الممارسة العقلانية لكل من الخاضع والمسيطر تفرز وعيا ذاتيا، ذلك الوعي الذي لا يتقاطع مع شروط الوجود، ويقدم وعيا مسالما أو عقلانيا، يمكن من خلاله قبول واستمرار علاقة السيطرة والخضوع. إن تعقيل الواقع المعاش، هو بمعنى أو بآخر، قبول عالم بغير صراع، أو يعني مستتر لا تقوم للعنف قائمة فيه، ويتم تجاوزه على الدوام دون حدوث أي صدام[٨].

وأحرى بنا أن نشير إلى أن تحديد علاقات السيطرة والخضوع في ضوء مفهوم المواقع الأمامية والخلفية يجعلنا نشيح بعيدا عن رؤية السوسيولوجيا لمفهوم السيطرة، وخاصة لدى ماركس وفيبر إذ إن الجماعات الخاضعة باعتبارها قوة فاعلة ذاتية التشكيل تأتي على نحو متناقض، حيث تكون مستقلة داخليا، وتقاوم السيطرة الخارجية في الوقت آنه، فهي في الوقت الذي تبدو فيه في حضرة السلطة تحمل وعيا زائفًا، فإنها في غياب هذه السلطة تحمل وعيا حقيقيا. وفي مقابل هذا الوصف، وعلى هذا المنوال فإن السلطة في الوقت الذي تهيمن فيه على القشرة الخارجية

للسلوك، فإنها على عكس ذلك، إذ إنها تسيطر على عقولهم، حيث ما تفرزه من كراهية في إطار المواقع الخلفية[٩].

إن مفهومي المواقع الأمامية والمواقع الخلفية يكشفان بجلاء عن تناقض سلوك الخاضعين في غيـاب أو حضـرة السلطة. إن المزاوجة بين الخضوع والمقاومة هو ما نطلـق عليه بـالتواطؤ، إذ إن الخاضـعين يعملـون دومـا وفـق ممارساتهم على ترسيخ عملية السيطرة، حيث إن خضوعهم لا يأتي وفق وعي صحيح منهم، أو باعتبـاره نوعـا مـن اللاوعي الذي يعبر عن الصوغ الجسدي للعلاقات المحـددة للسيطرة التي هي علاقات تواطؤ أو تناقض وجودي مع مـا يسمى بالفكر أو الوعي[١٠].

ثانيا: الحدود النظرية والمنطلقات:

في سوسيولوجيا الحياة اليومية

يثور جدل شديد بين المفكرين حول مدى احتياجنـا أو تسلحنا بنظرية اجتماعية معينـة، فـالبعض دفـع بأنـه لا ضرورة في استناد البحث لأي نظرية، حيـث إنـه مـن الواجب أن نذهب في دراسة أيـة ظـاهرة ونحـن خـاليين الوفاض من أي توجه نظري، وعلى خلاف هـذا الـدرب، فهناك من يرى أنه من الأهمية بمكان أن نستند إلى نظريـة اجتماعية معينة، حيث قدرة النظرية في الوصول إلى شاطئ الحقيقة.

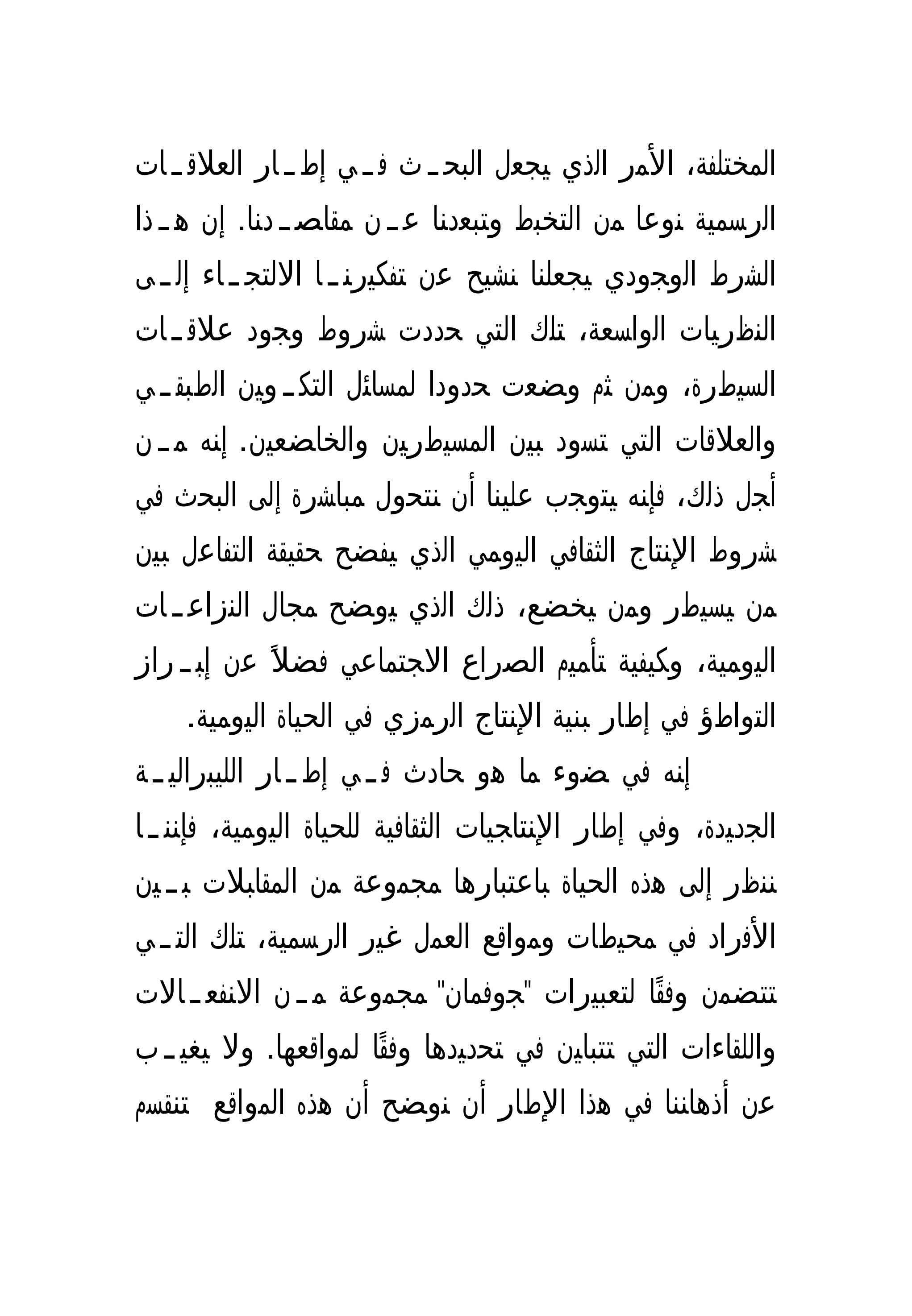
وإذا كنا نركن إلى الفريـق الأخيـر الـذي يسـلم بضرورة الاستناد إلى نظرية محددة، فإنـه يثـور تسـاؤل محوري مفاده: ما طبيعة هذا التوجه النظري؟ هل نستند إلى توجه نظري يتسم بالنظرة الكلية أو الرؤية الواسـعة التـي تعتبر أن المجتمع يتكون من مجموع الفاعلين المكونين له؟، وأنه - أي المجتمع - يعتبر مسئولاً عـن تشـكيل أفعـال

الفاعلين الذين يعتبرون جزءا منه، أم ننطلق من النظريـات الفردية أو الضيقة التي تؤمن بعكس ما تنادي به النظريـات الكلية أو الواسعة، وترى أنه من الواجب أن نركز وحسـب على الأفراد وأفعالهم وسلوكهم وتصرفهم، تلك التي يعتبـر المجتمع نتاجا لها.

إنه في إطار الاهتمـام بدراسـة علاقـات السـلطة والخضوع في إطار الحياة اليومية، فإننا نتخاصم مع الأطـر النظرية الكبرى التي حاولت تشييد رؤية نظرية خاصة فـي النظر في مثل هذه العلاقة في ضـوء طبيعتهـا النظاميـة والمؤسسية، وبذا تكون قبلتنا النظريات الصغرى التي تقترب بشكل واضح من الفهم الخاص للإنتاجات الثقافية التي يمكنها أن تشخص علاقات وأشكال الخضوع والسيطرة في إطـار الواقع المعاش، إن الفهم الخاص للإنتاجات الثقافية لعلاقـات الخضوع والسيطرة، تمكننا من الوقوف على مسائل السيطرة المادية والرمزية، وما ينتج عنها من عنف رمـزي يكشـف بعمق عن آليات الطبقات الاجتماعية الخاضعة فـي تكييـف أوضاعها وفق حيل دفاعيـة أو مـا نسـميه "بالبراكسـس العقلاني"(١٢).

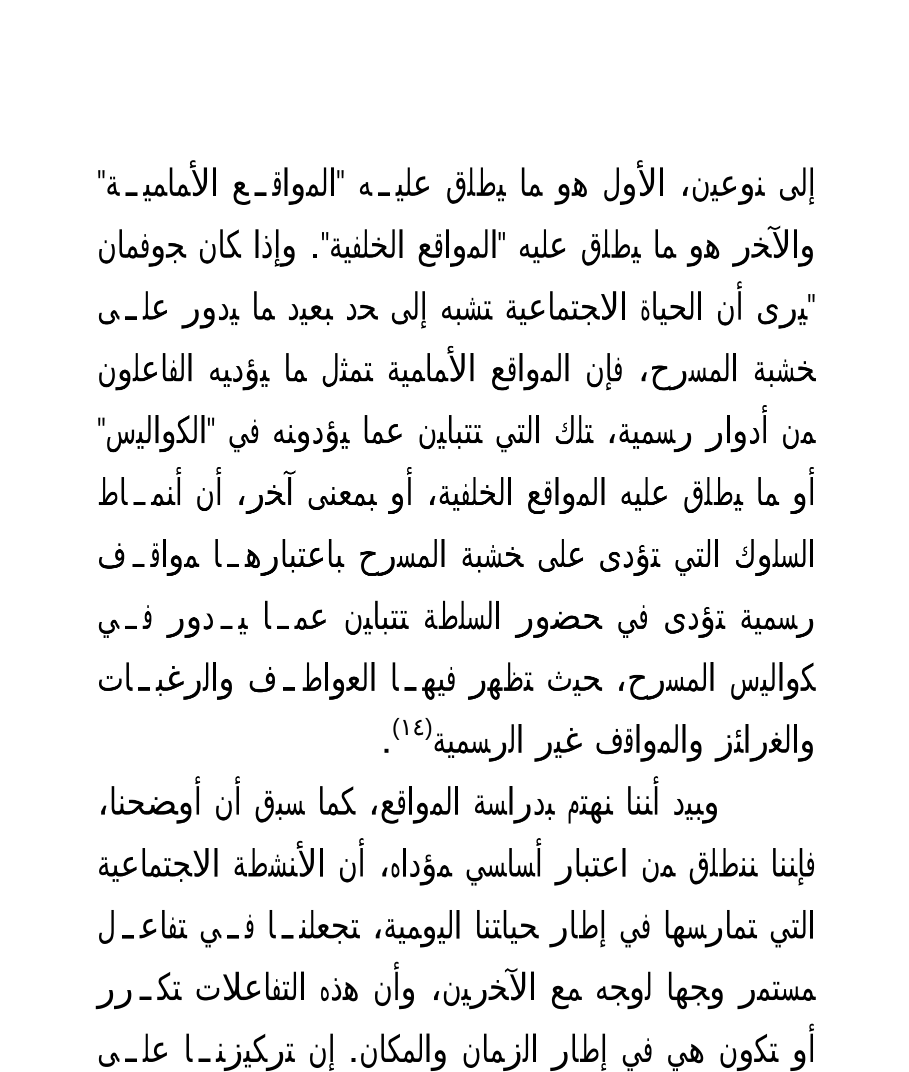
ومن الأهمية بمكان أن نوضـح أن تركيزنـا علـى استراتيجيات الخاضعين، والحيل الدفاعية التي تصدر عـنهم تجعلنا نضيق من مفهوم السيطرة.. التي جـاء بهـا الفكـر الماركسي، وخاصة لدى "جرامشي"، إذ إننا وحسب نسـتخدم هنا هذا المفهوم وفق معناه الرمزي، الذي يتناسـب بشـكل واضح مع الوقائع الاجتماعية اليومية التي تتمظهـر بشـكل جلي في إطار السلوك والتصـرفات التـي تصـدر خـلال الفاعلين في إطار علاقات العمل غير الرسمية، تلـك التـي انتشرت بشكل واسع في إطار سيادة سياسات الليبراليـة. إن الليبرالية. التي طغت علاقات إنتاجها على كل شـيء فـي المجتمع المصري، جعل من الدولة أداة طيعة في يد الطبقـة الرأسمالية، الأمر الذي أبعدها عن ضمان حقوق الخاضعين. إن الدولة وفق قانون السوق قد أفلت أدوارها، فلم تعد فـوق الطبقات، كما كانت من قبل، وإنما انحـازت إلـى الطبقـة الرأسمالية تلـك التـي فرضـت قسـرا شـروط العولمـة واستراتجيات الليبرالية الجديدة[١٣].

إن الدولة وفق السياسات التي أشرنا إليها لـم تعـد ضامنة لشروط العلاقات الرسمية في إطار تنظيمات العمـل



المختلفة، الأمر الذي يجعل البحث في إطار العلاقات الرسمية نوعا من التخبط وتبعدنا عن مقاصدنا. إن هذا الشرط الوجودي يجعلنا نشيح عن تفكيرنا الالتجاء إلى النظريات الواسعة، تلك التي حددت شروط وجود علاقات السيطرة، ومن ثم وضعت حدودا لمسائل التكوين الطبقي والعلاقات التي تسود بين المسيطرين والخاضعين. إنه من أجل ذلك، فإنه يتوجب علينا أن نتحول مباشرة إلى البحث في شروط الإنتاج الثقافي اليومي الذي يفضح حقيقة التفاعل بين من يسيطر ومن يخضع، ذلك الذي يوضح مجال النزاعات اليومية، وكيفية تأميم الصراع الاجتماعي فضلاً عن إبراز التواطؤ في إطار بنية الإنتاج الرمزي في الحياة اليومية.

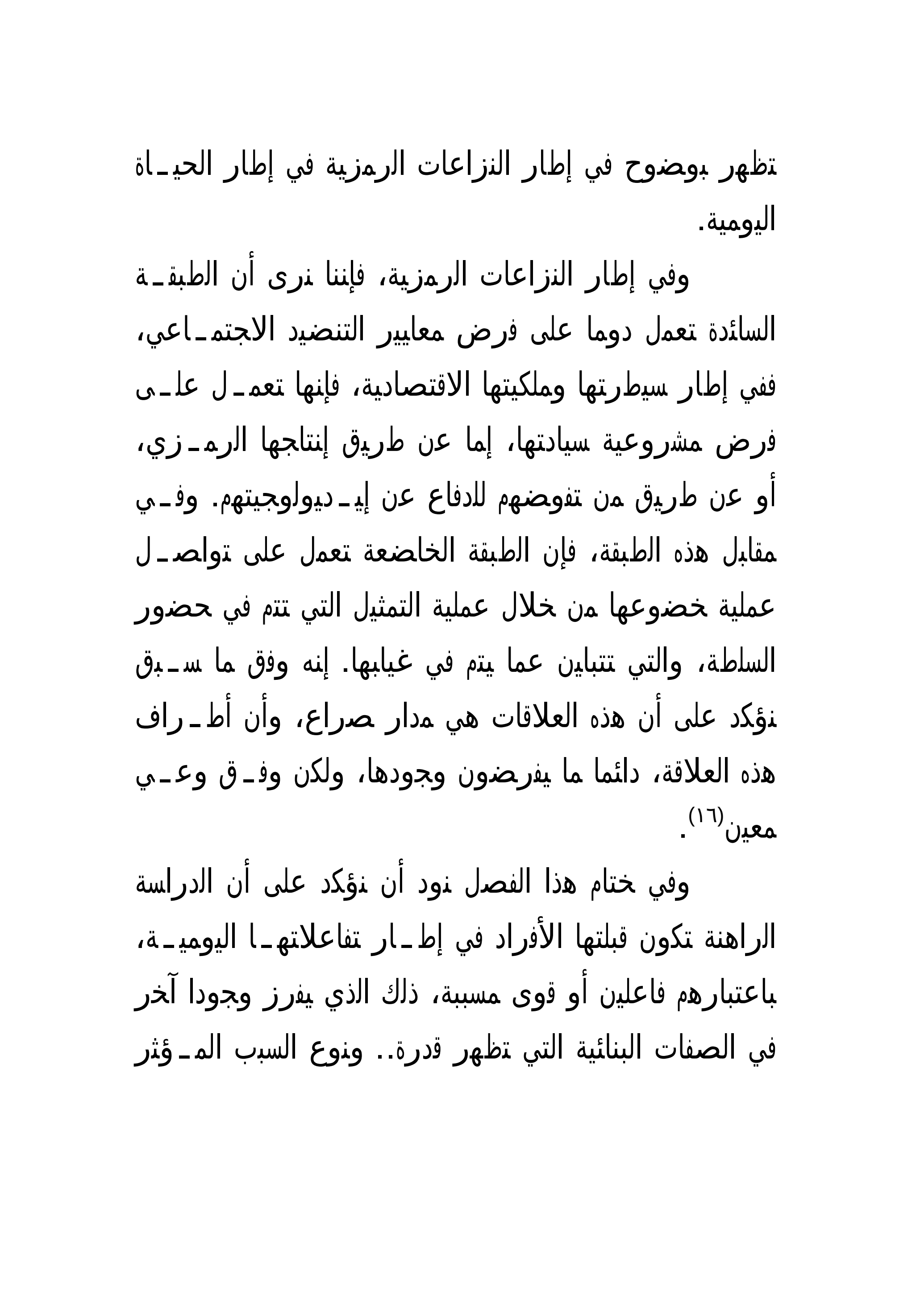
إنه في ضوء ما هو حادث في إطار الليبرالية الجديدة، وفي إطار الإنتاجيات الثقافية للحياة اليومية، فإننا ننظر إلى هذه الحياة باعتبارها مجموعة من المقابلات بين الأفراد في محيطات ومواقع العمل غير الرسمية، تلك التي تتضمن وفقًا لتعبيرات "جوفمان" مجموعة من الانفعالات واللقاءات التي تتباين في تحديدها وفقًا لمواقعها. ولا يغيب عن أذهاننا في هذا الإطار أن نوضح أن هذه المواقع تنقسم


إلى نوعين، الأول هو ما يطلق عليه "المواقع الأمامية" والآخر هو ما يطلق عليه "المواقع الخلفية". وإذا كان جوفمان "يرى أن الحياة الاجتماعية تشبه إلى حد بعيد ما يدور على خشبة المسرح، فإن المواقع الأمامية تمثل ما يؤديه الفاعلون من أدوار رسمية، تلك التي تتباين عما يؤدونه في "الكواليس" أو ما يطلق عليه المواقع الخلفية، أو بمعنى آخر، أن أنماط السلوك التي تؤدى على خشبة المسرح باعتبارها مواقف رسمية تؤدى في حضور السلطة تتباين عما يدور في كواليس المسرح، حيث تظهر فيها العواطف والرغبات والغرائز والمواقف غير الرسمية[١٤].

وبيد أننا نهتم بدراسة المواقع، كما سبق أن أوضحنا، فإننا ننطلق من اعتبار أساسي مؤداه، أن الأنشطة الاجتماعية التي تمارسها في إطار حياتنا اليومية، تجعلنا في تفاعل مستمر وجها لوجه مع الآخرين، وأن هذه التفاعلات تكرر أو تكون هي في إطار الزمان والمكان. إن تركيزنا على التفاعلات اليومية التي تحدث في إطار نطاق العمل غير الرسمي في إطار مفهومي الخضوع والسيطرة يجعلنا نركز على تحليل الكلام اليومي أو المحادثات التي من خلالها نفهم

معاني السيطرة والخضوع في إطار الروتين اليـومي فـي ضوء ما يعبر عنه مواقف وسلوك وتصرفات المسـيطرين والخاضعين(١٥).

ويجدر بنا أن نوضح في هذا المقام أن ما يـتم فـي إطار المواقع الأمامية يكون أكثر دقة مما يتم فـي المواقـع الخلفية، حيث يتحكم الأفراد في انطباعاتهم وشعورهم، بينما يكون العكس صحيحا إذا ما تأملنا ذلك في إطـار المواقـع الخلفية، حيث تعبر هذه المواقـع أو تفصـح عـن مسـائل الصراع المؤجلة والجوانية بين المسيطرين والخاضعين، وإذا كنا قد ضيقنا من مفهوم السيطرة لدى "جرامشي" كما سبق أن أوضحنا في موضع سابق من هذا الفصل، فإننا سوف نركز على تشخيص علاقات القـوة والسـيطرة بـين المسـودين والسائدين، أو على ما يسمى بالسلطة الماديـة والرمزيـة، والتي من خلالها يمكن تشخيص منظومة العلاقات الرمزيـة التي تسمح بتواصل ووجود بنى خاصة تفترض وجود تفوق من جانب، وخضوع من جانب آخر، وفق ما يسمى بـالعنف الرمزي. إن آليات الخضوع والسيطرة والتي نسـعى إلـى تشخيصها تقودنا إلى التأكيد على أن المصـالح الاجتماعيـة



تظهر بوضوح في إطار النزاعات الرمزية في إطار الحيـاة اليومية.

وفي إطار النزاعات الرمزية، فإننا نرى أن الطبقـة السائدة تعمل دوما على فرض معايير التنضيد الاجتمـاعي، ففي إطار سيطرتها وملكيتها الاقتصادية، فإنها تعمـل علـى فرض مشروعية سيادتها، إما عن طريق إنتاجها الرمـزي، أو عن طريق من تفوضهم للدفاع عن إيـديولوجيتهم. وفـي مقابل هذه الطبقة، فإن الطبقة الخاضعة تعمل على تواصـل عملية خضوعها من خلال عملية التمثيل التي تتم في حضور السلطة، والتي تتباين عما يتم في غيابها. إنه وفق ما سـبق نؤكد على أن هذه العلاقات هي مدار صراع، وأن أطـراف هذه العلاقة، دائما ما يفرضون وجودها، ولكن وفـق وعـي معين[١٦].

وفي ختام هذا الفصل نود أن نؤكد على أن الدراسة الراهنة تكون قبلتها الأفراد في إطـار تفاعلاتهـا اليوميـة، باعتبارهم فاعلين أو قوى مسببة، ذلك الذي يفرز وجودا آخر في الصفات البنائية التي تظهر قدرة.. ونوع السبب المـؤثر

في حقيقة تراكيبهم التي تتخلق من خلال القدرات الموجـودة في الأفراد.

وعلى الرغم من أن هذه الجماعات لا يـتم العثـور عليها في إطار المستويات التنظيمية في الحياة الاجتماعيـة، فإننا سوف نبحث عنها في إطار المواقـع التـي يـتم فيهـا استخدام البرجوازية المتوسطة لمستخدمين من الفئات التـي أخرجتهم سياسات الليبرالية من حساباتها، والتي فـي إطـار هذا الاستخدام يبزغ بوضوح علاقات السـيطرة والخضـوع سواء بشكل صريح أو مستتر وفق مبدأ العقلانيـة السـببية وليست العقلانية الوظيفية.

إننا نركز على الفعل أو السلوك والفاعل في إطـار الوجود الذي أفرزته روح الرأسمالية في محيط عالمي، وما تفرضه من سياسات فعلية في التراكيب الاجتماعيـة. عـن التركيز على السلوك الذي يصدر من خلال الفاعلين في زمن نهاية وجود الدولة أو قل قبرها، يجعلنا ننظـر إلـى البنـاء الموضوعي في هذا الإطار، ذلك الذي يفرز العلاقات الطبقية ليس على صعيد التنظيمات أو المؤسسات، ولكن في إطـار الشكل غير الرسمي المغروس في إطار الواقـع المعـاش،

وكيف أنه في ظل ظـروف عمـى الدولـة عـن مصـالح الخاضعين، يتكيف هؤلاء ويتحايلون على الظروف من أجل بقائهم؟، أو قل كيف ينتجون استراتيجيات التكيف والبقاء؟.

وفي ضوء كل ما سبق كآلية منهجية وفـي إطـار أهداف الدراسة الراهنة، فإن دراسة الحالة فرضـت حالهـا علينا، حيث قدرتها الفائقة في إنجاز مثل هذه الدراسـات، إن دراسة الحالة تعتبر من أفضل الآليات البحثية التي يمكن من خلالها أن نصل إلى فهم واسع ومثمر للعلاقات الاجتماعيـة في ضوء مفهومي السلطة والخضـوع. إن دراسـة الحالـة بإمكانها أن تصل إلى حجم العلاقات الحقيقيـة سـواء فـي وضعيتها الظاهرة أو الباطنة - في مجالات التفاعل ذاتهـا، حيث قدرتها على الغوص في أعماق عملية الانتظام القائمـة في التركيب الاجتماعي، وما يتأتى عن ذلك من أفعال ووعي معين يعكس طبيعة المواقع البنائية المحـددة، - باعتبارهـا وجودا - التي تشكل وتصيغ الأدوار، وتضع علاقات فارقة لمستويات السيطرة والخضوع، وما يتخلق من أفعـال فـي إطار ما يسمى بالمواقع الأمامية والخلفية.

مراجع وإشارات الفصل الأول:

(١) برتراند بادي، "التحليل المقارن وعلم الاجتماع التاريخي" ترجمة شريف بهلول، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، ١٣٣، أغسطس، ١٩٩٩، ص٥.

(٢) يأتي خطاب الحياة اليومية إما مكتوبا أو ملحوظات من قبل الفاعلين وأدوارهم في إطار الواقع الحياتي المعاش. وحول هذا المفهوم راجع:

أحمد زايد، خطاب الحياة اليومية في المجتمع المصري، دار القراءة للجميع، الطبعة الأولى، دبي، ١٩٩٢، ص٢٠.

(٣) حول القصد بخطاب الحياة اليومية في الدراسة الراهنة يمكن الرجوع إلى:

- المرجع نفسه، ص ١٩.
- هبرماس، القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٥، ص ٢٢٨.

(٣)Patterson O., Slavery and social death: A Comparative study Harvard Univ.. Press, Cambridge, ١٩٨٢, pp. ١١ – ١٢.

(٤) New by H ",. The deferential dialectic, " in: Comparative Studies society and history, No. ١٧, ١٩٧٥, pp. ١٣٩ – ١٤١.

(٥) Hochschild A. R., The Managed Heavt: The Commenalization of Human Feeling, Univ.. Of California press, Porkeley, ١٩٨٣, pp. ٩٠ – ٩٢.

(٦) Mccarthy T., The critical theory of Jurgen Habermas, Hutchinson, London, ١٩٨٩, pp. ٢٧٣ – ٢٧٥.

(٧) جيمس سكوت، المقاومة بالحيلـة: كيـف يهمـس المحكوم من وراء ظهر الحاكم، ترجمـة إبـراهيم العريس ومخايل خـوري، دار السـاقي، الطبعـة الأولى، بيروت، ١٩٩٥، ص، ص ٤٣ ـ ٤٦.

(٨) هبرماس، القول الفلسفي للحداثة...، مرجع سـابق، ص ٥٣١.

(٩) Scott J.,Weapons of the weak: Every day forms of peasant Risistance, Yale

univ. Press, New haven, ١٩٨٥, p. ٤١, p. ٣٠٤.

(١٠)بيير بورديو وجد. فاكونت، أسئلة علم الاجتمـاع: في علم الاجتماع الانعكاسي، ترجمة عبد الجليـل الكور، دار توبقال للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، المغرب، ١٩٩٧، ص، ص ٨ ـ ١٤.

(١١)حول هذه الأفكار راجع:

- أرفينج زايتلن، النظرية في علم الاجتماع، ترجمـة محمود عودة وإبراهيم عثمان، دار السلاسل، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٩٨، ص ٣١٨.
- سامية جابر، الفكر الاجتماعي: نشـأته واتجاهاتـه وقضاياه، دار العلـوم العربيـة، الطبعـة الأولـى، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٩٦.

(١٢)حول تغير طبيعة الدولـة فـي إطـار سياسـات الليبرالية راجع:

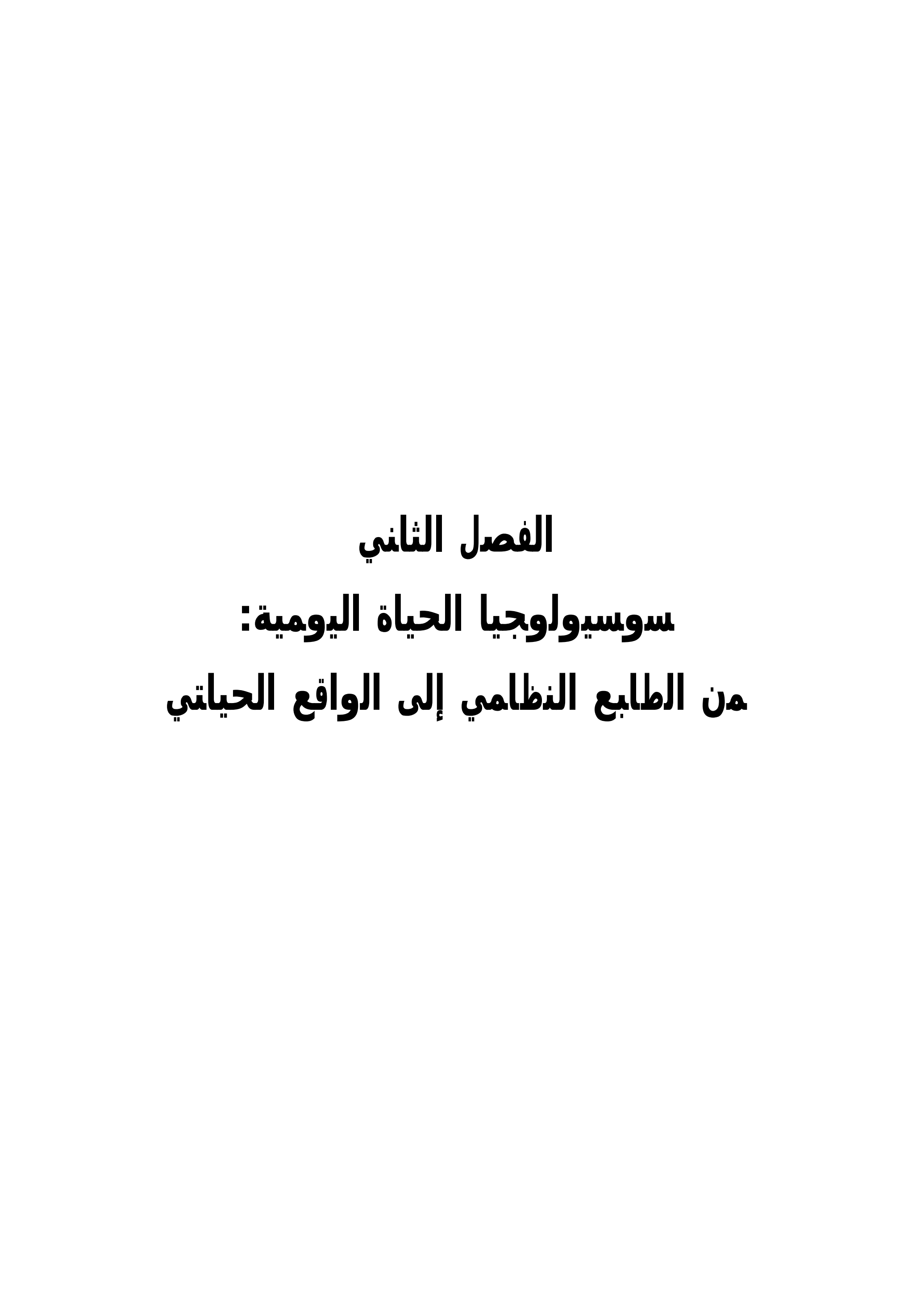
- شحاتة صيام، الدولة وإعادة إنتاج الفقـر، رامتـان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولـى، القـاهرة ١٩٩٥، ص، ص ٤٢ ـ ٤٨.

- شحاتة صيام، ما بعد الليبرالية: بنية العقل الرأسمالي في مصر، رامتان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولـى، القاهرة، ١٩٩٦، (الفصل الأول).
- منير الحمش، العولمة ليست الخيار الوحيد، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولـى، دمشـق ١٩٩٨، ص، ص ٤٦ ـ ٥٦.

(١٣) Giddens A., Sociology, polity press Cambridge, ١٩٩١, pp. ١٠٣ – ١٠٤.

(١٤) Harre R., Philosophical Aspect of the Macro – Micro Problem, in K. Rnorr – Cetina and. V. Cicourel (eds.), Advanced in social theory and Methecology, Roultedge and Regain poul, London, ١٩٨١, p. ١٤١.

(١٥) Hindess B., Choice, Rationality and social theory, Unwin hyman, London, ١٩٨٨. p. ٢٢ – ٢٤.



الفصل الثاني

سوسيولوجيا الحياة اليومية:

من الطابع النظامي إلى الواقع الحياتي

مقدمة:

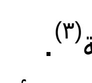
منذ أن نصب علم الاجتماع ذاته علما يهتم بدراسـة المجتمع، فإنه اهتم بدراسة مجموع العلاقـات الاجتماعيـة القائمة التي تشكل نظم المجتمع القائمة، وفقًا لطبيعة اهتمـام هذا العلم، فإنه عمل وفق محورين، الأول هو دراسة منهجية القوانين التي تحكم الكل الاجتماعي، أما الآخر فيتمثـل فـي إقامة التحليلات الاجتماعية للظواهر الاجتماعية. وأحرى بنا أن نسجل أن الدراسة المنهجية والتحليلية التي طبعت ملامح علم الاجتماع كانت ذات طبيعة فلسفية - إيديولوجية، الأمر الذي طغى عليه عملية اختزال المعرفة، وتركيـزه وحسـب على الطابع البنائي والمؤسسي.

و إذا كان علم الاجتماع قد أغرق ذاته فـي الطـابع المؤسسي لوقت طويل، فإن ذلك يعني أنه كان مهتما بتحليل المؤسسات والتنظيمات والبنى الاجتماعية القائمة في ضـوء العلاقات الاجتماعية التي تشكلها. وحيث إن هذا الدرب قـد نحى بطريق علم الاجتماع عن أحضان الفلسفة، خاصة مـع تحول المجتمعات من سيطرة التفسيرات الدينيـة والغيبيـة،

فإنه في الوقت ذاته أودعه في إطار العلوم الطبيعية التي أخذ منها استعاراتها واستدان منهجيتها[1].

وأحرى بنا أن نشير هنا إلى أن هـذه الاسـتدانات والاستعارات سمحت بدراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها نظما تشكلها علاقات بين عناصر متشجة مع بعضها البعض، تلك التي أمكن وصف علاقاتها من خلال تشـبيهاته للعلـوم الطبيعية، وهذا ما يتضح بشكل جلي فـي تعبيراتـه التـي استخدمها مثل الديناميكا والاسـتاتيكا. وفـي هـذا الصـدد نستدعي ما ذكره "أليكس أنكلس" على لسان ليندبرج في كتابه أسس السوسيولوجيا، إذا يقول: ".. إن على السوسيولوجيا أن تحذو حذو العلوم الطبيعية... والواقع أنهم غالبا ما يسـتقون الظواهر من العالم الفيزيائي، على أنهـا نمـاذج واضـحة للأحداث الاجتماعية، ويرتئون أن القوانين المطبقـة علـى الأولى يمكنها تعليل الأخيرة.. ولقد ذهبت الفيزياء الاجتماعية المعاصرة إلى حد الزعم بأن القوانين التـي تعلـل تطـاير قصاصة من ورق أمام الريح، وقد تعلل كذلك حركات رجل هارب أمام الغوغاء...".

إن تقديم علم الاجتماع مثل هذه التصورات المستعارة من العلوم الطبيعية، التي يحلو للبعض تسميتها بالعلوم الصعبة، جعل نفرا من السوسيولوجيين ينظرون إلى البناءات النظرية التي شيدتها السوسيولوجيا على أنها تتسم بالغموض، فضلاً عن أن تحليلاتها كانت تتسم بعدم الاتفاق. إن ذلك يتضح في الجدل الذي دار رحاه بين ما قدمه الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع، بدءا من كونت ودور كايم وباريتو وفيبر وزيميل وماركس مرورا بتالكوت بارسونز. ويجدر أن نشير في هذا الصدد إلى أنه إذا كان علم الاجتماع قد استعار من العلوم الطبيعية مفاهيمها وتصوراتها، فإنه دشن على غرارها نظريته، الأمر الذي أفقدها وجاهتها لدى البعض، مما دفعهم إلى تقديم صياغات نظرية جديدة، تتجافى مع مثل هذه التصورات النظرية[٣].



وخليق بنا أن نذكر أيضا، أنه على الرغم من أن بعض السوسيولوجيين قد ساروا حذو العلوم الطبيعية، فإنهم في هذا الإطار، قد استخدموا الإحصاءات في تحليلاتهم، حيث رأوا فيها نوعا من الآليات والتقنيات والنماذج التي يمكن تطبيقها على الظواهر الاجتماعية. لقد أثرت النماذج

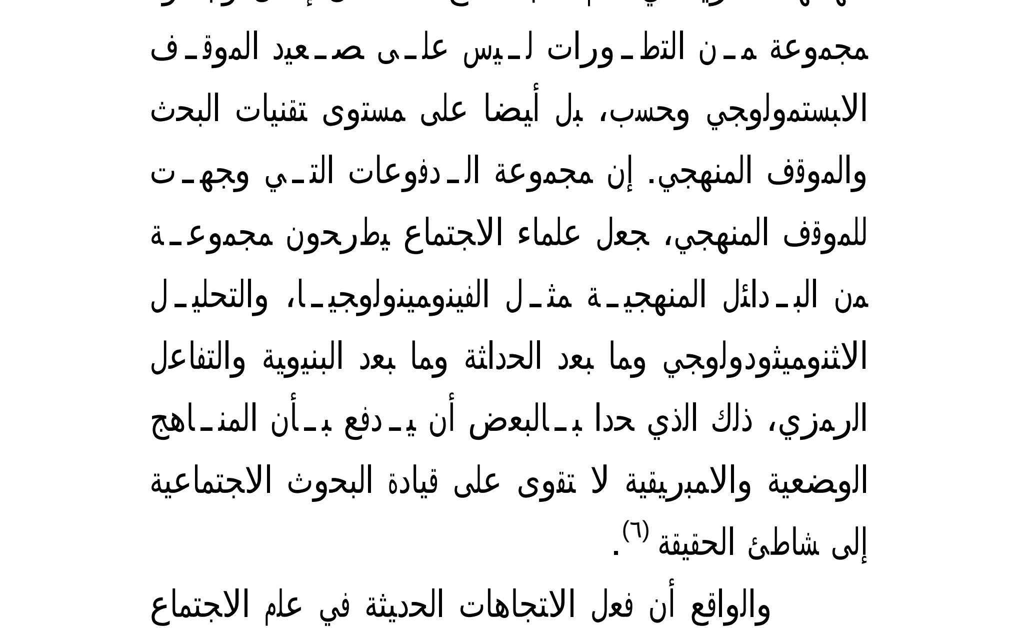
الرياضية على عمل السوسيولوجيين بشكل كبير، إذ طغـت عملية تحويل وترجمة المشاهدات إلى مصطلحات تسـتخدم في إطار النماذج السوسيولوجية. وندلل على ذلك بما ذكـره "أنكلاس" إذ يقول: ".. إن النماذج الرياضية تؤثر على شـغل السوسيولوجي، فهي تحول انتباهه إلى مشاكل تبـدو معهـا الرياضيات على أنها أكثر ملاءمة.. إن الاهتمـام بالنمـاذج الرياضية يشجع إما على الانشغال المكثف بمشكلات القياس، أو اللعبة المسلية التي يعاني فيها المحلل أي زعم يقول بـأن نموذجه ممكن التطبيق على العالم الواقعي.."(٤).

إنه نتيجة لارتكان علم الاجتماع على العلوم الطبيعية والإحصائية والرياضية، جعل بعض السوسيولوجيين يفكرون في آلية للفكاك من هذا القدر ذلـك الـذي جعلهـم يقـدمون مجموعة من المراجعات للأفكار والآليات المنهجيـة التـي سيطرت على هذا العلم. لقد شهد علم الاجتماع في النصـف الثاني من القرن الحالي مجموعة من المراجعات النظريـة، الأمر الذي جعل البعض يصفها بأنها انقلاب على مـا هـو قائم. إن ما كان يشبه الجديد المسلح، باعتباره يدخل في باب المعتقدات اليقينية، قد تغير وأصابه معول الهـدم. ويبـد أن

النظريات الاجتماعية قد حظيت باتفاق وقبول عام، وتشعبت وفق قطبين أساسيين، يعبر كل قطب منها عـن إيديولوجيـة معينة، فإن هذه الثنائية لم تعد على حالها، إذ تفككت أوصالها نتيجة لوجود كوكبة من الطروحات التي جاءت من خلالهـا أو حتى من بين يديها.

لقد ظهرت الطروحات النظرية الجديـدة التـي رأى البعض أنها إما تطويرا لها، أو تجاوزا لمقولاتها في ضـوء المستجدات التي حدثت فـي إطـار المجتمعـات الإنسـانية برمتها. لقد بات الحال، إنه لم يعد لذينيك القطبين أي قبـول، الأمر الذي بزغت تيارات نظرية جديـدة تنـاهض تـارة، وتدحض تارة ثانية، وتقدم القديم في ثوب جديد تارة ثالثـة. بمعنى آخر أن إخضاع النظريات الكبرى لمعيار النقد، أوجد مجموعة من المراجعات أو الطروحات الجديدة، تلـك التـي يمكن أن نقول عنها أنها كانت إمـا نوعـا مـن الامتـداد أو التطور في ضوء واقع التكوينات الاقتصادية والاجتماعية وما طرأ عليها من تغير، أو أنها نوع من التوليف النظـري بين الاتجاهات النظرية المتصارعة، أو كانت نوعا ثالثًا اتسم بعملية الاختزال أو الفصم النظري(5).

وبغض النظر عن التوصيف السابق، فإن ما نشدد عليه في هذا الإطار، أن عمليات المراجعة النظرية التي



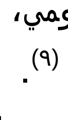
شهدتها النظرية في علم الاجتماع، أفضى إلى وجود مجموعة من التطورات ليس على صعيد الموقف الابستمولوجي وحسب، بل أيضا على مستوى تقنيات البحث والموقف المنهجي. إن مجموعة الدفوعات التي وجهت للموقف المنهجي، جعل علماء الاجتماع يطرحون مجموعة من البدائل المنهجية مثل الفينومينولوجيا، والتحليل الاثنوميثودولوجي وما بعد الحداثة وما بعد البنيوية والتفاعل الرمزي، ذلك الذي حدا بالبعض أن يدفع بأن المناهج الوضعية والامبريقية لا تقوى على قيادة البحوث الاجتماعية إلى شاطئ الحقيقة [٦].

والواقع أن فعل الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع في إيجاد أنواع جديدة لتأويل الواقع، لا يعني وجود مواقف إيجابية ثابتة منها، إذ كان على العكس، إذ حظيت بمواقف متباينة في داخلها. ففي الوقت الذي شايع البعض مثل هذه البدائل المنهجية، فنجد على الجانب الآخر من أخذ منها موقفًا مناهضا، باعتبارها مسميات قديمة جاءت في ثوب جديد،

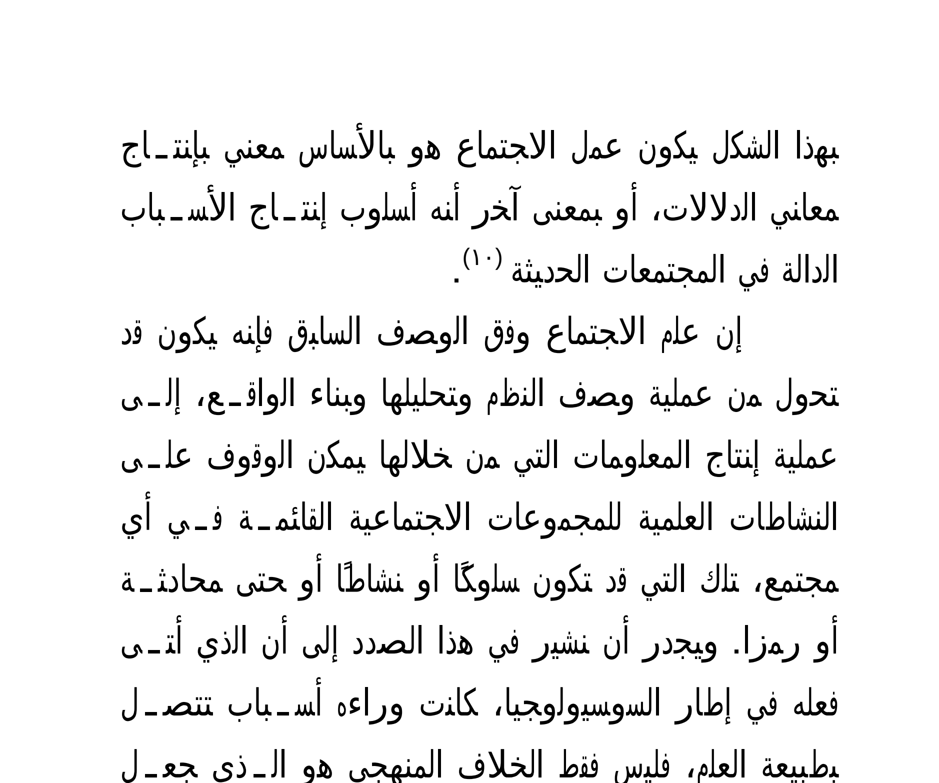
أو بحسبانها لا تدخل في باب المسميات الحديثـة، وبغـض النظر عن القبول والرفض من قبل علماء الاجتماع، فإن مـا نؤكد عليه هنا، أن هذه المناهج ما هي إلى طرح مفارق لما هو قديم، ناهيك تأكيدها على الفرق بين الظـواهر الطبيعيـة والاجتماعية، والتشديد على ضرورة النظـر إلـى الواقـع الاجتماعي بحسبانه نتاجا للسلوك الإنساني الذي يحمل فـي طياته مجموعة من التفسيرات والمقاصد في ضوء السياقات التاريخية والبنائية. (٧).

إن الطروحات الجديدة التي قدمتها التيارات النظرية التي أوردنا لبعض مسمياتها قبل قليل، حاولـت أن ترصـد الواقع الاجتماعي بمعانٍ تتباين عن الاتجاهـات الكلاسـيكية أو الكبرى التي عرفها علم الاجتماع، تلك التي ميزت بـين مجالات مختلفة من الواقع الاجتمـاعي، باعتبارهـا إطـارا محددا للخبرات الحياتية التي يمارسها الأفـراد فـي ضـوء المحيط الاجتماعي المعاش، والذي يمكن أن يستدل عليه من خلال أفعال الأفراد المتبادلة في إطار الفعل ذاته. (٨).

إن تأويل الفعل الإنساني بعيدا عن فهـم النظريـات الكبرى وخاصة الفهم الفيبري، يجعل من علم الاجتماع علما

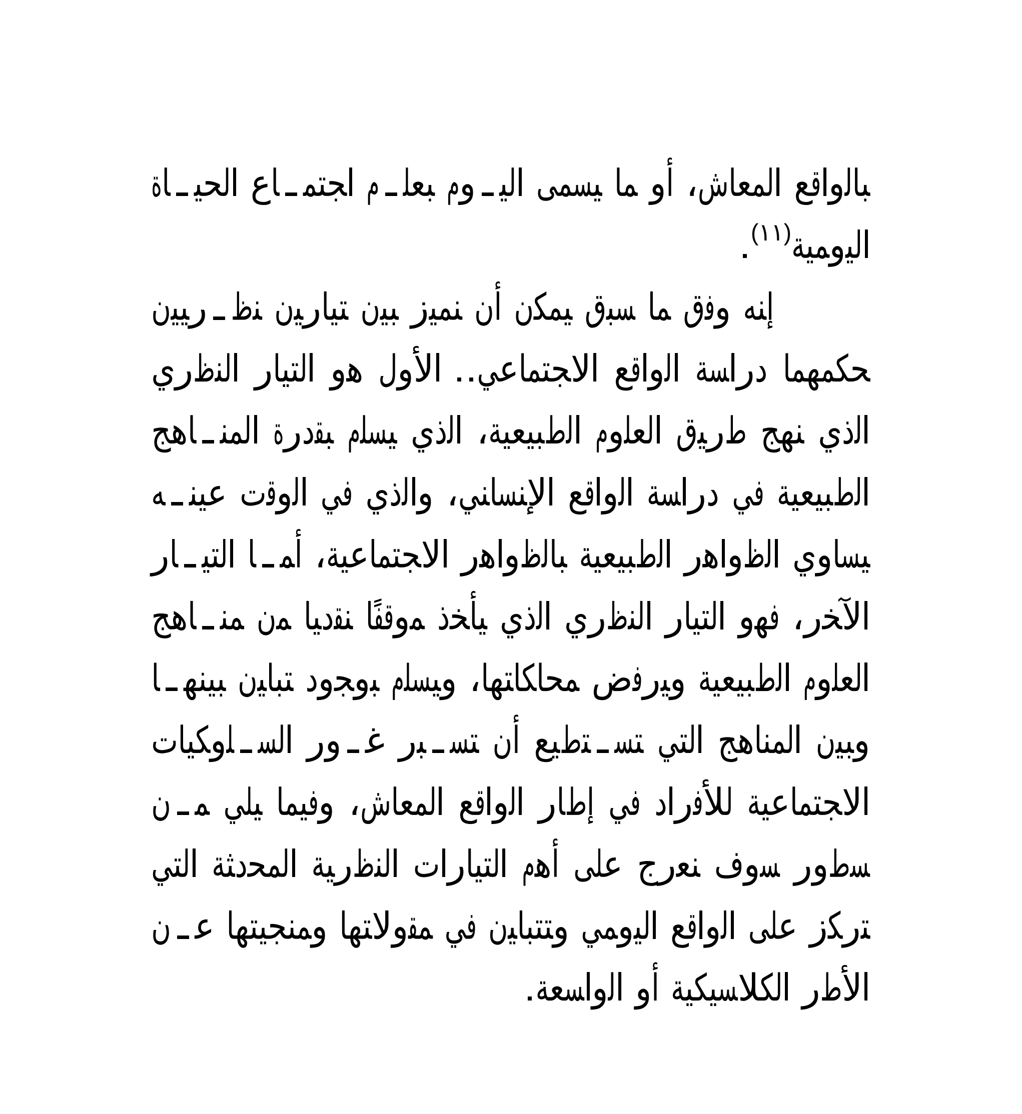
للدلالة الاجتماعية والأسباب الرمزية، التي من خلالها يمكن فهم ما هو خفي وظاهر معا، في ضوء تأويل السلوك الفردي والجماعي في أن علم الاجتماع باعتباره علما للدلالة الاجتماعية، فهو يدرس الدلالات والمدلولات من خلال منتجيها، الأمر الذي يعني أن هناك خطابا يصف الممارسات باعتبارها نتاجا للوقائع الاجتماعية، أو بحسبانها إعادة إنتاج لها، أو قل إنها نوع من الوعي أو الإدراك في الإطار اليومي، الذي يمكن من خلاله أن نصف الأوضاع التي تنتج فيه (٩).

إن عدم فهم الطابع المعقد للظواهر الاجتماعية والنزول إلى الواقع المعاش جعل البعض يطرح نموذجا لخطاب جديد لدراستها. فعلى سبيل المثال نتيجة لهذه الأزمة، رأى البعض أنه آن الأوان أن يتوجه علم الاجتماع باعتباره علما يهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية بعيدا عن الحتمية، حيث لابد من تأويل هذه العلاقات في إطار الذاتية، فاختزال المعرفة السوسيولوجية في شكلها البنائي من شأنه أن يؤخر عملية فهم المعنى الذي يتضح بشكل جلي في تأمل الممارسات الرمزية والأوضاع الاجتماعية والتاريخية، إنه



بهذا الشكل يكون عمل الاجتماع هو بالأساس معني بإنتاج معاني الدلالات، أو بمعنى آخر أنه أسلوب إنتاج الأسباب الدالة في المجتمعات الحديثة [١٠].

إن علم الاجتماع وفق الوصف السابق فإنه يكون قد تحول من عملية وصف النظم وتحليلها وبناء الواقع، إلى عملية إنتاج المعلومات التي من خلالها يمكن الوقوف على النشاطات العلمية للمجموعات الاجتماعية القائمة في أي مجتمع، تلك التي قد تكون سلوكًا أو نشاطًا أو حتى محادثة أو رمزا. ويجدر أن نشير في هذا الصدد إلى أن الذي أتى فعله في إطار السوسيولوجيا، كانت وراءه أسباب تتصل بطبيعة العلم، فليس فقط الخلاف المنهجي هو الذي جعل التيارات النظرية الجديدة تخاصم الطابع المؤسسي الذي جاءت على نحوه التيارات النظرية الكبرى، بل أيضا كانت أسبابه تتمثل في الحد من استعارة هذه النظريات واستدانتها من علوم أخرى خاصة العلوم الطبيعية والإحصاء، والحد من التحليلات الواسعة والاستعارات التي تخالف طبيعة المجتمعات. إن إدارة السوسيولوجيين ظهورهم لمثل هذه المواقف النظرية، جعلهم يقدمون رؤى نظرية أخرى تتصل



بالواقع المعاش، أو ما يسمى اليوم بعلم اجتماع الحياة اليومية[١١].

إنه وفق ما سبق يمكن أن نميز بين تيارين نظريين حكمهما دراسة الواقع الاجتماعي.. الأول هو التيار النظري الذي نهج طريق العلوم الطبيعية، الذي يسلم بقدرة المناهج الطبيعية في دراسة الواقع الإنساني، والذي في الوقت عينه يساوي الظواهر الطبيعية بالظواهر الاجتماعية، أما التيار الآخر، فهو التيار النظري الذي يأخذ موقفًا نقديا من مناهج العلوم الطبيعية ويرفض محاكاتها، ويسلم بوجود تباين بينها وبين المناهج التي تستطيع أن تسبر غور السلوكيات الاجتماعية للأفراد في إطار الواقع المعاش، وفيما يلي من سطور سوف نعرج على أهم التيارات النظرية المحدثة التي تركز على الواقع اليومي وتتباين في مقولاتها ومنجيتها عن الأطر الكلاسيكية أو الواسعة.

أولاً: في الأطر النظرية المحدثة:

المقولات النظرية:

بعد انقشاع غيوم الحرب العالمية الثانية شكلت الطبيعة الانقسامية سحنة النظريات الاجتماعية. فإذا كان الصراع الإيديولوجي بين الماركسية والبنائية الوظيفية على أوجه في مثل هذا التاريخ أو غداته، فإن غداة هذه الفترة ما لبث أن دب النزاع بين الأطر النظرية الواحدة من نفس الجنس. ففي إطار النظرية الماركسية ظهرت مجموعة من الارتدادات والصياغات الجديدة على الفكر الأرثوذكسي الماركسي، الأمر الذي جعل البعض يذهب في وصفه لها إنها نظرية يوتوبية ومتحفية وتحتاج إلى إعادة نظر في ضوء الأوضاع الاجتماعية الجديدة والواقع أن ما أصاب الماركسية، أصاب بدوره البنائية الوظيفية، تلك التي برزت في إطارها تيارات نظرية جديدة، أخذت من أصولها النظرية، وحتى من أصول أخرى مضادة بعض المفاهيم وطورتها في إطار ما هو معاش.

لقد ظهرت مجموعة من التجليـات الفكريـة مثـل: الظواهرائية (الفينومينولوجيا)، وما بعد الحداثة، والمنهجيـة الاجتماعية (الاثنوميثودولوجيا) وما بعد البنيوية، والتفاعليـة الرمزية والاختيار العقلاني. إن المتأمل في هـذه التيـارات النظرية يجد أن البعض منها حاول الابتعاد عـن الأصـول، والبعض الآخر حاول أن يستعيد بعض المقولات التي جـاء بها الرواد الأوائل من المدرسة ذاتها، والبعض الثالث حاول أن يستدعي مقولات من أطر مناهضة لها ويعيد إنتاجها فـي إطار ابستمولوجي جديد [١٢].

إن ما قدمناه توا لطبيعـة التطـور فـي النظريـة الاجتماعية، يجعلنا لا نتفق مع "كوهين" الذي يرى أن تاريخ النظرية الاجتماعية يتسم بالوضوح الثوري. إن ما حدث في تاريخ النظرية وخاصة غداة أحداث ١٩٤٥، لم يكن يعنـي حدوث تعديلات وتطويرات جوهرية ومستمرة، وإنما العكس هو الصحيح. إن ما حدث كان نوعا من الفصم الاستمولوجي وليس الثورة الابستمولوجية. فعلى الرغم مـن وجـود رؤى نظرية جديدة، إلا أنها لم تكن البتة جديدة، وإنما هي نوع من الاستدعاءات القديمة التي لبست ثوبا نظريا جديدا.

فعلى سبيل المثال، إن الانتقال من الماركسية إلى البنيوية في أوساط القرن العشرين، لم يكن نتيجة ثورة أبستمولوجية، وإنما كانت تبديلاً في التفسير والتأويل، والانتقال من تحليل الصراع الطبقي إلى تحليل البنيات الاجتماعية. إن ذلك يعني بالأساس تغيرا في اختيار موضوعات الدراسة، واختيار وبناء مناهج وتصورات ودلالات جديدة، من أجل البحث في الثوابت لا البحث في الصيرورات والتبدلات. فإذا كانت الماركسية تنطلق في دراسة المجتمعات الإنسانية من خلال التمييز بين التكوين الاقتصادي (البنية البحتية) والاجتماعي (البنية البحتية) والعلاقة الجدلية بينهما، فإن ذلك لم يعد متوافقًا مع الدرب الجديد للاتجاه الماركسي المحدث، وحتى مع البنيوية، تلك التي راحت تكشف عن العلاقات الداخلية بين البنيات ووحدتها.

إن ذلك يعني بالأساس أنه إذا كانت التوجهات بين الرؤى الكلاسيكية والمحدثة قد اختلفت، فإن ذلك انعكس على استخدامات مفهومات أصيلة، فعلى سبيل المثال، نجد أن التصورات الجديدة قد اختفى منها للأبد مفاهيم معينة مثلما

حدث في البنيوية التي أزاحت من طريقها مفاهيم الصـراع الطبقي الذي كان مفهومـا جوهريـا فـي بنيـة النظريـة الماركسية. والواقع أن ما أصاب استخدام المفهومات نتيجـة لما سمي بالفصم الابسـتمولوجي، أصـاب أيضـا الفئـات الاجتماعية التي تنظر لها النظريات الحديثة، ففي هذا الإطار لم تدرس العلاقات بـين الفئـات الاجتماعيـة فـي إطـار صراعاتها، بل تم تعديل ذلك في إطار تحالفهـا ومصـالحها ورهاناتها ليست الاجتماعية وحسب، إنما أيضـا رهاناتهـا السياسية، إن ذلك هو ما يجعلنا نخالف كلام "كوهين"، ونرى أن كل انتقال أو تطور ابستمولوجي جديـد لا يشـهد ثـورة بالمعنى الذي أسبغه على تطور النظريات العلمية [١٣].

وإذا كانت التيارات الجديدة قد هجرت رؤى ومفاهيم النظريات الكلاسيكية أو الواسعة، وتجاوزتها فـي أصـولها وثوابتها، فإنها هي الأخرى قد أصابها نفس الفعـل، ونـدلل على ذلك بما حدث للبنيوية ذاتها، تلك التي تركها أصـحابها وراحوا ينظرون لما بعدها، فظهرت البنيوية التكوينية أو ما بعد البنيوية.

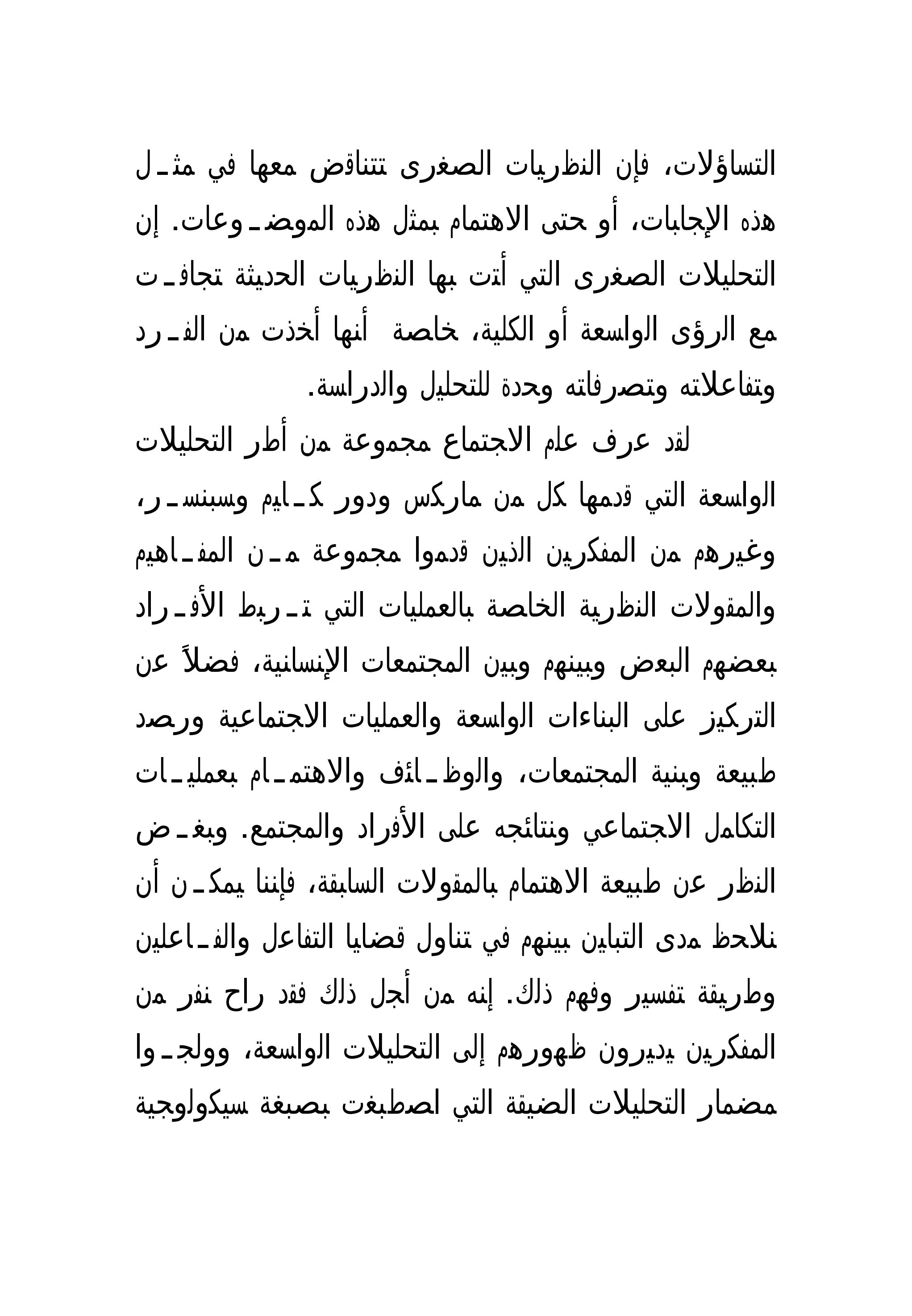
ولكن في ضوء نكران الثوابت، والفصم الابستمولوجي الذي شهدته التيارات النظرية الجديدة، فما هي أوجه التباين بينها وبين النظريات الكبرى، إن الإجابة عن



هذا التساؤل يدعونا إلى عرض سريع لأهم هذه الأفكار، تلك التي طرحتها هذه المدارس في مقولاتها الأساسية، والتي من خلالها دشنت المقولات الرئيسية في دراسة الواقع الحياتي المعاش.

(١) الفينومينولوجيا والتفاعل في الواقع المعاش

ثمة أشياء تثير الانتباه في إطار السوسيولوجيا تلك التي عرفتها النظرية الاجتماعية، واهتمت خلالها مقولاتها بدراسة العلاقات بين الأفراد والمجتمع، والأشياء التي يعكسها كل منهما على الآخر، وكيف أن المجتمع يشكل الأفراد، وكيف أن الأفراد يخلقون ويحافظون على عملية ثبات أو تغير المجتمع، وكيف أن المجتمع يصنع شخصية أفراده بالقدر الذي يعزفون عن تغيير ما هو قائم؟ وإذا كانت النظريات الكلاسيكية قد اهتمت بالإجابة عن مثل هذه



التساؤلات، فإن النظريات الصغرى تتناقض معها في مثـل هذه الإجابات، أو حتى الاهتمام بمثل هذه الموضـوعات. إن التحليلات الصغرى التي أتت بها النظريات الحديثة تجافـت مع الرؤى الواسعة أو الكلية، خاصة أنها أخذت من الفـرد وتفاعلاته وتصرفاته وحدة للتحليل والدراسة.

لقد عرف علم الاجتماع مجموعة من أطر التحليلات الواسعة التي قدمها كل من ماركس ودور كـايم وسبنسـر، وغيرهم من المفكرين الذين قدموا مجموعة مـن المفـاهيم والمقولات النظرية الخاصة بالعمليات التي تـربط الأفـراد بعضهم البعض وبينهم وبين المجتمعات الإنسانية، فضلاً عن التركيز على البناءات الواسعة والعمليات الاجتماعية ورصد طبيعة وبنية المجتمعات، والوظـائف والاهتمـام بعمليـات التكامل الاجتماعي ونتائجه على الأفراد والمجتمع. وبغـض النظر عن طبيعة الاهتمام بالمقولات السابقة، فإننا يمكـن أن نلاحظ مدى التباين بينهم في تناول قضايا التفاعل والفـاعلين وطريقة تفسير وفهم ذلك. إنه من أجل ذلك فقد راح نفر من المفكرين يديرون ظهورهم إلى التحليلات الواسعة، وولجـوا مضمار التحليلات الضيقة التي اصطبغت بصبغة سيكولوجية

حينًا، وبصبغة برجماتية ونفعية حينًا آخر إن ما سبق يتضح في لجوء هذه النظريات إلى مفهوم وليم جيمس عن الـنفس، وتشارلز كولي عن العمليات الاجتماعية النفسـية، وجـون ديوي وإسهاماته حول النظريـة البرجماتيـة، والإسـهامات النظرية التي قدمها فيبر.

(أ) جوفمان والتحليل الميكرو والاستعارات المسرحية:

* التحليل الميكرو

يعتبر أرفنج جوفمان أحد العلماء الذين برعـوا فـي التحليل المصغر للعمليات الاجتماعية حيـث سـيطر علـى تحقيق ومناقشة نظام التفاعل. أو بقول آخر، إنـه اسـتخدم التحليل المصغر للوقوف على علاقات أو سلوك الوجه للوجه والتفاعل بين الأفراد. وعلى الرغم من أن أعماله تمتد إلـى معظم الموضوعات، إلا أنه يشـدد علـى أن النـاس منـذ استيقاظهم فإنهم يقضون معظم أوقاتهم في حركة، وأنه مـن خلال هذه الحركات، فإنهم يقيمون اتصالاً مع الآخرين، وإنه

لكي يتحقق ذلك، فقد انشغل بالمقابلات التي تهتم بين النـاس في أي موقع وفي أي مكان. إن جوفمان وفقًا لاهتمامه بعملية الاتصال بين الناس، فقد اهتم بمناقشة النشاطات التي تفرزها سلوك الأفراد. مما سبق يمكن القول أن جوفمان أولى النشاط عنايته، تلك التي أغفلت النظرية الاجتماعية انتباههـا لهـا، ورأى أن هذه السلوكيات تفرزها مواقف وخبـرات الحيـاة اليومية.

إن جوفمان وفقًا للطرح السابق، يكون قد اختلف عن كثير من المدافعين أو المشايعين للتحليل المصغر، إذا لم يعلن عن نظام التفاعل الذي هو في واقع الأمر حقيقة اجتماعيـة. وفي هذا الإطار حاول أن يقدم المواقف المختلفة التي تنشـأ نتيجة التفاعل بين الناس، فضلاً عن أنه ميز بين ما يسـمى بعالم الحقيقة الذي يظهر في قدرة الأشياء الديناميكية الفريدة وعالم الزيف الذي هو عكس ذلك. وحيث إن جوفمان حاول التركيز على الأشياء الديناميكية التـي تظهـر مـن خـلال التفاعلات الإنسانية، إلا أنـه لـم يضـع لهـذه التفـاعلات افتراضات قبلية في دراساتها، على اعتبار أنها أحد الأشكال التي تدخل في تركيب الظواهر الكبيرة التي يعج بها العـالم

الاجتماعي الواسع مثل: الأسـواق التجاريـة، والحضـر، والاقتصاد، والتدرج الاجتماعي.

وإذا كان جوفمان قد حاول دراسة الظواهر الكبيـرة التي يعج بها المجتمع منن خلال التفاعلات، أو قل من خلال التحليلات الضيقة، فإنه في ذلك يركز على أنواع المواقـف التي تواجه الناس. إنه حاول الوقوف على نظام التفاعل الذي يمكن أن يتضح من خلال العمليات التحليلية. إنـه يـرى أن الظواهر الواسعة تغيب في عمليات التفاعل، إذ تشير وحسب إلى مختلف الأشكال العامة في التفاعل، إن ديناميات التفاعل لا تنضح بشكل جلي في التحليلات الواسعة، أو حتـى فـي العلاقات الاجتماعية القائمة في التركيب الاجتماعي ككل. إن رصد أشكال التفاعل في البناء الاجتماعي الكبير يتباين عـن رصده في إطار العمليات البسـيطة للمواقـف والتفـاعلات المختلفة، حيث يدخل فـي إطـار مـا يسـمى بـالعروض أو المواقف المسرحية. إن الفكرة الخام أو البسيطة للتفاعـل تكون ثابتة من خلال البناء الموسع أو في طريقة إعادة إنتاج التركيب الاجتماعي التي لا تستطيع أن تدرك عملية استقلال نظام التفاعل. إن التفاعل يعبر بشكل جلي عن تنظيم البنـاء

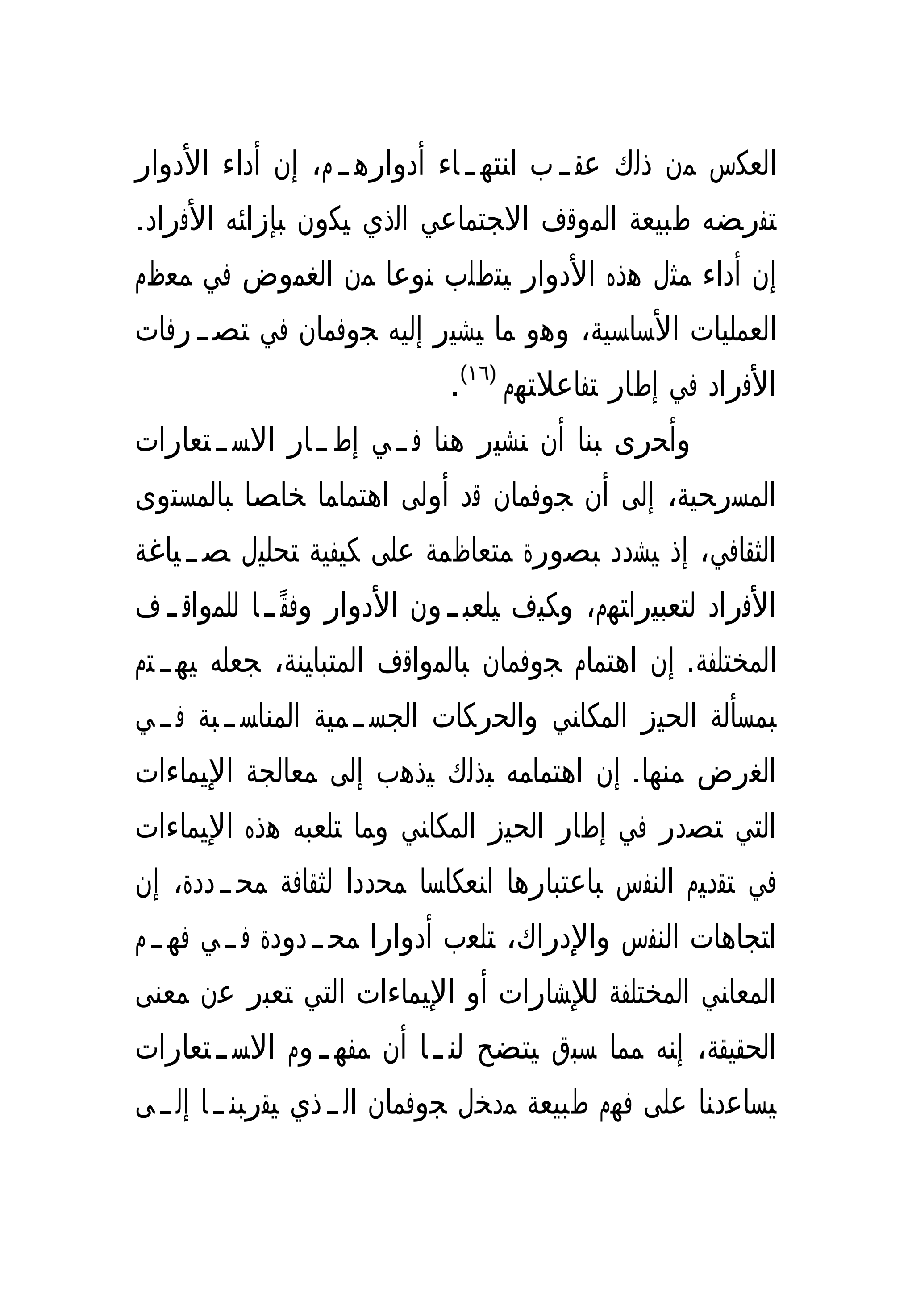
في أي معنى بسيط، إذ يعبر بشكل متقدم بالنظر إلـى هـذا التنظيم، عن أن البناء الاجتماعي لا يتحـدد وفقـًا للصـعيد الثقافي (طقوس التفاعل) حيث إن الفاعلين يختارون ما هـو متاح لهم. إن مثل هذا الوضع يجعلنا أمام زواج خاسر فـي ممارسة التفاعل وعملية تكوين البنيات الاجتماعية، وعمليـة تكوين الفئات الاجتماعية. إن عملية التكامل في إطار البنيات الاجتماعية لا تسمح برصد التحولات في القواعد والقـوانين أو حتى في الأعضاء الذين يختـارون الأشـياء الخارجيـة المختلفة التي لا ترتبط بطبيعة التفاعلات الاجتماعية [١٤].

إن إشاحة النظر عن التحولات الواسعة، والالتجـاء إلى التحليلات الضيقة، وخاصة لرصد التفاعل الاجتمـاعي، يجعلنا نضع أيدينا على كيفية صـياغة النـاس لتفـاعلاتهم واتصالاتهم مع الآخرين في مختلف مناحي الحياة في إطـار النظام القائم. إن ذلك سوف يعطي معنى للعالم الاجتمـاعي، ومعنى للوجود الحقيقي لممارسة الأفراد الذين يتعاملون مـع الآخرين في إطار المواقف المتباينة. إن المتأمل فيما سـبق سيجد أن مدخل جوفمان يسعى إلى رصد الفريد وليس العام الذي انشغلت به السوسيولوجيا لوقت طويل، وبذا يكون قـد

ابتعد بشكل واضح عن مجاراة العلوم الطبيعية التي سـارت حذوها السوسيولوجيا. إنه يرى أن الهزيمـة التـي لحقـت بالعلوم الاجتماعية من جراء استعارتها من العلوم الطبيعيـة، تكون قد انقلبت رأسا على عقب، حيث استطاعت أن تكـون لها منهجا وموضوعا خاصا وفريدا [١٥].

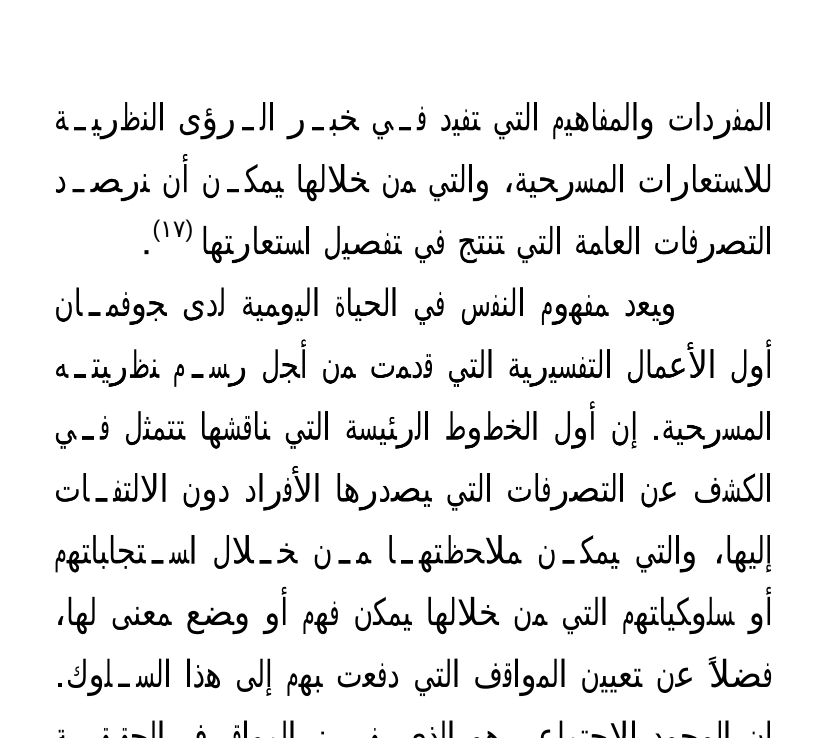
* الاستعارات المسرحية

إنه لكي يدشن جوفمان مـراد السوسـيولوجيا فيمـا أشرنا إليه قبل قليل، فقد استعار من المسرح مواقف يوضـح فيها طبيعة التفاعل وفقًا للأدوار التي تـؤدى علـى خشـبة المسرح، وفي إطار هذه الاستعارة، فقد اسـتند إلـى تقـديم النفس في الحياة اليومية. إن تشبيه الحياة بالمناخ المسـرحي جعله يخضع للتشبيه، إذ ميز الأماكن العامـة فـي الحيـاة الاجتماعية بخشبة المسرح. إن هذا التشبيه جعله يرى الناس يبدون انطباعا على خشبة المسرح يتباين عما يبـدو خلـف الكواليس. إن الأدوار تتباين وفق هذا الوضع. إن التحول في الأدوار والتباين جعله يرى أن الأفراد على خشبة المسـرح خادعون ومضللون في إطار أدوارهم، بينما يكونـون علـى



العكس من ذلك عقـب انتهـاء أدوارهـم، إن أداء الأدوار تفرضه طبيعة الموقف الاجتماعي الذي يكون بإزائه الأفراد. إن أداء مثل هذه الأدوار يتطلب نوعا من الغموض في معظم العمليات الأساسية، وهو ما يشير إليه جوفمان في تصـرفات الأفراد في إطار تفاعلاتهم [١٦].

وأحرى بنا أن نشير هنا فـي إطـار الاسـتعارات المسرحية، إلى أن جوفمان قد أولى اهتماما خاصا بالمستوى الثقافي، إذ يشدد بصورة متعاظمة على كيفية تحليل صـياغة الأفراد لتعبيراتهم، وكيف يلعبـون الأدوار وفقًـا للمواقـف المختلفة. إن اهتمام جوفمان بالمواقف المتباينة، جعله يهـتم بمسألة الحيز المكاني والحركات الجسـمية المناسـبة فـي الغرض منها. إن اهتمامه بذلك يذهب إلى معالجة الإيماءات التي تصدر في إطار الحيز المكاني وما تلعبه هذه الإيماءات في تقديم النفس باعتبارها انعكاسا محددا لثقافة محـددة، إن اتجاهات النفس والإدراك، تلعب أدوارا محـدودة فـي فهـم المعاني المختلفة للإشارات أو الإيماءات التي تعبر عن معنى الحقيقة، إنه مما سبق يتضح لنـا أن مفهـوم الاسـتعارات يساعدنا على فهم طبيعة مدخل جوفمان الـذي يقربنـا إلـى


المفردات والمفاهيم التي تفيد في خبر الرؤى النظرية للاستعارات المسرحية، والتي من خلالها يمكن أن نرصد التصرفات العامة التي تنتج في تفصيل استعارتها[١٧].

ويعد مفهوم النفس في الحياة اليومية لدى جوفمان أول الأعمال التفسيرية التي قدمت من أجل رسم نظريته المسرحية. إن أول الخطوط الرئيسة التي ناقشها تتمثل في الكشف عن التصرفات التي يصدرها الأفراد دون الالتفات إليها، والتي يمكن ملاحظتها من خلال استجاباتهم أو سلوكياتهم التي من خلالها يمكن فهم أو وضع معنى لها، فضلاً عن تعيين المواقف التي دفعت بهم إلى هذا السلوك. إن الوجود الاجتماعي هو الذي يفرز المواقف الحقيقية للتصرفات والسلوك، وفي إطار هذا الموقف فإن الأفراد يرتبطون بالتمثيل في المواقف المتباينة لكي يقدموا النفس. وهذا ما يجعل الفرد أن يقدم هويته وخصائصه الشخصية في إطار عملية التمثيل. إن عملية التمثيل تفرضها طبيعة المواقع الأمامية التي تفرض على الجسم مواقع واستخدامات وانطباعات معينة، تلك التي تباين عما يحدث في إطار المواقع الخلفية التي لا تتطلب تدعيما مثلما يحدث في المواقع

الأمامية، إنه بشكل عام، يمكن القول أن القواعد التي يقدمها الأفراد تتوقف على طبيعة المواقع أو الحيز المكاني تلك التي تستخدم في موضع التداعيات المناسبة والحركات والمواقـف الاجتماعية التي يمكن من خلالها قراءة مختلـف النشـاطات الاجتماعية والمجهودات التي تفرض خلق وتأسـيس الأدوار وفقًا لطبيعة الموقف أو الحيز الاجتماعي.[١٨]

(ب) لغة الجسم وخطاب الحركة:

عبر السنوات القليلـة الفائتـة، تـم تحريـك رؤى الفينومينولوجيا في ضوء ما يسمى بالتفاعل الاجتماعي فـي الحياة الاجتماعية. وفي هذا النوع من المقولات النظرية تـم تدشين علم جديد سمي بلغة الجسد وعلم الحركة، الذي اعتمد بشكل كبير على الأنماط السـلوكية فـي أشـكال الاتصـال اللفظي. إن هذا العلم الذي تم تأسيسـه مـؤخرا قـد اهـتم بالعلاقات الاجتماعية في عالم الحياة المعـاش، وذلـك مـن خلال حركات الجسم المباشرة أو غير المباشرة.

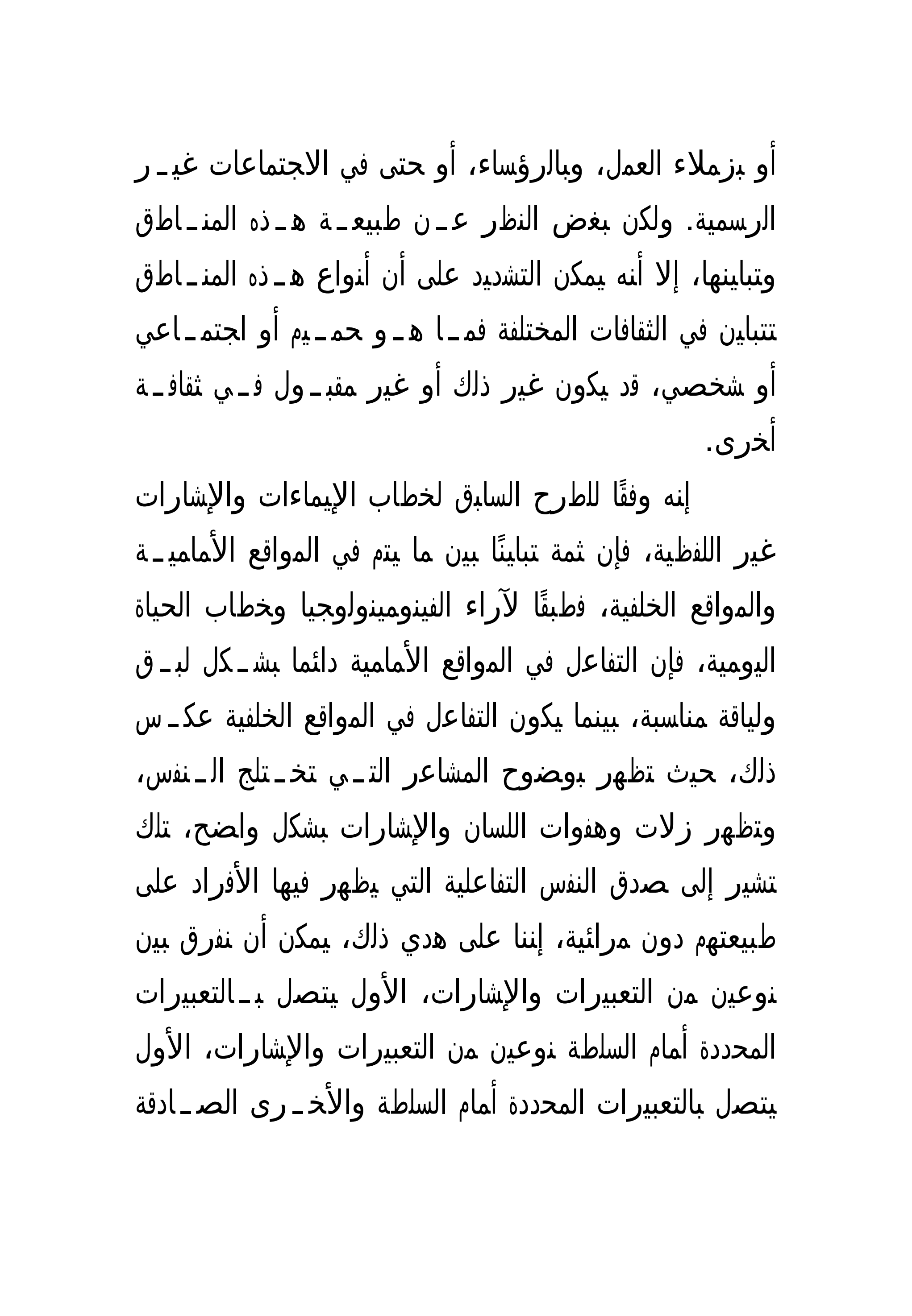
إن أصحاب هذا الفرع من العلم يرون أن ثمة لغـة للجسد، فأية حركة منعكسة أو غير منعكسة لأي عضو مـن

أعضاء الجسم بمثابة رسالة انفعالية إلى العـالم الخـارجي، ولفهم مثل هذه اللغة الجسدية ينبغي أن نراعـي مجموعـة التباينات الثقافية، تلك التي تلعب دورا محوريا فـي تعيـين إشارات جسدية محددة وفقًا للثقافة السـائدة. فعلـى سـبيل المثال، فإن هز الرأس يمنة أو يسارا في مجتمعاتنا الشرقية، تعني عدم الموافقة، بينما هز الرأس إلى أعلى وإلـى أسـفل تعني الموافقة، وبينما هو كذلك، فهـي علـى العكـس فـي المجتمع الهندي.

ولكن إذا كانت لغة الجسد تفرضها أو تعكسها طبيعة الظروف البيئية والثقافية في مجتمع من المجتمعـات، فهـل هناك أشكال موروثة من هذا الاتصال؟. إن الإجابة على هذا التساؤل تجعلنا نذهب إلى أفكار إيكمان وفريزن اللذين يريان أن أبناء الثقافات المتباينـة يصـدرون بعـض الانفعـالات المتماثلة. إن هذا الرأي يتناقض مع النظرية التي تـرى أن تعبيرات الانفعال التي يصدرها الوجه تكتسب مـن خـلال الوجود الاجتماعي، إذ إنه هناك برمجـة دماغيـة تـرتبط بإثارات معينة لتعبير الوجه مثلاً الانفعالات الرئيسـة مثـل الفرح والغضب والخوف والكراهية والاحتقار والخجل.

وبقول آخر، إن أدمغة البشر مبرمجة بحيث يمكن أن نرى مثل هذه الحـالات الانفعاليـة بشـكل واحـد، وهـذه الانفعالات تحدد ما يجب فعله للتعبير عن كل إحسـاس فـي مناسبات اجتماعية مختلفة، وهي تتباين من ثقافة إلى أخرى، وتتحدد وفقًا لطبيعة الدور الاجتماعي. إن ذلك يعني أن لغتنا غير الكلامية، أو قل الجسدية، غريزية فـي جـزء منهـا، ومكتسبة في بعضها، وتعتمد على المحاكاة في جزء آخر[١٩].

وإذا كان أصحاب هذه النظرية قد ركزوا علـى مـا يسمى بلغة الجسد، فإنهم في إطار هذا النوع مـن التفاعـل، يرون أن ثمة حيزا مكانيا أو مسافة اجتماعيـة تلعـب دورا رئيسيا في عملية الاتصال، هذا وقد حـددوا أربـع منـاطق متميزة يعمل الناس ضمنها وهي: المسافة الحميمة، والمسافة الشخصية، والمسافة الاجتماعية، والمسافة العامة. إن مثـل هذه المناطق تمثل ببساطة مواقع مختلفة تتحرك فيها، إنهـا مناطق تتسع مع تناقص الألفة. إن مثل هذه المسـافات هـي التي يطلق عليها بالمسافة التي تفصل بين أنـواع العلاقـات الاجتماعية. والتي تتمظهر بشكل واسع في إطار العلاقـات الاجتماعية الرسمية، وعملية الاتصال سواء بين الأصـدقاء


أو بزملاء العمل، وبالرؤساء، أو حتى في الاجتماعات غير الرسمية. ولكن بغض النظر عن طبيعة هذه المناطق وتباينها، إلا أنه يمكن التشديد على أن أنواع هذه المناطق تتباين في الثقافات المختلفة فما هو حميم أو اجتماعي أو شخصي، قد يكون غير ذلك أو غير مقبول في ثقافة أخرى.

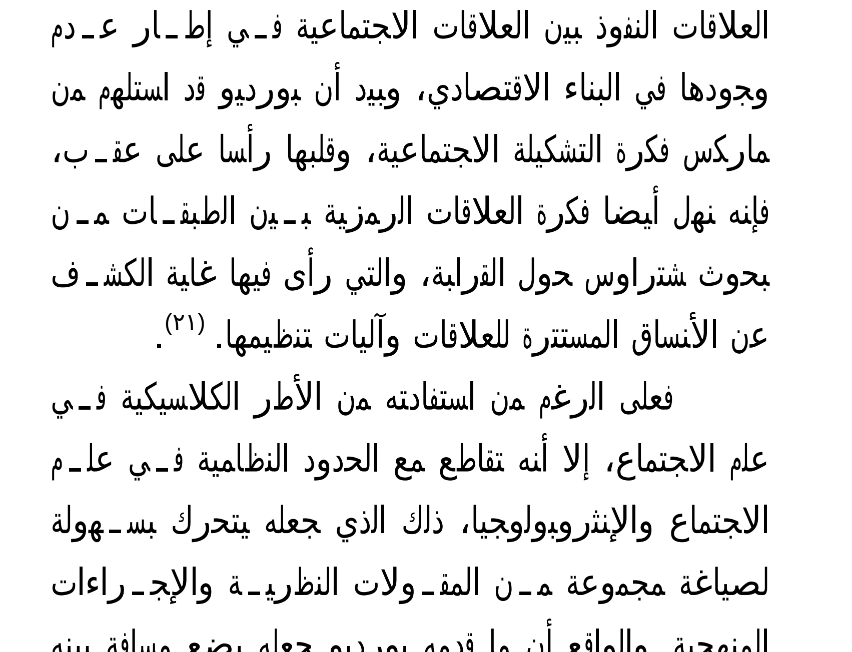
إنه وفقًا للطرح السابق لخطاب الإيماءات والإشارات غير اللفظية، فإن ثمة تباينًا بين ما يتم في المواقع الأمامية والمواقع الخلفية، فطبقًا لآراء الفينومينولوجيا وخطاب الحياة اليومية، فإن التفاعل في المواقع الأمامية دائما بشكل لبق ولياقة مناسبة، بينما يكون التفاعل في المواقع الخلفية عكس ذلك، حيث تظهر بوضوح المشاعر التي تختلج النفس، وتظهر زلات وهفوات اللسان والإشارات بشكل واضح، تلك تشير إلى صدق النفس التفاعلية التي يظهر فيها الأفراد على طبيعتهم دون مرائية، إننا على هدي ذلك، يمكن أن نفرق بين نوعين من التعبيرات والإشارات، الأول يتصل بالتعبيرات المحددة أمام السلطة نوعين من التعبيرات والإشارات، الأول يتصل بالتعبيرات المحددة أمام السلطة والأخرى الصادقة

التي تتم في خلاف ظهرها، إن النوعين السابقين يتحددان وفقًا للمواقف والمواقع التي يتم فـي إطارهـا عمليـة التفاعـل الاجتماعي [٢٠].

(٢) البنيوية التكوينية والصراعات الثقافية:

بالنظر إلى البنيوية التكوينية التي يطلق عليها ما بعد البنيوية، والتي ترجع أفكارها إلى بورديو Bourdieu، فإنها تأتي بموقف مخالف ومضاد لأفكار الماركسية حول الطبقات وتقسيم العمل والملكية والسيطرة على أدوات الإنتـاج. لقـد حاول بورديو أن يقف على طبيعة هذه المفهومات وفق رؤية جديدة تقف على خط معاكس للماركسية، وذلك مـن خـلال مفاهيم السيطرة والمعاني الرمزية، ففي الوقت الذي يخـالف بورديو لماركس، في الوقت عينه الذي يحذو فيه حذو الفهـم الفيبري للفعل.

وإذا كان بورديو قد نظر إلى الطبقات الاجتماعيـة، فإنه على خلاف ماركس، وفي إطار الفصم الابسـتمولوجي، قد نظر إلى المعاني والمنافع والسيطرة والعلاقات الرمزيـة، وفي هذا الإطار حاول أن يعرف التشكيلة الاجتماعية كنظام

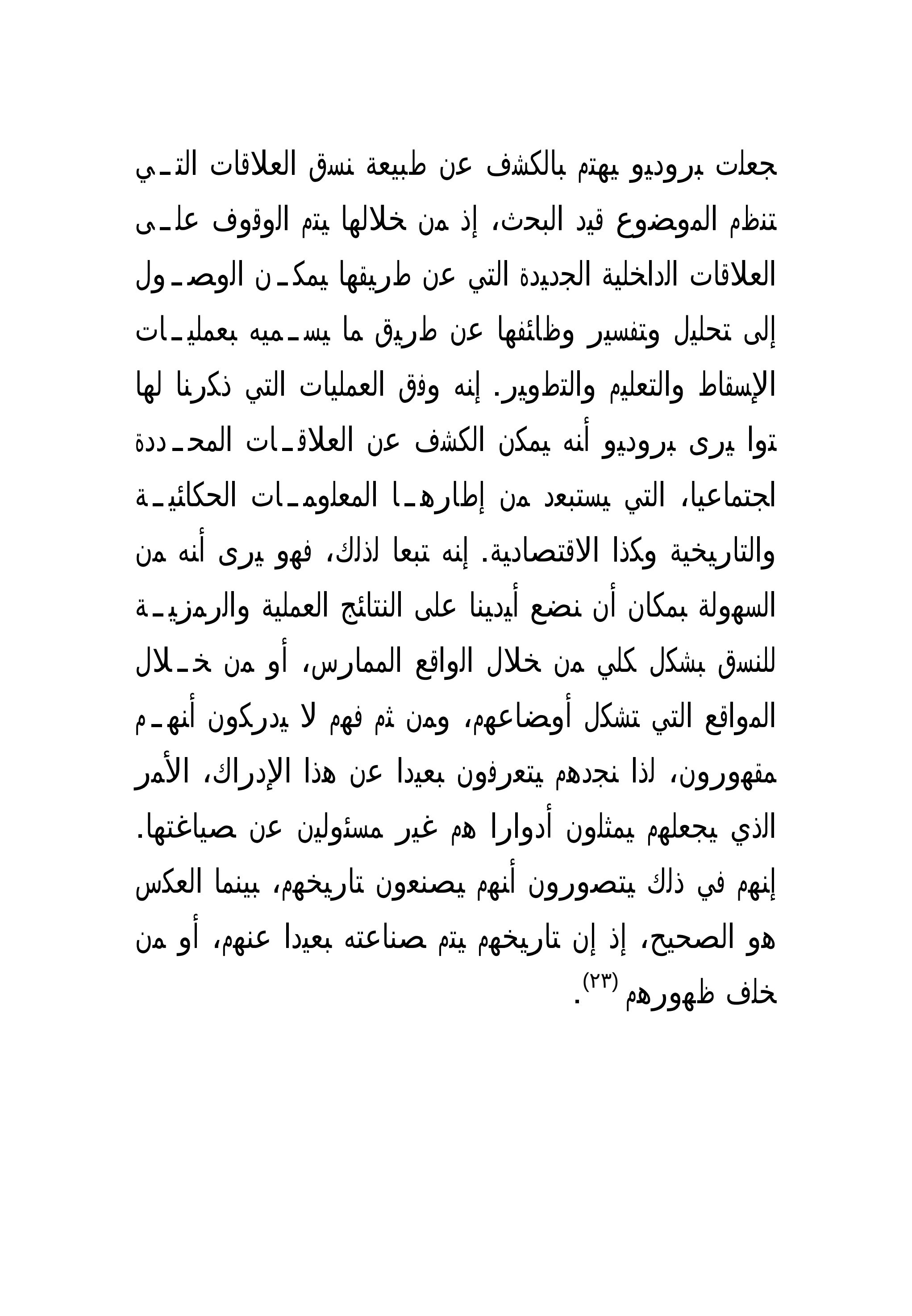


العلاقات النفوذ بين العلاقات الاجتماعية في إطار عدم وجودها في البناء الاقتصادي، وبيد أن بورديو قد استلهم من ماركس فكرة التشكيلة الاجتماعية، وقلبها رأسا على عقب، فإنه نهل أيضا فكرة العلاقات الرمزية بين الطبقات من بحوث شتراوس حول القرابة، والتي رأى فيها غاية الكشف عن الأنساق المستترة للعلاقات وآليات تنظيمها.[٢١].

فعلى الرغم من استفادته من الأطر الكلاسيكية في علم الاجتماع، إلا أنه تقاطع مع الحدود النظامية في علم الاجتماع والإنثروبولوجيا، ذلك الذي جعله يتحرك بسهولة لصياغة مجموعة من المقولات النظرية والإجراءات المنهجية. والواقع أن ما قدمه بورديو جعله يضع مسافة بينه وبين ما عرف على مسرح السوسيولوجيا، ليس على صعيد النظريات الكلاسيكية في علم الاجتماع وحسب، ولكن أيضا على صعيد النظريات الحديثة خاصة ما تعرف باسم الفينومينولوجيا والتفاعلية الرمزية، بل وأيضا النفعية. وإذا كان بورديو قد تقاطع مع كل النظريات السابقة، فقد وضع له رؤية خاصة به، تلك التي وضع لها صياغة خاصة وسماها بنظرية الصراعات الثقافية. فعلى الرغم من أنه تناول كثيرا

من الموضوعات ووضع صياغات لهـا فـي إطـار علـم الاجتماع من خلال مفهوم الطبقات الاجتماعيـة والأشـكال الثقافية المرتبطة بهـا، إلا أنـه حـاول أن يـربط الرؤيـة الماركسية حول الطبقات الاجتماعية بالعلاقات الاجتماعيـة وبأسلوب الإنتاج، فضلاً عن التحليل الفيبري الخاص بفهـم الأوضاع الاجتماعية وسيطرة الثقافة الطبقية، وحيـث إنـه مشى وفق هذا الدرب، فإنه حاول أن يربط كـل مـا سـبق بمفهوم العادة أو ما يسميه بالأبيتوس Habitus [٢٢].

إن استلهام أو قل استعارة بورديو أطـره المعرفيـة سواء من الفكر الماركسي، أو البنيوي، وحتى مـن الفكـر الفيبري، جعله يركز في أعماله على كيفية تجـدد البنيـات، وكيفية إعادة إنتاجها، فضلاً عن التركيز على سلوك الفاعلين باعتبارهم مسئولين عن إعادة إنتاج أوضاعهم. وحيث إن ما سبق يكشف عن استعارة بورديو من أطروحة الفينومينولوجيا الخاصة بفهم قصد الفاعلين، وأطروحات البنيوية في كشـف العلاقة بين البنيات المختلفة، وفي فهم الذات، فإن ذلك جعله يضع ثلاثة مفاهيم رئيسية هي: نسق المواقف، والأبتيـوس، وإعادة الإنتاج الاجتماعي. إن صياغة مثل هـذه المفـاهيم



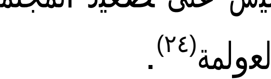
جعلت بروديو يهتم بالكشف عن طبيعة نسق العلاقات التي تنظم الموضوع قيد البحث، إذ من خلالها يتم الوقوف على العلاقات الداخلية الجديدة التي عن طريقها يمكن الوصول إلى تحليل وتفسير وظائفها عن طريق ما يسميه بعمليات الإسقاط والتعليم والتطوير. إنه وفق العمليات التي ذكرنا لها توا يرى بروديو أنه يمكن الكشف عن العلاقات المحددة اجتماعيا، التي يستبعد من إطارها المعلومات الحكائية والتاريخية وكذا الاقتصادية. إنه تبعا لذلك، فهو يرى أنه من السهولة بمكان أن نضع أيدينا على النتائج العملية والرمزية للنسق بشكل كلي من خلال الواقع الممارس، أو من خلال المواقع التي تشكل أوضاعهم، ومن ثم فهم لا يدركون أنهم مقهورون، لذا نجدهم يتعرفون بعيدا عن هذا الإدراك، الأمر الذي يجعلهم يمثلون أدوارا هم غير مسئولين عن صياغتها. إنهم في ذلك يتصورون أنهم يصنعون تاريخهم، بينما العكس هو الصحيح، إذ إن تاريخهم يتم صناعته بعيدا عنهم، أو من خلاف ظهورهم [٢٣].

(٣) ما بعد الحداثة وعلاقات الحياة اليومية:

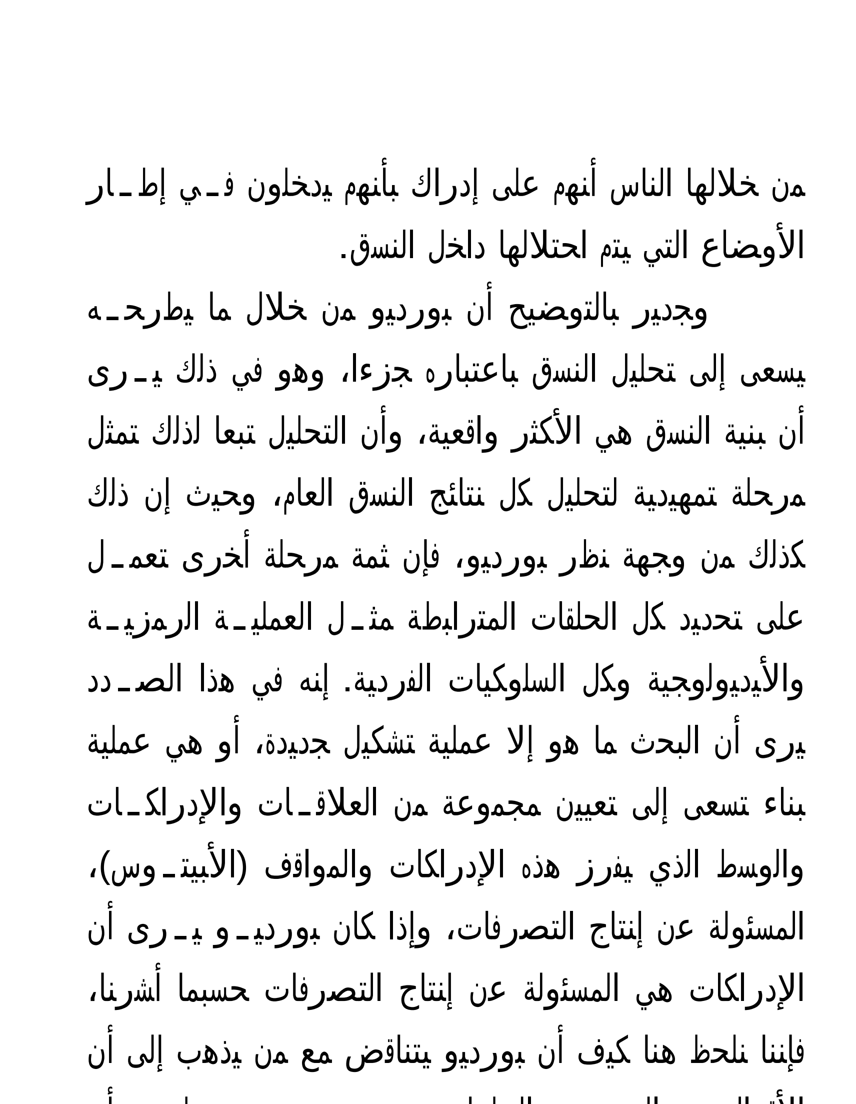
أ ـ ما بعد الحداثة ونهاية الفلسفات الكبرى:

على الرغم من أن تيمة ما بعد الحداثة كانـت فـي بداية ظهورها تأتي في اتصـالها باتجـاه علمـي الجمـال والاقتصاد، وتتقاطع مع الثقافة السائدة، وتتباين عن مفهـوم التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، إلا أن استخدامها اليوم يأتي في اتشاجها مـع مفـاهيم جديـدة مثـل مجتمـع وسـائل الإعلام(مجتمـع الاسـتعراض)، أو مجتمـع الاسـتهلاك، أو المجتمع البيروقراطي المنظم للاستهلاك، أو مجتمـع مـا بعد الصناعة. وبغض النظر عن هذه التسميات كلهـا، فـإن استخدامها في هذا العرض يأتي في إطار ارتباطها بالتحليـل الحكائي، أو المهمة الإدراكية للعلم، التي تطرح ابستمولوجية واقعية من شأنها أن تكشف عن خطاب عملي، يتم من خلاله تحليل مواقف وألعاب اللغة، بل وتحليل اللغة ذاتها، باعتبارها تبادلاً غير مستقر بين متحدثيها للوقوف على أنساق الدلالات الهامة في ممارسة الحيل التي تؤدي فـي إطـار العلاقـات الصراعية. إننا في هذا الصدد نحاول سبر أغوار الخطـاب

اليومي من خلال مقولات ما بعد الحداثة في إطار المجتمعات التكنوقراطية ذات التنظيم المحكم التي يشهدها المجتمع الغربي بعد تعاظم آليات الاتصال ليس على صعيد المجتمع ذاته، وإنما على صعيد ما يسمى بالعولمة[٢٤].



وفي هذا الجزء سوف نتعرض للرؤى النظرية حول مفهوم ما بعد الحداثة، وانعكاسات هذا المفهوم واستخدامه لمفهوم الحياة اليومية وما تشهده من علاقات اجتماعية. وقبل الخوض في هذا الهدف، فأحرى بنا أن نشير إلى أن مفهوم ما بعد الحداثة التي أشارت إليه التنظيرات الحديثة يحمل سمتين أساسيتين، تلك التي تتمثل في الجدل المتزايد بين عالم العلاقات الشخصية غير المباشرة، وما يسمى بعالم التنظيم، إنه يمكن تعريف السمة الأولى من خلال تزايد ما يسمى بالعلاقات غير المباشرة التي تنتج من خلال تكنولوجيا المعلومات والتنظيمات البيروقراطية والأنظمة ذاتية التنظيم مثل الأسواق، أما بالنسبة لتعريف السمة الأخرى، فإننا يمكن أن نشير لها وفقًا لما جاء به بندكت أندرسون الذي يرى أنها الإطار الثقافي الذي عرفته المجتمعات الإنسانية، ويتصور



من خلالها الناس أنهم على إدراك بأنهم يدخلون في إطار الأوضاع التي يتم احتلالها داخل النسق.

وجدير بالتوضيح أن بورديو من خلال ما يطرحه يسعى إلى تحليل النسق باعتباره جزءا، وهو في ذلك يرى أن بنية النسق هي الأكثر واقعية، وأن التحليل تبعا لذلك تمثل مرحلة تمهيدية لتحليل كل نتائج النسق العام، وحيث إن ذلك كذلك من وجهة نظر بورديو، فإن ثمة مرحلة أخرى تعمل على تحديد كل الحلقات المترابطة مثل العملية الرمزية والأيديولوجية وكل السلوكيات الفردية. إنه في هذا الصدد يرى أن البحث ما هو إلا عملية تشكيل جديدة، أو هي عملية بناء تسعى إلى تعيين مجموعة من العلاقات والإدراكات والوسط الذي يفرز هذه الإدراكات والمواقف (الأبيتوس)، المسئولة عن إنتاج التصرفات، وإذا كان بورديو يرى أن الإدراكات هي المسئولة عن إنتاج التصرفات حسبما أشرنا، فإننا نلحظ هنا كيف أن بورديو يتناقض مع من يذهب إلى أن الأقوال هي التي تحدد السلوك، حيث من وجهة نظره أن البنى هي التي تحدد ذلك[٢٥].

وإذا ما ألقينا الضوء على مفهوم بورديو الذي أسماه بالعادة الثقافية Habitus، فإنه يتضح لنا أنه وفقًا له يرى أن الثقافة السائدة تشكل الشخصية والعادات والتصرفات، وذلـك باعتبارها منظومة تتألف مـن مجموعـة مـن المـدركات والمعاني والقدرات والحاجات وتذوق الأشـياء، تلـك التـي تكون محفورة داخل الفرد، وموجودة في إطار الـوعي. إن أنماط المعرفة التي تتكون لدى الفرد. تشكل شخصية الفرد، وتسأل عن تصرفاته وأفعاله، إن العادة الثقافية وفقًا لبورديو تساعد الفرد على فهم عالمه والتعامل معه وإعطائـه معنـى وتفسيرا معينًا، فضلاً عن أنها تقولب دوافعه واهتمامه بأشياء بعينها وإهماله لأخرى. ولكن لا يعني ذلك، أن هذه الأشـياء هي لدى كل أفراد المجتمع، وإنما هي على العكس، إذ تتباين من طبقة لأخرى. إن ذلك يرجع من وجهة نظر بورديو إلى ظروف النشأة، وطبيعة البنى الاجتماعية فـي المجتمعـات الإنسانية(٢٦).

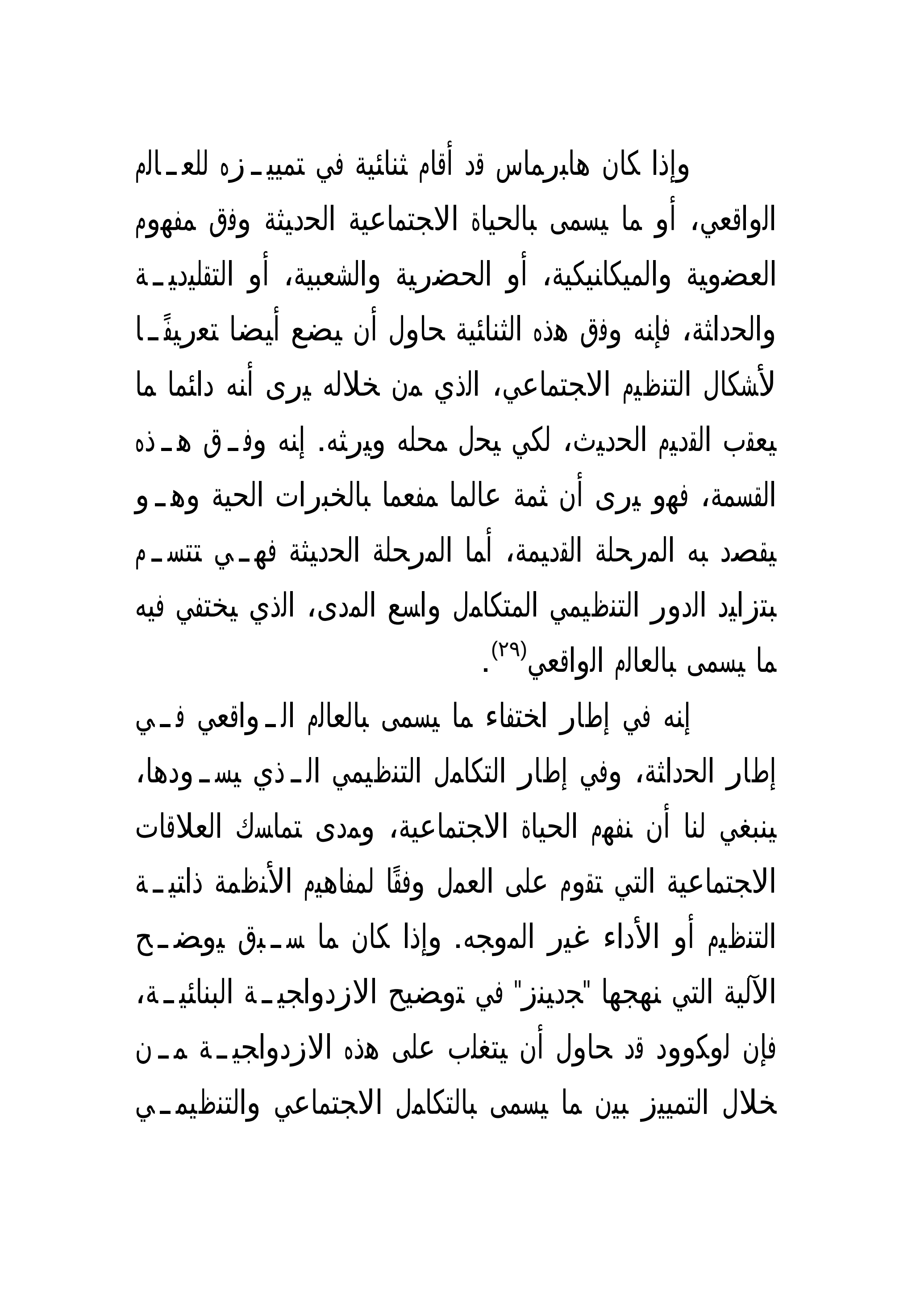
وفي إطار إيمان بورديو بأن العادة الثقافية هي التي تشكل دوافع واهتمامات وسلوكيات الأفراد، فإنـه يـرى أن العملية الثقافية التي تجعل من المقهورين خاضعين لظروفهم،

وأسيرين للممارسات والأفكار السائدة، ما هي الإبريهيـات، ذلك الذي حداه إلى استخدام ما يسـمى بـالعنف الرمـزي Symbolic Violence، الذي من وجهة نظره ما هـو إلا نوع من التشويه الثقافي الذي يحيا بين جنباتـه الخاضـعون بشكل مقبول ومذعن. لقد حاول بورديو من خـلال مفهـوم العنف الرمزي أن ينظر إلى الذات من خلال رؤيـة ضـيقة استطاع أن يجد من خلالها الواقع المعـاش الـذي فـرض خضوع فئات بعينها في ضوء بنى اجتماعية محددة. إنه في ضوء هذا الفهم، فإن بورديو يرى أن الناس لا تدرك إطـار شبكات العلاقات الشخصية المباشرة.

وإذا كنا في هذا الصدد نسعى إلى الوقوف على فهم الحداثة في إطار الحياة اليومية، فإنه يتوجب علينا فهم أهـم التغيرات التي طرأت على الحياة اليومية في العصر الحديث، تلك تتبدى بشكل واضح في تعميق وحدة الصراع بين عـالم العلاقات الشخصية وأنماط التكامل واسعة المدى فـي عـالم اليوم. وحيـث إن التنظيمـات الاجتماعيـة التـي عرفتهـا المجتمعات البشرية فيما قبل زمن الحداثة، قد سـاهمت فـي تعميق اللحمة الاجتماعية، وهو ما شـهدته زمـن الكنيسـة

الكاثوليكية، فإنه اليوم قد عرفت تزايد وتائر الشقاق بين مـا هو تنظيمي وما هو غير ذلك، نتيجة لمـا أصـاب التكامـل والتنظيم في عالم التفاعلات اليومية من تشوه. إنـه يمكـن وضع هذه القضية في إطار مـا يسـمى بأشـكال التكامـل الاجتماعي في عالم الحداثة. تلك التي أصـابها نـوع مـن الصراع بين عالم الخبرة وبين العالم الواقعي(٢٧).

وفي هذا المقام ينبغي أن نفرق بين أربعـة عـوالم حقيقية في الواقع المعاش، هي: عالم العلاقـات الشخصـية المباشرة، والذي يتسم بالتفاعل المباشر والحقيقـي، وعـالم الارتباط الشخصي المتصور أو المتخيل (الذي يسوده بعض الوسائط مثل التليفزيون والأقمار الصناعية)، وعالم العلاقات النشطة ذات البعد الواحد (مثل المراقبة والإشراف)، وعـالم التكامل التنظيمي الذي يتم عن طريق التنسيق مـن خـلال الآليات غير الشخصية وغير اللغوية. إن العوالم الأربعة التي أشرنا إليها تستند إلى أنواع متباينة من العلاقات الاجتماعية، وأشكال مختلفة من الوسائط، لأنه حتى العلاقات الشخصـية المباشرة لا تظهر بصورة مادية، إذ تتشكل عن طريق عملية الاتصال، وما ينتج عنه من فهم ذاتي(٢٨).



وإذا كان هابرماس قد أقام ثنائية في تمييـزه للعـالم الواقعي، أو ما يسمى بالحياة الاجتماعية الحديثة وفق مفهوم العضوية والميكانيكية، أو الحضرية والشعبية، أو التقليديـة والحداثة، فإنه وفق هذه الثنائية حاول أن يضع أيضا تعريفًـا لأشكال التنظيم الاجتماعي، الذي من خلاله يرى أنه دائما ما يعقب القديم الحديث، لكي يحل محله ويرثه. إنه وفـق هـذه القسمة، فهو يرى أن ثمة عالما مفعما بالخبرات الحية وهـو يقصد به المرحلة القديمة، أما المرحلة الحديثة فهـي تتسـم بتزايد الدور التنظيمي المتكامل واسع المدى، الذي يختفي فيه ما يسمى بالعالم الواقعي[٢٩].

إنه في إطار اختفاء ما يسمى بالعالم الـواقعي فـي إطار الحداثة، وفي إطار التكامل التنظيمي الـذي يسـودها، ينبغي لنا أن نفهم الحياة الاجتماعية، ومدى تماسك العلاقات الاجتماعية التي تقوم على العمل وفقًا لمفاهيم الأنظمة ذاتيـة التنظيم أو الأداء غير الموجه. وإذا كان ما سـبق يوضـح الآلية التي نهجها "جدينز" في توضيح الازدواجيـة البنائيـة، فإن لوكوود قد حاول أن يتغلب على هذه الازدواجيـة مـن خلال التمييز بين ما يسمى بالتكامل الاجتماعي والتنظيمـي

لقد حاول أن يركز على مشكلة التكامل الاجتماعي ويهتم بالعلاقات المتصارعة والمتكاملة في الوقت عينه، وذلك باعتبارها جزءا من النظام الاجتماعي القائم، إن اهتمام "لوكوود" كان موجها بالأساس للرد على الدفوعات النقدية التي وجهت للوظيفية في ذلك الوقت، حيث إغفالها لمسألة التناقضات التنظيمية وتركيزها وحسب على التكامل والتناغم في المجتمعات الرأسمالية.

وإزاء هذا الاهتمام من قبل "لوكوود"، فإن هابرماس في عام ١٩٧٨ حاول أن يقدم مجموعة من الارتباطات العملية لكي يميز الأنظمة القائمة وأشكال التكامل الاجتماعي، إذ من خلال ذلك حاول أن يحلل هذه الارتباطات في ضوء الميكانزمات التي تضبط الارتباطات الداخلية غير المقصودة للأفعال. وفي هذا الصدد يحاول هابرماس أن يحتفظ بمفهوم غير مادي للعمل في داخل التنظيمات، ذلك المفهوم الذي يتصل بمفهوم التغذية المرتدة للتنظيم، والذي يعتمد على نتائج العمل ويتعامل مع مفهوم المجتمع ذاته(٣٠).

إن المدقق في هذا المفهوم يمكن أن يرجعه بشكل مباشر إلى ما يسمى بنظرية التنظيم لدى "بارسونز" الذي دفع

به في عام ١٩٣١، أو الذي أعاد إنتاجه "لومان" فـي عـام ١٩٨٢، أي أن مفهوم هابرماس لم يكن البتة جديدا، اللهم إلا في محاولته خبر الواقع المعاش لفهم عملية التباين الفعلي بين ما يسمى بالعالم الواقعي والعالم التنظيمي. إن الجديـد فـي طرح الارتباطات الداخلية للأفعال غير المقصودة يقودنا إلى وضع التفسيرات التحليلية في سياق الحيـاة اليوميـة. التـي يشتق منها التقابل بـين العلاقـات الاجتماعيـة الشخصـية المباشرة وغير المباشرة، التي تتكون عندما يـؤثر العمـل الاجتماعي على الآخرين من خلال وسائط التنظيمات المعقدة والأسواق أو تكنولوجيا الاتصالات غير الشخصية الناتجـة عن الأفعال البشرية.

إن تمييز هابرماس بين نوعين من أشـكال الفعـل العقلاني، جعله يرى أن الأول يأخـذ شـكل الوسـيلة (أي الموجه نحو النجاح وعلاقته بالأهداف)، والآخـر هـو مـا يعرف بالاتصال (الذي يوجه نحو الفهم الانعكاسي وتكـون العلاقات الاجتماعية وهو في ذلك يرى أن كلا من النـوعين السابقين ينمو بطريقة غير طبيعية في سباق التاريخ البشري، ولكن ما إن تتاح الفرصة لإثارة الأشكال المتصارعة، فإنـه

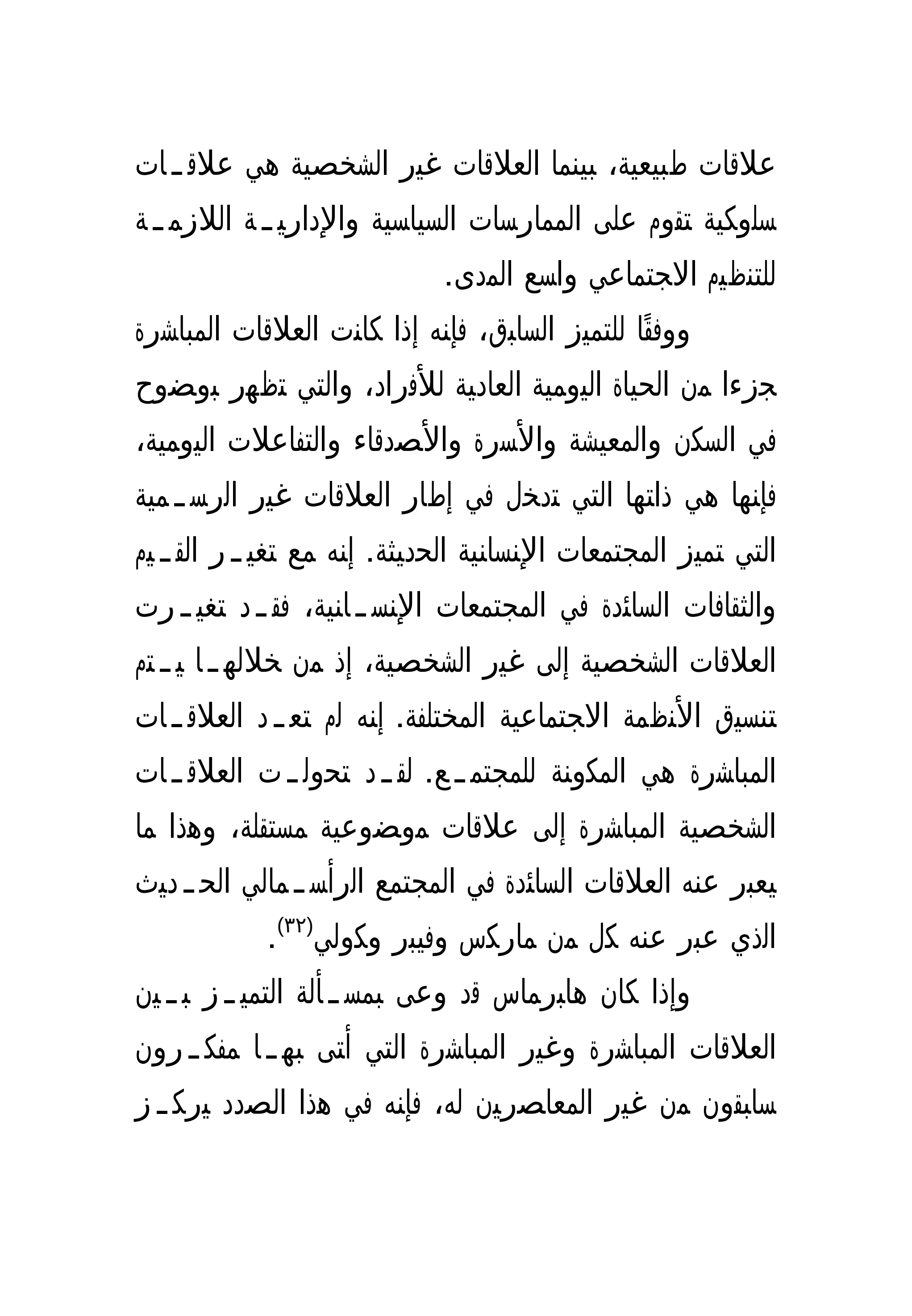

يتم تكامل التفاعل الاجتماعي من خلال عمليات الاتصال التي يسعى من خلالها الأفراد إلى الفهم المتبادل، وإذا كان ما سبق يخص الشكل الأول، فإن الآخر تتم فيه عملية التكامل التنظيمي من خلال ميكانزمات التغذية المرتدة لوسائل التوجيه غير اللغوي، دون أن يفهم أي فرد بالضرورة أن الفهم هنا يلعب دورا رئيسيا[٣١].

ب ـ الأبعاد الملموسة للعلاقات الاجتماعية:

إنه في هذا الجزء دون الدخول في تفاصيل ترتبط بمفاهيم هابرماس حول العلاقات الشخصية المباشرة أو غير المباشرة، فإن ما نود أن نركز عليه هو ضرورة التمييز بين العلاقات الاجتماعية المباشرة أو غير المباشرة وفق منظور بنائي سوسيولوجي نستطيع من خلاله أن نقارن أشكال التكامل التي تسود المجتمعات الإنسانية. إن محاولة تفسير نماذج التكامل الاجتماعي عن طريق تغير التوجهات نحو الفعل الاجتماعي، فإن ذلك سوف يخفي عن رؤيتنا طبيعة النماذج المختلفة للعلاقات الاجتماعية الملموسة، وذلك باعتبار أن هذه العلاقات الاجتماعية الملموسة تعد نوعا من

آليات التفاعل الاجتماعي. وإذا كان ما سبق يتضح بشكل جلي في إطار الحياة اليومية، فإن ذلك يختفي في المقابل عن الحياة التنظيمية، وهذا ما جعل هابرماس يركز على التفاعل المباشر خاصة العلاقات الأولية، باعتباره سببا رئيسيا من الناحية الانفعالية في معظم المجتمعات الحديثة، والتي توجد بشكل مباشر في إطارها التنظيمي. إن أي إنسان له علاقات مباشرة مع الأسرة والأصدقاء والجيران، وفي العمل، وحتى مع الناس الذين لا نتعامل معهم كثيرا مثل موظفي البنوك والمدرسين. إن تفسير مثل هذه العلاقات الاجتماعية ترتبط بشكل كبير بعملية الإدراك والوعي والخبرة الفردية.

إن رؤى الحداثة هنا تفرق بين العلاقات المباشرة وغير المباشرة فإذا كانت الأولى تسود في الأشكال التنظيمية فيما قبل الحداثة، خاصة لدى العلاقات الأولية في إطار الأسرة عملية التبادل الاقتصادي الذي لعب فيه الإدراك الشعوري والوجود المباشر دورا رئيسيا، فإن النوع الآخر أقصد العلاقات غير المباشرة فقد عرفتها مجتمعات ما بعد الحداثة، وخاصة في مجتمعات التنظيمات التي تقوم على التعاقد والهيداركية. إن العلاقات الشخصية أو المباشرة هي



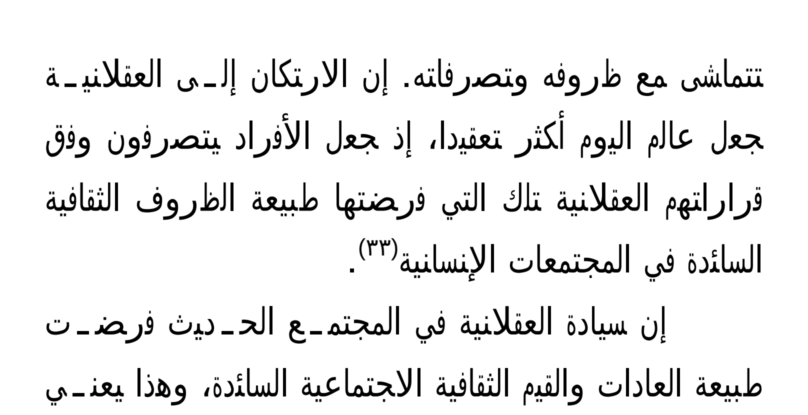
علاقات طبيعية، بينما العلاقات غير الشخصية هي علاقات سلوكية تقوم على الممارسات السياسية والإدارية اللازمة للتنظيم الاجتماعي واسع المدى.

ووفقًا للتميز السابق، فإنه إذا كانت العلاقات المباشرة جزءا من الحياة اليومية العادية للأفراد، والتي تظهر بوضوح في السكن والمعيشة والأسرة والأصدقاء والتفاعلات اليومية، فإنها هي ذاتها التي تدخل في إطار العلاقات غير الرسمية التي تميز المجتمعات الإنسانية الحديثة. إنه مع تغير القيم والثقافات السائدة في المجتمعات الإنسانية، فقد تغيرت العلاقات الشخصية إلى غير الشخصية، إذ من خلالها يتم تنسيق الأنظمة الاجتماعية المختلفة. إنه لم تعد العلاقات المباشرة هي المكونة للمجتمع. لقد تحولت العلاقات الشخصية المباشرة إلى علاقات موضوعية مستقلة، وهذا ما يعبر عنه العلاقات السائدة في المجتمع الرأسمالي الحديث الذي عبر عنه كل من ماركس وفيبر وكولي(٣٢).

وإذا كان هابرماس قد وعى بمسألة التميز بين العلاقات المباشرة وغير المباشرة التي أتى بها مفكرون سابقون من غير المعاصرين له، فإنه في هذا الصدد يركز

على هذه المسألة في ضوء بنية المجتمعات الحديثة. إنه إذا كانت العلاقات المباشرة لم تنته بعد في المجتمعات الحديثة حيث تسود في إطار التجمعات الاجتماعية البسيطة مثل الأسرة وجماعات الأصدقاء وغيرها، إلا أن العلاقات غير المباشرة توجد في إطار تنظيمي يعتمد بشكل رئيسي على وجود السلطة البيروقراطية والتنظيمات الرشيدة، تلك التي عرفتها مجتمعات الحداثة وما بعدها. إن التحول في هذه العلاقات في ظل مجتمعات الحداثة وما بعدها، يعني أن التسلط وعلاقات السوق والاستغلال قد قتلت البراءة، وحولتها إلى علاقات فارغة من أي مضمون اجتماعي حقيقي. إنها قتلت النقاوة، وفرضت ما يسمى بالشخصية المتسلطة والمستبدة التي عبرت عنها عمليات التكامل الاجتماعي في المستويات التنظيمية المختلفة.

إن تغير التقليدية التي سادت في زمن ما قبل الحداثة، قد حولت الأفراد إلى أشخاص عقلانيين، فبدلاً من العلاقات البسيطة التي تلعب فيها التقاليد والأعراف دورا رئيسيا في إدارة العلاقات، فإن العلاقات العقلانية والرشيدة فرضت نفسها لكي يتحكم الفرد في اختباراته بطريقة عقلانية



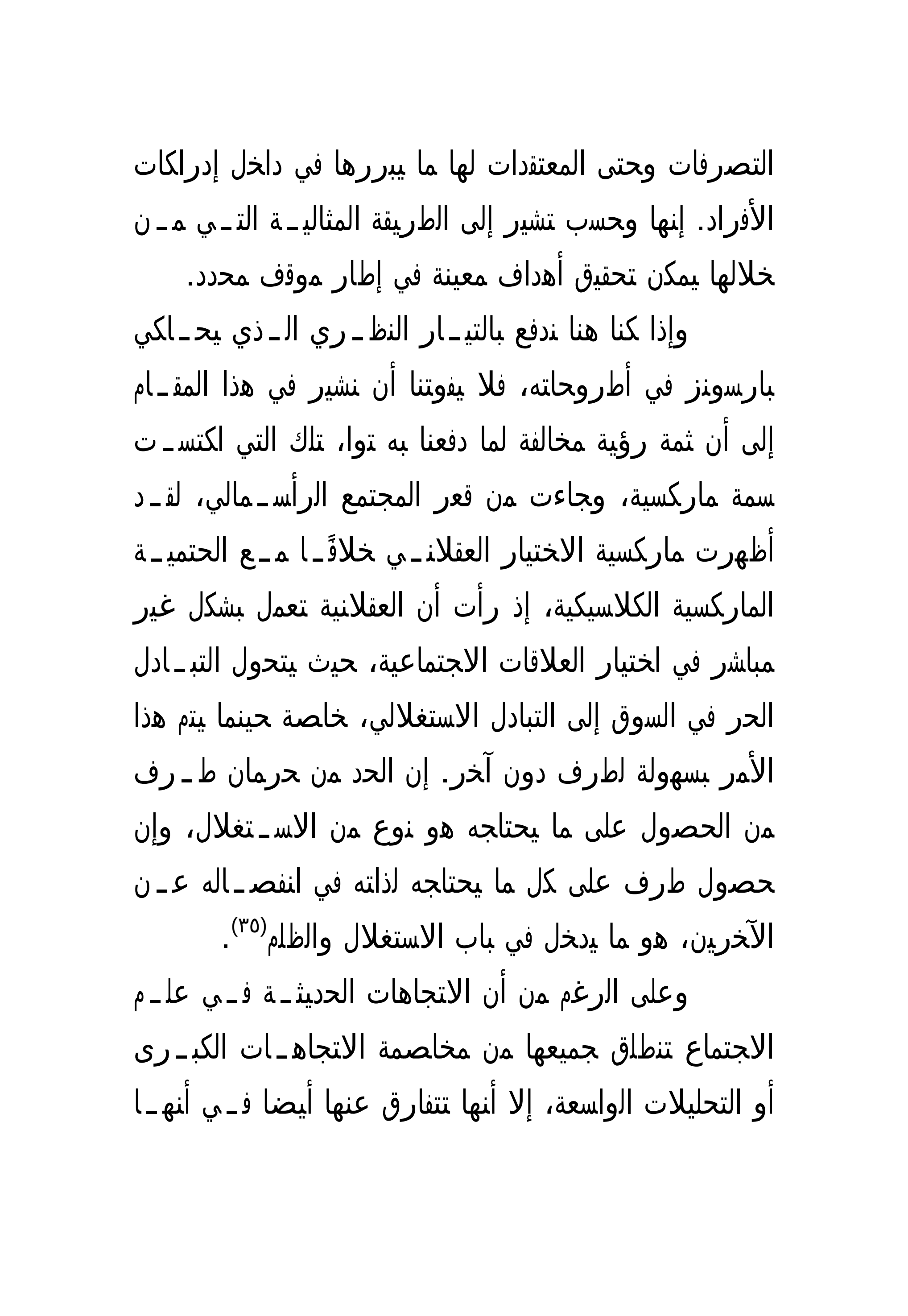
تتماشى مع ظروفه وتصرفاته. إن الارتكان إلى العقلانية جعل عالم اليوم أكثر تعقيدا، إذ جعل الأفراد يتصرفون وفق قراراتهم العقلانية تلك التي فرضتها طبيعة الظروف الثقافية السائدة في المجتمعات الإنسانية[٣٣].

إن سيادة العقلانية في المجتمع الحديث فرضت طبيعة العادات والقيم الثقافية الاجتماعية السائدة، وهذا يعني أن مثل هذه العادات والقيم الثقافية تتطلب أن يفهم الفرد نفسه باعتباره كيانًا مستقلا، أي أنه مستقلا عن العلاقات المباشرة التي كان يتعامل قديما بها، حيث الإذعان للأنماط الانضباطية التقليدية التي كانت تسود. إنه في إطار التنظيم الحديث للمجتمعات الإنسانية، فإن أفعال الأفراد أصبحت مقيدة وفقًا للوائح والقوانين والمعايير السائدة. إن العلاقات غير المباشرة التي تسود عالم ما بعد الحداثة هي علاقات تفرضها مجموعة من التحديات في عالم الخبرة اليومية، تلك التي تتمثل في المكان والزمان والسياق الاجتماعي الذي تفرضه طبيعة ومعنى التنظيم الاجتماعي السائد، ذلك التنظيم الذي يفرض فهما جديدا للعلاقات الاجتماعية التي شكلت هوية وطبيعة المجتمعات الحديثة[٣٤].

(٤) الاختبار العقلاني والسلوك الإنساني:

ظهرت هذه النظرية للرد على البنائية الوظيفية التي شيدها بارسونز تحت اسم نظرية التبادل، إذ من خلال هـذه الردود، اتضح موقفها الرافض للنظريات الكبرى. وإذ هـي كذلك، فإن هذه النظرية ترى من خلال مبادئ علـم الـنفس السلوكي، أن البشر يمارسون سلوكًا من شأنه أن يعمل على تدبير احتياجاتهم وتحقيق منـافعهم، بيـد أن هـذا المنطـق النظري لدى أصحاب نظرية التبادل أو الفعل العقلاني يتشابه مع مستوى التحليل المصغر لدى بارسونز خاصة في وحـدة الفعل الصغرى، فإن هذه الفكرة تتغاير لدى تطبيقها، حيـث ترى أن فكرة التبادل تحقق نوعا من التضامن الاجتماعي، إذ من خلالها يتبادل الأفراد نشاطهم، بهدف تحقيق أقصى إشباع ومنفعة في الوقت نفسه.

وحيث إن هذه النظرية تؤكد على ما سقناه قبل قليل، فهي ترى في الإطار عينه، أن الإجراءات العقلانيـة التـي يتبعها الأفراد في أفعالهم هي التي تملي عملية رغباتهم، بـل ومعتقداتهم، فالأفراد دائما ما يختارون ما يتناسب مع تحقيق أهدافهم، إننا نفهم من ذلك أن أفعال الفرد هنا مقصودة. وأن



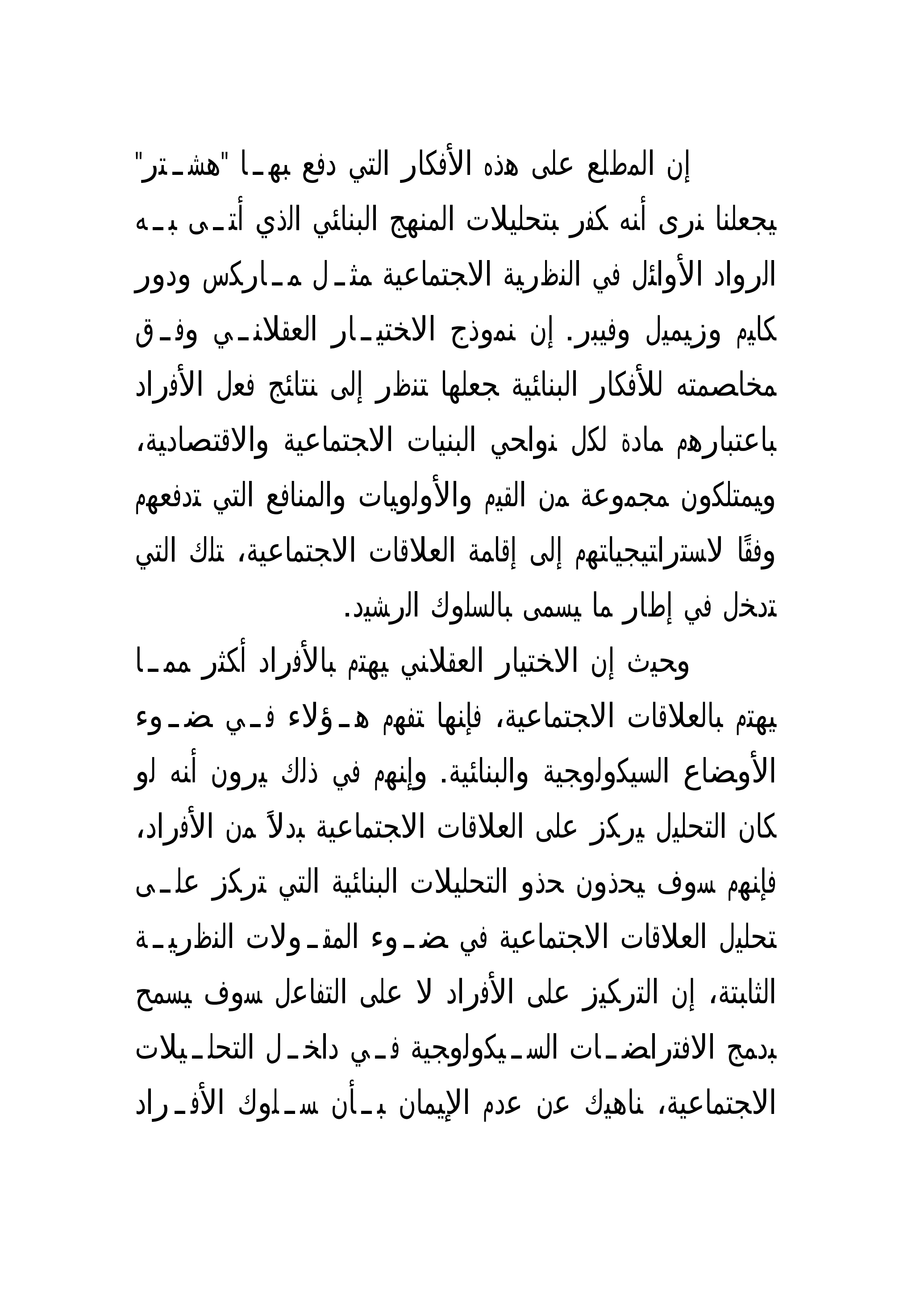
التصرفات وحتى المعتقدات لها ما يبررها في داخل إدراكات الأفراد. إنها وحسب تشير إلى الطريقة المثاليـة التـي مـن خلالها يمكن تحقيق أهداف معينة في إطار موقف محدد.

وإذا كنا هنا ندفع بالتيـار النظـري الـذي يحـاكي بارسونز في أطروحاته، فلا يفوتنا أن نشير في هذا المقـام إلى أن ثمة رؤية مخالفة لما دفعنا به توا، تلك التي اكتسـت سمة ماركسية، وجاءت من قعر المجتمع الرأسـمالي، لقـد أظهرت ماركسية الاختيار العقلانـي خلافًـا مـع الحتميـة الماركسية الكلاسيكية، إذ رأت أن العقلانية تعمل بشكل غير مباشر في اختيار العلاقات الاجتماعية، حيث يتحول التبـادل الحر في السوق إلى التبادل الاستغلالي، خاصة حينما يتم هذا الأمر بسهولة لطرف دون آخر. إن الحد من حرمان طـرف من الحصول على ما يحتاجه هو نوع من الاسـتغلال، وإن حصول طرف على كل ما يحتاجه لذاته في انفصـاله عـن الآخرين، هو ما يدخل في باب الاستغلال والظلم[٣٥].

وعلى الرغم من أن الاتجاهات الحديثـة فـي علـم الاجتماع تنطلق جميعها من مخاصمة الاتجاهـات الكبـرى أو التحليلات الواسعة، إلا أنها تتفارق عنها أيضا فـي أنهـا

تفسر السلوك في ضوء الأوضاع الداخلية، فضلاً عن أن الصفات الجوهرية الداخلية المميزة لهذا السلوك هي الوحدة الأساسية في التحليل. وحيث إن ذلك كذلك، فهم يركزون على الافتراضات غير الواقعية في السلوك.

إن أهم الافتراضات الأساسية التي تقدم في هذا الإطار، والتي تستند إلى أفكار فريدمان هشتر، ترى أن الأفراد هم الوحدة الأساسية للتحليل، أي باعتبارها وحدات تصنف حسب الصفات الجوهرية المميزة لها، وتعتبر مثل هذه الوحدات أن الأفراد هدف الدراسة الرئيسي، حيث مالهم من أولويات وأغراض نفعية. إن هؤلاء الأفراد يتصرفون لتحقيق غايات معينة بما يتفق مع أولوياتهم وقيمتهم، وما يحقق المنفعة لذواتهم، وغني عن البيان أن مقاصد الأفراد وغاياتهم لا يتم إنتاجها عن قصد، إذ تأتي دوما وفق عدة قيود، تتمثل في ندرة المصادر التي تفرضها الظروف الاجتماعية والاقتصادية القائمة. أو بمعنى آخر، أن الاختيارات العقلانية للفرد تفرضها تكاليف الفرص أو القيود التي تفرضها الظروف الاجتماعية والاقتصادية في الواقع المعاش[٣٦].



إن المطلع على هذه الأفكار التي دفع بها "هشتر" يجعلنا نرى أنه كفر بتحليلات المنهج البنائي الذي أتى به الرواد الأوائل في النظرية الاجتماعية مثل ماركس ودوركايم وزيميل وفيبر. إن نموذج الاختيار العقلاني وفق مخاصمته للأفكار البنائية جعلها تنظر إلى نتائج فعل الأفراد باعتبارهم مادة لكل نواحي البنيات الاجتماعية والاقتصادية، ويمتلكون مجموعة من القيم والأولويات والمنافع التي تدفعهم وفقًا لاستراتيجياتهم إلى إقامة العلاقات الاجتماعية، تلك التي تدخل في إطار ما يسمى بالسلوك الرشيد.

وحيث إن الاختيار العقلاني يهتم بالأفراد أكثر مما يهتم بالعلاقات الاجتماعية، فإنها تفهم هؤلاء في ضوء الأوضاع السيكولوجية والبنائية. وإنهم في ذلك يرون أنه لو كان التحليل يركز على العلاقات الاجتماعية بدلاً من الأفراد، فإنهم سوف يحذون حذو التحليلات البنائية التي تركز على تحليل العلاقات الاجتماعية في ضوء المقولات النظرية الثابتة، إن التركيز على الأفراد لا على التفاعل سوف يسمح بدمج الافتراضات السيكولوجية في داخل التحليلات الاجتماعية، ناهيك عن عدم الإيمان بأن سلوك الأفراد

وتصرفاتهم تتشابه مع بعضها البعض فـي داخـل البنيـات الاجتماعية، وهو ما آمن به أصحاب الاتجاه البنائي، خاصة إذا افترضنا اختلاف الدوافع التي تفرض نوعا من السلوك.

ويجدر أن نشير في هذا الإطار، إنه على الرغم من أن جذور نظرية التبادل كانت تقوم على فهم عملية السلوك، فإنها في الوقت ذاته كانت تستند على المبدأ النفعي. إن ذلـك يعني أن موجهات هذه النظرية كانت تستند إلـى النظريـات التقليدية التي عرفها علم الاجتماع خاصة التـي اسـتخدمت الفاعل ونظر إليه بشكل عقلاني، وهي الرؤية التي استخدمها أميل دور كايم وباريتو وبارسونز. وعلى ذلك، فإن الأفكـار الرئيسية للاختيار العقلاني تميل إلى اتخاذ السـلوك وحـدة للتحليل وهو ما يتضح من خلال أفكار هومـانز وريتشـارد إيمرسون وكارين كوك الذين أحدثوا تغيرا واضحا في مدخل التبادلية الذي جاء به بلاو وجميس كولمان وجـراي بيكـر، الذين استفادوا من الجدل النظري الذي طرحته نظرية الفعل العقلاني، والتي به تناقضت مع النظريات النفعية، واستفادت في الوقت عينه من النظرية المسرحية التي أعيد إنتاجها من جديد في العقدين الأخيرين[٣٨].

ولكن يثور تساؤل هام في هذا الصدد مفاده: بماذا تهتم هذه النظريات، وما هي افتراضاتها وكيف تتناقض مع النظريات السوسيولوجية السيارة على مسرح علم الاجتماع؟. إن الإجابة عن هذا التساؤل يتضح فيما يلي، فإذا كانت النظريات النفعية تفترض أن الفعل الإنساني له أغراض محددة تقوده على النظام المثالي للهيداركية والتراتب المهني، والتي ترى في الوقت نفسه، برغم تباين عملية الشعور، أن الفاعل يصنع حسابات معينة للمنفعة أم تفضيل معين في اختيار مجموعة أفعاله. بمعنى أن الفاعل يحسب المنفعة والتكاليف وما يكسبه في نهاية الأمر من مجموعة اختياراته التي يجليها له سلوكه تجاه مختلف الأشياء. إن ما سبق يوضح أن الفاعلين يحاولون تحقيق أقصى المنفعة التي تخلفها لهم أفعالهم.

إنه على هدي الكلام الفائت يتضح إلى أي حد ارتد أصحاب هذه الرؤية عن التحليلات الواسعة، وخاصة عن مبدأ المنفعة. إن الحقيقة التي نود أن نؤكد عليها هنا تتمثل في مجافاة الأشياء اليقينية التي فسرت من خلالها سلوك الأفراد، فضلاً عن ربط هذا السلوك بمجموعة المخرجات

التي يفرزها البناء الاجتماعي، تلك التي يسأل عنها السـلوك الفردي، وحيث إن هذا المدخل يبدو استنتاجيا، إلا أنه شـغل مكانة محورية في النظريات الحديثة التـي تخاصـمت مـع التحليلات الواسعة أو الكبرى في علم الاجتماع[٣٩].

مجمل القول هنا، أن نظرية الاختيار العقلاني تنطلق بصورة أساسية من خلال مجهودات الأفراد، وتحقيق أقصى المنفعة التي تأتي من خلال استنتاجات الأفراد، ولكـن هـذا الهدف يتضح من خلال دقة الاختيـارات، التـي تفرضـها ظروف البناء الاجتماعي والسلوك الجمعي الذي هو نتيجـة لعوائد الاختيار العقلاني، إن نظرية الاختيار العقلاني تدرك حساب الفاعل العقلاني الذي يحدث داخـل أتـون الوجـود الاجتماعي.

(٥) الاثنوميثودولوجيا وتحديات الواقع الاجتماعي:

تعتبر الاثنوميثودولوجيا نوعا جديدا من النظريـات التي تسعى إلى وصف وتفسير اختيارات الفاعلين التي تـتم في إطار العلاقات الاجتماعية. لقد حاولت اختبـار النـاس،

والطرق التي يستخدمها الناس في التفاعل مع الآخرين، إنها وفق هذا التوجه، فإن الاثنوميثودولوجيا تعتبر ذاتهـا رؤيـة نظرية تخالف التيارات النظرية الأخرى في علم الاجتمـاع، إذ حاولت إنتاج نموذج جديـد ينـاقش تحـديات المفـاهيم الوجودية في الواقع الاجتماعي من خلال وضعية التفاعلات الرمزية.

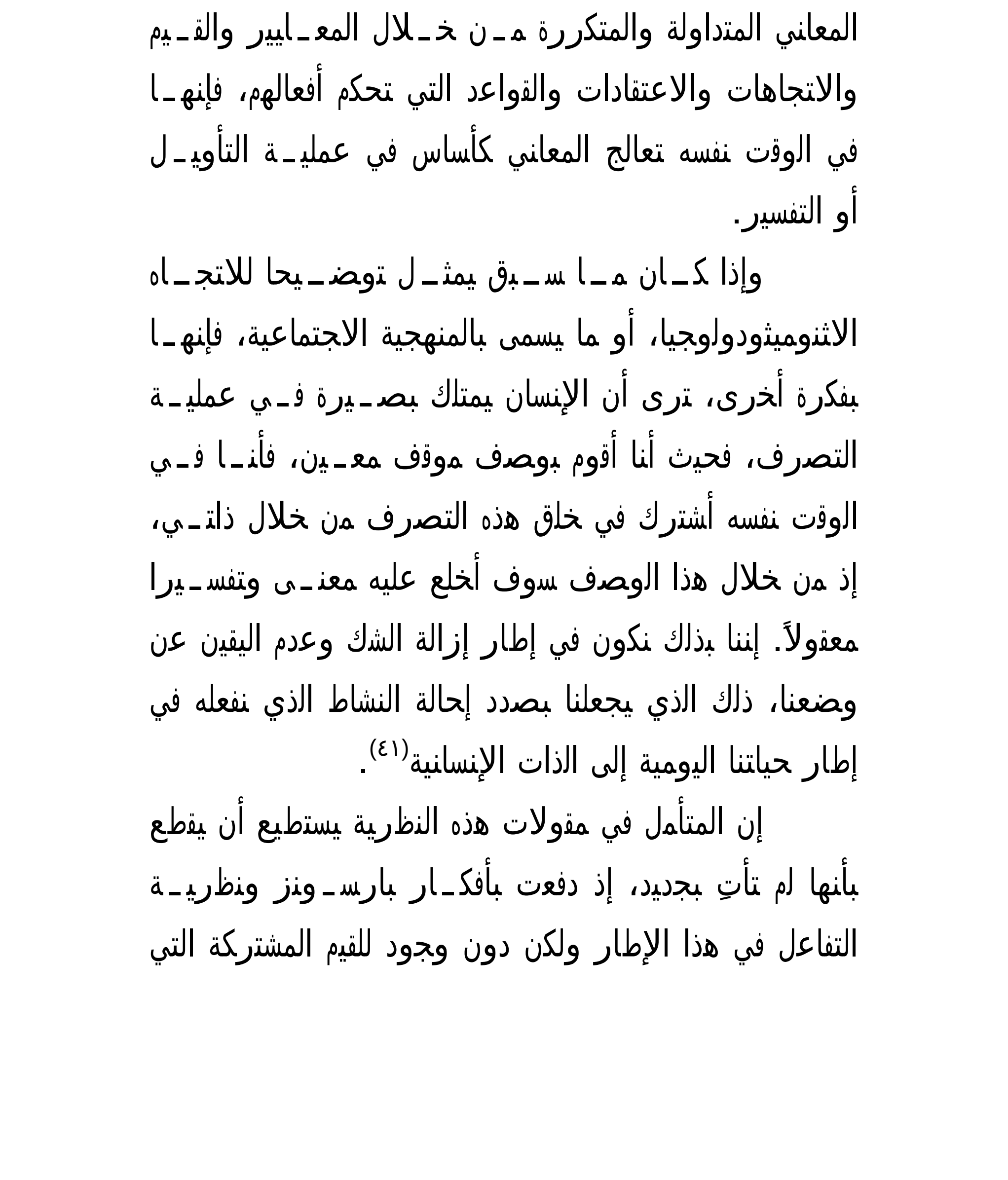
ولكن لماذا تعتبر الاثنوميثودولوجيا نموذجـا جديـدا ومخلصا Messiahs في علم الاجتماع؟. إن الإجابة علـى ذلك توضحه توجهات الاثنوميثودولوجيا التي حاولت الكشف عن الاختيارات الواقعية للسلوك، تلك التي تفرضها وجـود الافتراضات القبلية في العالم الاجتماعي كخصائص واقعية. إنهم في ذلك يرون أن السلوك يأتي من خلال عملية الشعور والإدراك لكل المظاهر الخارجية التي تحـدث فـي الواقـع الاجتماعي(٤٠).

وعلى الرغم من تعاصر هذه النظرية مع بروز عدة تيارات نظرية أخرى مثل: الفينومنيولوجيا وعلم الاجتمـاع الوجودي، والتفاعلية الرمزية، إلا أن الفكرة في المحورية لها تنطلق من مخاصمة المقولة التي تذهب إلى أن المجتمع مـا

هو إلا واقع قائم بذاته، مستقل عن الأفراد الذين يعيشون في إطاره، وفي الوقت الذي تخاصم هذه المدرسة تلك الفكـرة، في الوقت الذي تنادي بأن هؤلاء الأفراد يخلقـون عـالمهم الاجتماعي من خلال سلوكهم.

إن المنهجية الاجتماعية أو الاثنوميثودولوجيـا تعـد واحدة من الاتجاهات النظرية الحديثة التي اصـطنعت لهـا مجموعة من المقولات التي ناهضت كل ما هو قائم من فكر نظـري، اللهـم إلا الظاهرائيـة التـي شـكلت الأرضـية الابستمولوجة لها. وحيث إنها كذلك، فهي ترى أن المعرفـة لا تتصف بالثبات، وإنها تأتي وتتخلق من خلال كل عمليـة تفاعل جديدة، ناهيك عن أن كل عملية تفاعل تحدث بشـكل منظم، وتدخل في إطار الأشياء التي تم إنجازها، لذا فإنه من الواجب الوقوف على ما يجري في إطار هذا التفاعل.

وفي إطار الكشف أو الوقوف على كل ما يجري من خلال الاثنوميثودولوجيا، فهي ترى أن ثمـة حـدثًا تآمريـا يحدث. إنها تجمجم بأن الباحثين يتآمرون على الناس الـذين يدرسونهم لكي يكـون لـديهم انطبـاع مـؤداه أن النظـام الاجتماعي قائم وموجود لا محالة، وأنه يمكن دراسـته مـن



خلال المعاني المتداولة من قبل الأشخاص الخاضعين للبحث والدراسة، وحيث إن الاثنوميثودولوجيا تعمل على دراسة المعاني المتداولة والمتكررة من خلال المعايير والقيم والاتجاهات والاعتقادات والقواعد التي تحكم أفعالهم، فإنها في الوقت نفسه تعالج المعاني كأساس في عملية التأويل أو التفسير.

وإذا كان ما سبق يمثل توضيحا للاتجاه الاثنوميثودولوجيا، أو ما يسمى بالمنهجية الاجتماعية، فإنها بفكرة أخرى، ترى أن الإنسان يمتلك بصيرة في عملية التصرف، فحيث أنا أقوم بوصف موقف معين، فأنا في الوقت نفسه أشترك في خلق هذه التصرف من خلال ذاتي، إذ من خلال هذا الوصف سوف أخلع عليه معنى وتفسيرا معقولاً. إننا بذلك نكون في إطار إزالة الشك وعدم اليقين عن وضعنا، ذلك الذي يجعلنا بصدد إحالة النشاط الذي نفعله في إطار حياتنا اليومية إلى الذات الإنسانية[٤١].

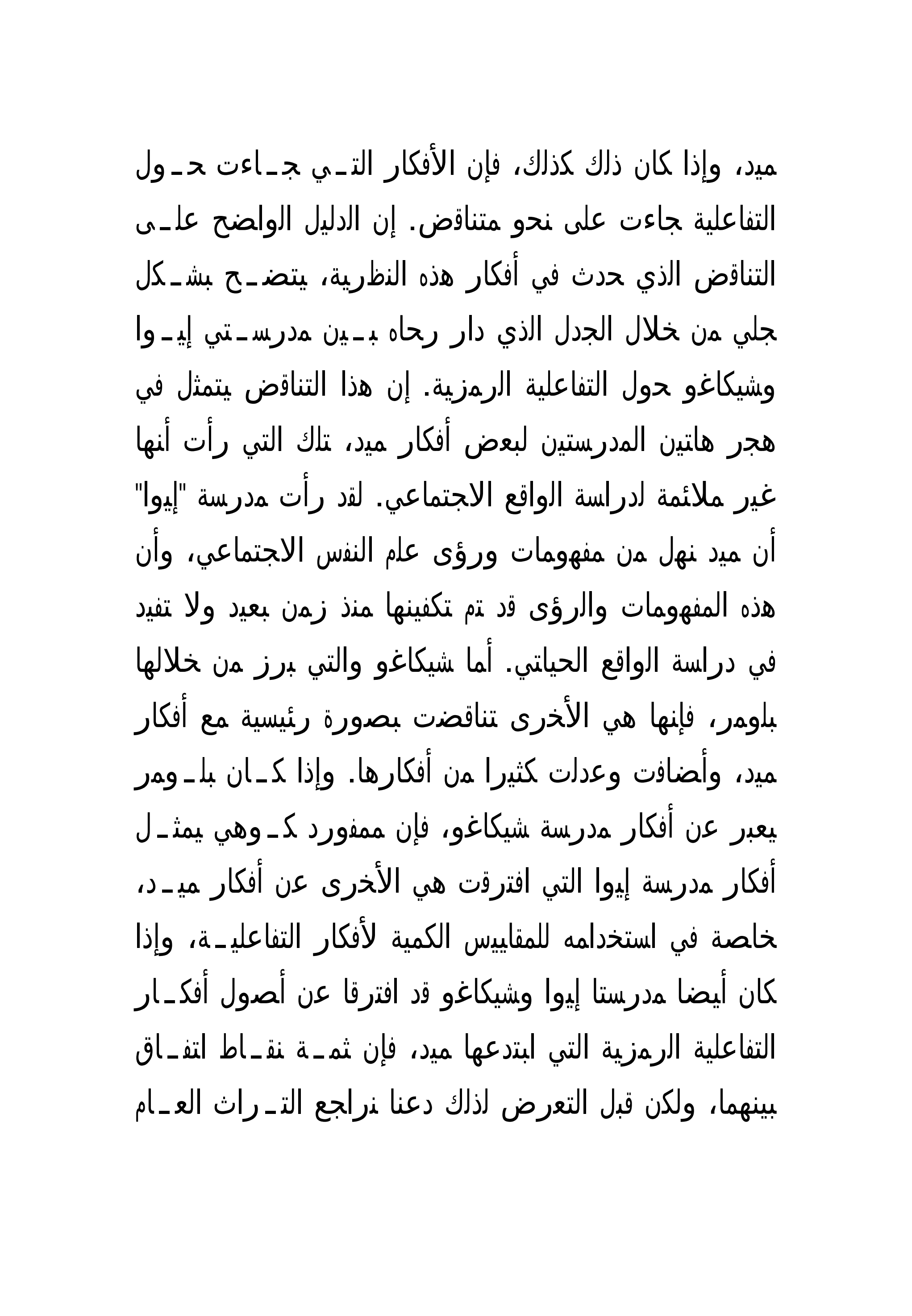
إن المتأمل في مقولات هذه النظرية يستطيع أن يقطع بأنها لم تأتِ بجديد، إذ دفعت بأفكار بارسونز ونظرية التفاعل في هذا الإطار ولكن دون وجود للقيم المشتركة التي

أكد بارسونز على وجودها. إنهم بذلك يكونون قد أكدوا على أن ما هو اجتماعي لا يتصف بالثبات كما أكـد بارسـونز، ناهيك عن أن هذا الاجتماعي دائما ما يتكرر ويـأتي وفـق عملية خلق جديد، وهذا ما تفعله اللغة والمعـاني المشـتركة التي تعمل دوما على خلق النظام الاجتماعي[٤٢].

لقد اختزلت الاثنوميثودولوجيا وحدة الدراسة، فبـدلاً من الاستناد إلى الطبيعة الاجتماعية، فهي تركز على غيـر الاجتماعي الذي لا يتصف بالثبات، واعتبرته وحدة مرجعية وموضوعا للدراسة أنها في ذلك تكون قد أخذت موقفًا رافضا عن توجهات البحوث الاجتماعية التي تهتم بدراسة الكليـات أو الإنسان، أو حتى التركيز على سلوكيات الأفراد وطـرق اندماجهم وتراتبهم، أو قل إنهم أهملوا ما هو اجتماعي الـذي يعد نتيجة أساسية للتفاعلات بين الفاعلين الاجتماعيين.

(٦) التفاعلية الرمزية وفهم الذات:

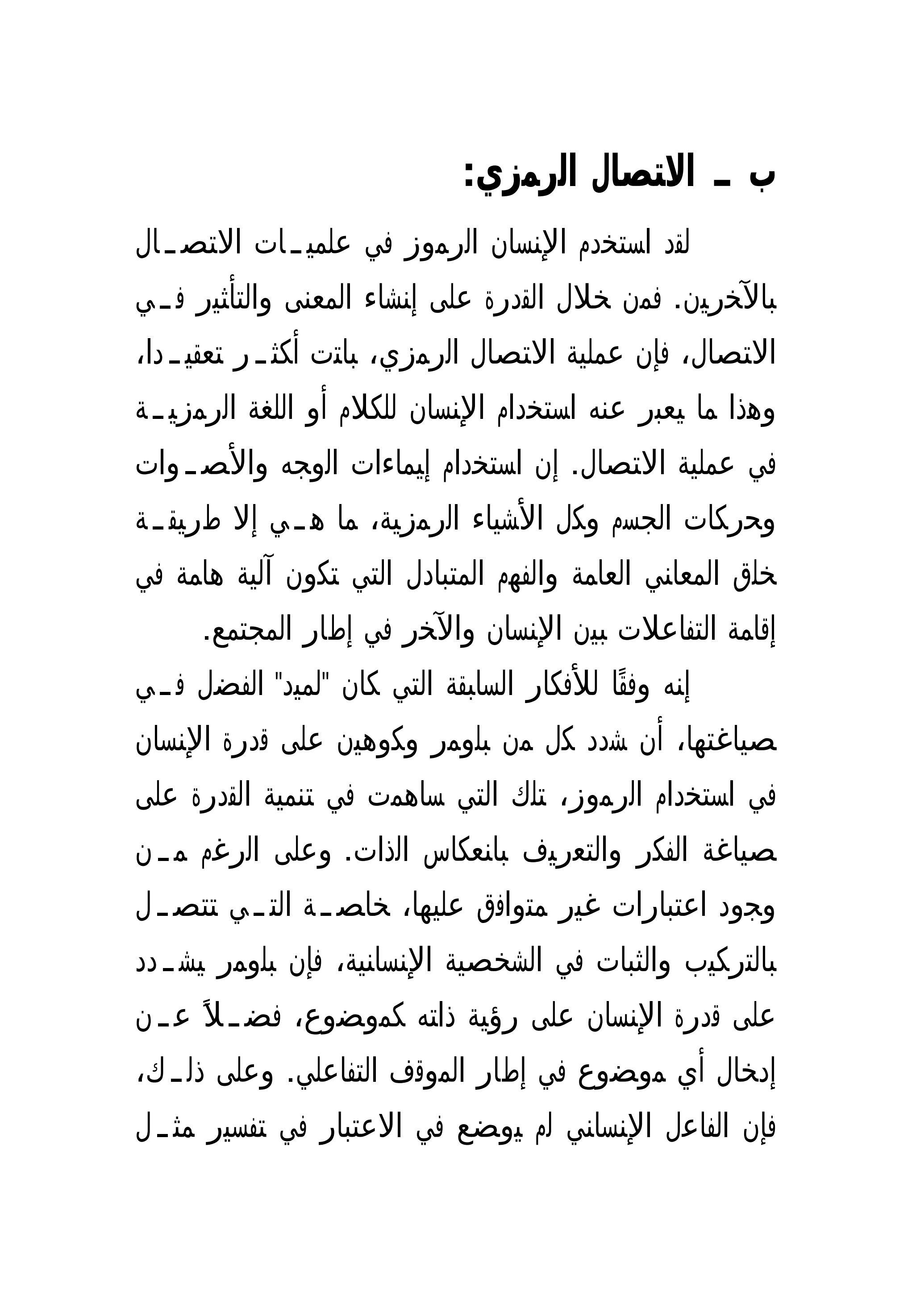
قامت نظريات التفاعلية برمتها على الأفكـار التـي أمدنا بها جورج ميد. إن دليلنا على ذلك يأتي مـن وجـود كوكبة من المفكرين المعاصرين الذين استفادوا مـن أفكـار


ميد، وإذا كان ذلك كذلك، فإن الأفكار التي جاءت حول التفاعلية جاءت على نحو متناقض. إن الدليل الواضح على التناقض الذي حدث في أفكار هذه النظرية، يتضح بشكل جلي من خلال الجدل الذي دار رحاه بين مدرستي إيوا وشيكاغو حول التفاعلية الرمزية. إن هذا التناقض يتمثل في هجر هاتين المدرستين لبعض أفكار ميد، تلك التي رأت أنها غير ملائمة لدراسة الواقع الاجتماعي. لقد رأت مدرسة "إيوا" أن ميد نهل من مفهومات ورؤى علم النفس الاجتماعي، وأن هذه المفهومات والرؤى قد تم تكفينها منذ زمن بعيد ولا تفيد في دراسة الواقع الحياتي. أما شيكاغو والتي برز من خلالها بلومر، فإنها هي الأخرى تناقضت بصورة رئيسية مع أفكار ميد، وأضافت وعدلت كثيرا من أفكارها. وإذا كان بلومر يعبر عن أفكار مدرسة شيكاغو، فإن ممفورد كوهي يمثل أفكار مدرسة إيوا التي افترقت هي الأخرى عن أفكار ميد، خاصة في استخدامه للمقاييس الكمية لأفكار التفاعلية، وإذا كان أيضا مدرستا إيوا وشيكاغو قد افترقا عن أصول أفكار التفاعلية الرمزية التي ابتدعها ميد، فإن ثمة نقاط اتفاق بينهما، ولكن قبل التعرض لذلك دعنا نراجع التراث العام

والافتراضات التي قدمها ميـد حـول التفاعليـة الرمزيـة واستخداماتها التي تعبر عن جوهر الرؤى النظرية للتفاعليـة الرمزية[٤٣].

أ ـ الإنسان كرمز:

تستخدم التفاعلية الرمزيـة المكـان بشـكل مركـز للإشارة إلى كفاءة الإنسان في خلق واستخدام الرموز إنها في ذلك تصنع فرقًا واسعا بين الإنسان والحيوان. إن الإنسان له قدرات غير محددة عن الحيوان في صياغة الرموز وإقامـة عملية الاتصال. إن الإنسان له قدرة فائقة في خلق الرمـوز في العالم المعاش، تلك التي تفوق عملية خلق الموضـوعات والأفكار، وذلك من خلال خبرته، وإنه بدون القـدرة علـى خلق الرموز واستخدامها في المسـائل الإنسـانية، ونمـاذج التنظيم بين الإنسان، لا يسـتطيع أن يخلـق عمليـة البقـاء أو التغير. فالإنسان أصبح أكثر قدرة في التحرر من الغريزة والبيولوجيا، الأمر الذي سـاعده علـى اسـتخدام الرمـوز والتكيف والبقاء في العالم المعاش[٤٤].



ب ـ الاتصال الرمزي:

لقد استخدم الإنسان الرموز في عمليات الاتصال بالآخرين. فمن خلال القدرة على إنشاء المعنى والتأثير في الاتصال، فإن عملية الاتصال الرمزي، باتت أكثر تعقيدا، وهذا ما يعبر عنه استخدام الإنسان للكلام أو اللغة الرمزية في عملية الاتصال. إن استخدام إيماءات الوجه والأصوات وحركات الجسم وكل الأشياء الرمزية، ما هي إلا طريقة خلق المعاني العامة والفهم المتبادل التي تكون آلية هامة في إقامة التفاعلات بين الإنسان والآخر في إطار المجتمع.

إنه وفقًا للأفكار السابقة التي كان "لميد" الفضل في صياغتها، أن شدد كل من بلومر وكوهين على قدرة الإنسان في استخدام الرموز، تلك التي ساهمت في تنمية القدرة على صياغة الفكر والتعريف بانعكاس الذات. وعلى الرغم من وجود اعتبارات غير متوافق عليها، خاصة التي تتصل بالتركيب والثبات في الشخصية الإنسانية، فإن بلومر يشدد على قدرة الإنسان على رؤية ذاته كموضوع، فضلاً عن إدخال أي موضوع في إطار الموقف التفاعلي. وعلى ذلك، فإن الفاعل الإنساني لم يوضع في الاعتبار في تفسير مثل

هذه الأشياء، وإنما بدلاً منه يعتبر النشاط هو الـذي يخلـق العالم من خلال الاستجابات وحسب. إن التفاعـل وظهـور أنماط التنظيم الاجتماعي يمكن فهمها من خلال التركيز على قدرة الأفراد في خلق رموز العالم الموضوعي التي تكون لها استجابة واضحة في عمليات التفاعل، برغم وجود مجموعـة الاحتمالات العفوية وعدم الغموض في السـلوك الإنسـاني. وإذا كان الإنسان يستحضر الموضـوعات فـي المواقـف المختلفة، فإن المواقف هنا، تتوقف على السلوك والذات، التي تكون قاسما مشتركًا في كثير من الموضـوعات، وتتبـدى بوضوح في المواقف المختلفة، لـيس فقـط علـى صـعيد الموضوعات الآتية، وإنما أيضا على صعيد الموضـوعات المستقبلية.

وبشكل مختلف يشدد كوهين على أهمية الأفراد فـي تعريف جوهر الذات، إذ يـرى أنـه مـن خـلال التنشـئة الاجتماعية، يستطيع الإنسـان تكـوين مجموعـة المعـاني والاتجاهات، ليس فقط تجاه الآخرين، وإنمـا أيضـا تجـاه ذواتهم. إن جوهر الذات سوف يتشكل من خلال الآليات التي يستخدمها الأفراد لتعريف المواقف من خلال الظروف التـي

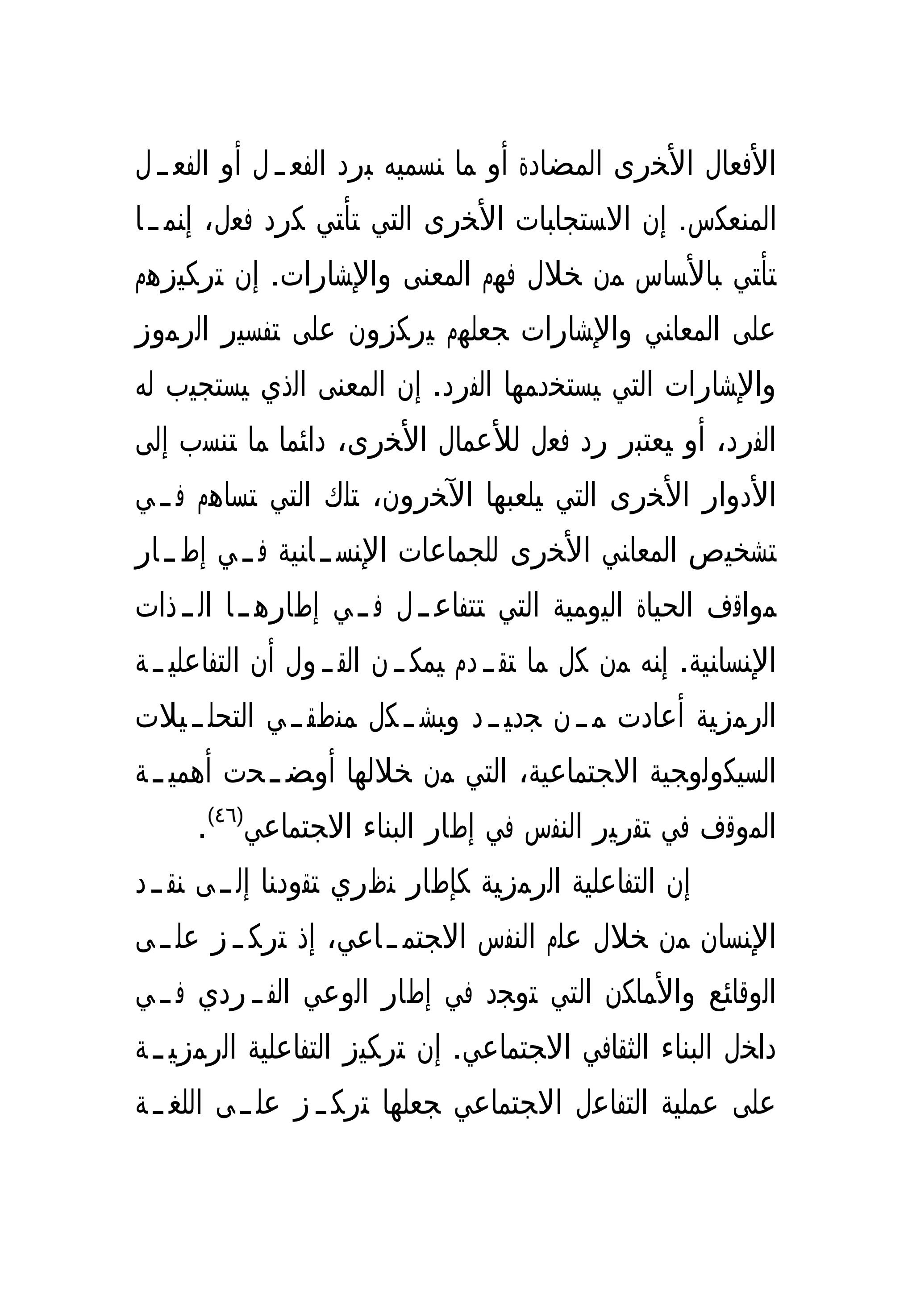
تبدو لهم، فضلاً عن الموضوعات التي يرتبطون بهـا فـي إطار المواقف الاجتماعية، وعلى الرغم من ذلك كلـه فـإن كوهين يرى أن الشخصية ليست واحدة على طول الخط، إذ تحظى باختلاف نسبي بـين الأفـراد، فـالأفراد يصـدرون تفاعلاتهم، ويمارسون تنبؤاتهم وتوقعـاتهم وإذا كـان مـن الممكن أن نعرف التوقعات التي تصدرها هـذه الجماعـات، فإنها بمعنى محدد هي التي تشكل جـوهر الـذات، وتمـدنا بأساس صادق من خلال التنبؤ بأنماط السلوك(٤٥).

ج ـ طبيعة التفاعل:

يجدر أن نشير إلى أن كلا من بلومر وكوهين ركزا على عملية لعب الدور الذي يفعله الإنسان في إطار عمليـة التفاعل، إذ فسرا هذه العملية في ضوء الإيماءات. إنه يمكن تفسير التفاعل في ضوء تفسير الإيماءات. فالفاعل يسـتطيع أن يتدرب على مختلف النشاطات التي يمارسها الإنسان ومن ثم يصدرها بشكل دائم في سلوكه الذي يتمظهر بوضوح في علميات التعاون والنشاط المنظم، إنه وفقًا لذلك فـإن بلـومر وكوهين لم يوافقا على درجة التفاعل والنشاط الذي يمارسـه

الفاعل، بقدر ما ركزا على عمليات التفاعل الإنسـاني التـي تحدث في إطار العلاقـات الاجتماعيـة. إن ذلـك جعلهمـا يفضلان مسألة عوائد أو مخرجات التفاعل. زد على ذلك أن بلومر وكوهين، كانا أكثر التفاعليين اللذين مالا إلى التشـديد على العمليات الصغرى بين الأفراد في إطـار الجماعـات الصغيرة. وحيث إن "بلومر" قد ركز على ما أشرنا إليه قبل قليل، فإن بلومر هو الآخر قد دافع عن البنيات الثابتـة فـي تكوين التنظيمات. وفي الوقت الذي يركز فيه كوهين علـى جوانب البناء في المواقف الاجتماعية المختلفة، فإن بلومر قد ناقش هذه الفكرة من خلال تركيزه على البنـاء الاجتمـاعي باعتباره أحد الموضوعات التي تستخدم في تعريف الموقـف الاجتماعي.

وأحرى بنا أن نشير في هذا الصدد إلى أنه إذا كانت التفاعلية الرمزية تضع نصب أعينها السلوك الإنساني، فإنها تركز عليه في إطار الحياة اليوميـة. إن دراسـة السـلوك الإنساني في إطار الحياة اليومية لم يأتِ من فراغ كما سـبق أن أشرنا، إلا أنهم يميزون بين خصائص التفاعل، ويأخذون من المكان والوجود الإنساني كأسـاس للتفسـير وتعريـف



الأفعال الأخرى المضادة أو ما نسميه برد الفعل أو الفعل المنعكس. إن الاستجابات الأخرى التي تأتي كرد فعل، إنما تأتي بالأساس من خلال فهم المعنى والإشارات. إن تركيزهم على المعاني والإشارات جعلهم يركزون على تفسير الرموز والإشارات التي يستخدمها الفرد. إن المعنى الذي يستجيب له الفرد، أو يعتبر رد فعل للأعمال الأخرى، دائما ما تنسب إلى الأدوار الأخرى التي يلعبها الآخرون، تلك التي تساهم في تشخيص المعاني الأخرى للجماعات الإنسانية في إطار مواقف الحياة اليومية التي تتفاعل في إطارها الذات الإنسانية. إنه من كل ما تقدم يمكن القول أن التفاعلية الرمزية أعادت من جديد وبشكل منطقي التحليلات السيكولوجية الاجتماعية، التي من خلالها أوضحت أهمية الموقف في تقرير النفس في إطار البناء الاجتماعي[٤٦].

إن التفاعلية الرمزية كإطار نظري تقودنا إلى نقد الإنسان من خلال علم النفس الاجتماعي، إذ تركز على الوقائع والأماكن التي توجد في إطار الوعي الفردي في داخل البناء الثقافي الاجتماعي. إن تركيز التفاعلية الرمزية على عملية التفاعل الاجتماعي جعلها تركز على اللغة

والظواهر المعرفية والمعلومات التي تدور حول ما يسـمى بالنفس الخفية Covert self التي تحول السلوك إلى وجـود ملاحظ[٤٧].

وعلى الرغم من أن التفاعلية الرمزية تعد من أقـدم المدارس النظرية التي اهتمت بدراسة التفاعلات الاجتماعية اليومية، إلا أنها تتسم بـالغموض المتعمـد، ناهيـك عـن استخدامها لأشكال متعددة. وبغض النظر عن هذا الغمـوض أو ذلك التعدد، فإن النظرية الراهنة في مجملها تعتمد علـى التجريب في كل بحوثها، ولكن لا يعني ذلـك أنهـا خاليـة الوفاض من أي توجه نظري. إن العكس هو الصحيح، ففـي الوقت الذي لا تجافي مقولة بارسونز الرئيسة حـول وحـدة الفعل، في الوقت عينه تقوم على كوكبة من المسلمات حـول الفاعل الذي يختار الآليات المناسبة التي تعينه على تحقيـق أهدافه سواء كانت مادية أو اجتماعية أو ثقافية، تلك الأفعـال التي تتبادل وتأخذ دوما صيغة الثبات.

وإذا كانت البارسونزية تركز علـى عمليـة تبـادل الأفعال وتشكل الأدوار، وعلى الأدوار التي تتحقق في داخل الإنسان، وكذا على سلوك الأفراد، بما يعني أنها لا تنفصـل



بين الفعل والبنية باعتبارهما يقدمان تفسيرا سببيا عاما، فإن التفاعلية الرمزية لا تستند على ذلك وتتعاكس معه، إذ تركز على الفعل الاجتماعي وحسب دون النظر إلى الأنساق الاجتماعية، إنها في ذلك تتساوق مع نظرية الاختيار العقلاني، إذ لا تهتم بالفعل، ولكن تهتم بالسلوك في إطار وحدة الفعل الصغرى.

وفي هذا الإطار يمكن أن نوجز أهم فرضيات التفاعلية الرمزية في البنود الثلاثة التالية:

١- إن البشر في تصرفاتهم يتجهون وفق ما تعنيه الأشياء بالنسبة لهم.

٢- إن التفاعل الاجتماعي في المجتمع يفرز مجموعة من المعاني التي هي نتاج لها.

٣- إن مجموعة المعاني التي يفرزها التفاعل الاجتماعي يتم تعديلها وتداولها في إطار التفاعلات التي تتكيف مع الإشارات التي يتلقونها.

إننا نفهم من الفرضيات السابقة التي تستند عليها التفاعلية الرمزية، أن التفاعلات بين الأفراد من خلال اللغة

تتضمن دالا ومدلولاً، وأن الدال يشير إلى المعنى المشترك الذي يفرز عملية التفاعل بين البشر، أو الذي يفضي إلى عملية التعاون فيما بينهم، أما المدلول فهو ما يشير إلى المعاني التي تتولد من خلال التفاعل الاجتماعي والتي تشكل عالمنا الذي نحياه. إن الدال والمدلول وفقًا لتعريفهما السابق يوضحان أن الفاعل في اختياراته يسعى إلى تحقيق أهدافه من خلال مجموعة من الآليات، تلك التي تفرضها طبيعة المعايير والقيم الاجتماعية والثقافية، فضلاً عن أن هذه الاختيارات دائما ما توجه إلى إشباع الاحتياجات المتبادلة من خلال الأدوار التي تأخذ صفة الدوام والاستمرار في الحياة القائمة.

إن المطلع على الطروحات الحديثة التي أشرنا إليها على طول الفصل الحالي يتضح له إلى أي حد تعاندت مع الأطر النظرية الكلاسيكية التي حذت حذو العلوم الطبيعية والكمية، واتسمت بـرداء التحليلات الواسعة. إن هجر النظريات الحديثة للمنطلقات النظرية والمنهجية للرؤى الكلاسيكية جعلها تخاصم البعد المؤسسي الذي اتصفت به الأخيرة، الأمر الذي جعلها ترتمي في أحضان التفاعلات

اليومية، وتستند على البعد الضيق وليس الواسع في التحليل. إن الاتكاء على المستوى الميكرو وليس الماكرو جعل سوسيولوجيا الحياة اليومية تضع الأفراد نصب أعينها، ناهيك عن الاهتمام بالتفاعلات والسلوك والحيز المكاني والخطابات الرمزية ولغة الحركة، وأحرى بنا أن نسجل في ختام هذا الفصل، إننا إذا كنا ركزنا على أهم أطروحات الرؤى الجديدة التي تشكل منها المدخل الحياتي، فإننا لم نأتِ بها من باب الحشو النظري أو الترف العلمي، وإنما لكي نوضح من خلالها كيف تشكل الإطار النظري الذي نستند إليه في معالجة موضوع الدراسة الراهنة.

مراجع وإشارات الفصل الثاني:

(١) جوفاني بوسينو، نقد المعرفة في علـم الاجتمـاع، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعيـة للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٥، ص - ص ٢١ ـ ٢٣.

ويمكن الرجوع حول هذه الفكرة إلى:

ج. ب. فرانتسوف، نقد علـم الاجتمـاع البرجـوازي، ترجمة رجـاء أحمـد، مركـز الأبحـاث والدراسـات الاستراتيجية في العالم العربي، الطبعة الأولى، دمشـق، ١٩٨٨، ص - ص ١٥٨ ـ ١٧٤.

(٢) اليكس انكيليس، ما السوسيولوجيا؟: مدخل إلى العلم والمهنة، ترجمة عيسى سمعان، منشـورات وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٦، ص ٧٩.

(٣) جيوفاني بوسينو، نقد المعرفة..، مرجع سابق، ص ٣، وحول فكرة استدانة علم الاجتمـاع ومفاهيمـه ورؤاه النظرية من العلوم الأخـرى راجـع: إيـان كريب، النظرية الاجتماعية: من بارسونز إلى هابر

ماس، ترجمة محمد حسين غلوم، عـالم المعرفـة، العدد ٤٤، الكويت، ١٩٩٩، ص ٦٧.

(٤) اليكس انكيليس، ما السوسيولوجيا؟..، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٥) بوسينو، نقد المعرفة..، مرجع سابق، ص ١٣.

(٦) السيد الحسيني، الاتجاهات الفينومينولوجية الحديثـة في علم الاجتماع، تحليل نقدي، عالم الفكر، العـدد الثاني، المجلد الخـامس والعشـرون، أكتـوبر ـ ديسمبر ١٩٩٦، ص ٧٥.

(٧) In: Bohomore T. and Nissbet R., (eds), A History of Sociological analysis, Heinemann, London, ١٩٨١, pp. ٤٩٩ – ٥٠٣.

(٨) Smart B., Sociology phenomenology and Marxian Analysis, Kegan poul and Routledge, London, ١٩٦٩, pp. ٩٧ – ٩٨.

(٩) يوسنو، نقد المعرفة..، مرجع سابق، ص ١٤.

(١٠) المرجع نفسه، ص ١٥.

(١١) شحاته صيام، "خيانة النظرية في بحوث الخدمـة الاجتماعية"، مقدمة الترجمة العربية لكتـاب علـم

الاجتماع الخدمة الاجتماعية، مصر العربية للنشـر والتوزيع الطبعة الأولـى القـاهرة، ١٩٩٩، ص - ص ٧ ـ ١٠.

(١٢) بيار أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة نخله فريفر، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، المغرب، ١٩٩٢، ص - ص ١١ ـ ١٤. ويمكـن الرجـوع أيضـا إلـى: أيـان كريـب، النظريـة الاجتماعية،...، مرجع سـابق، ص - ص ١٠٩ ـ ١٢٦.

(١٣) بيار أنصار، العلوم الاجتماعية...، مرجع سـابق، ص - ص ١٤ ـ ١٦.

(١٤) Review, February ١٩٨٣, pp. ١ – ٩.

(١٥) Goffman E., Exploring the interaction order, polity press, Cambridge, ١٩٨٨, p. ٢.

(١٦) Goffman E., the presentation of self in Every day life, Anchor books, New york, ١٩٥٩, p. ٢١٢.

(١٧) Turner J., The structure of sociological theory, Belmout, California, ١٩٩١, p. ٤٤٩.

(١٨) Couins R., Theoritical sociology, Harcourt Brace Jauanovich san Diego, ١٩٨٨, pp. ٢٠٣ – ٢٠٧.

(١٩) يوليوس فاست، لغة الجسد وعلوم الحركة، ترجمة محمد حمول، دار ابن هانئ، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩١، ص - ص ٧ ـ ١٢.

(٢٠) المرجع نفسه، ص - ص ٢٥ ـ ٣٢. وحول نفس الموضوع تجد معالجة بارعة للغة الجـد وخطـاب الحركة في:

(٢١) Giddens A., Socidogy Op. Cit., pp. ٩١ – ٩٥.

(٢٢) بيان أنصار، العلوم الاجتماعية....، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٢٣) Turner J., The structure., Op. Cit., Pp. ٤٠٨ – ٩١٢.

(٢٤) بيار أنصار العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص - ص ٣١ ـ ٣٣.

(٢٥) Boudieu p., and parson J., Reproduction in Education p; society and Cutture, Sage Publications, London, ١٩٧٧, pp. ٢٠٥ – ٢١٣.

(٢٦) Cetina R ",. The Macro Sociological Challenge of Macro Sociology, in: Cetina R. And Cicourel A., (ads.), Advanced in social theory and Methedology, Routldge and Regain Poul, ١٩٨١, pp. ١ – ٥.

(٢٧) ليوتار، الوضع ما بعد الحـداثي، ترجمـة أحمـد حسان، شرقيات، الطبعة الأولى، القـاهرة، ١٩٩٤، ص - ص ٧ ـ ٩.

(٢٨) Habermas J. the theory of communication action, Becon, Boston, ١٩٨٨ pp. ٨٢ – ٨٩.

(٢٩) Giddens A., the constraction of socity, univ. of Califrniapress. Barkelly, ١٩٨٥, p. ١٠٢.

(٣٠) Habermass H., the theory of communication.., Op. cit., pp. ١٣ – ١٧.

(٣١) Giddens A., the construction…, Op. Cit., pp. ٣٧٥ – ٣٧٦.

(٣٢) Habermass j., the theory…, op. cit., p. ١٧.

(٣٣) Lukman N., the Differentiation of society, Columbia Univ. press, New York, ١٩٨٢, pp. ١٣ – ١٥.

(٣٤) Calhoun C ",. Populist politics communication Media and Large ٦, No ٢, ١٩٨٨. pp. ٢١٩ – ٢٤١.

(٣٥) Gadaner H. G., tructh and Method, Seabury, New york, ١٩٧٥, pp. ٢١٢ – ٢١٧.

(٣٦) إيان كريب، النظرية الاجتماعية، مرجـع سـابق، ص - ص ١٠٩ ـ ١١٤.

(٣٧) Friedman D., Hechter M "., The Conterbutrion of Rational Vol. ٥, No ٢, pp.l ٢٠١ – ٢٠٨.

(٣٨) Tilly C ',. Reuiew Essay: Individualism Askew ", Anerican journal of Sociology, Vol ٩٦, No. ٤, pp. ١٠٠٧ – ١٠١١.

(٣٩) Turner J., The Stracture op. Cit., p. ٣٥٢ – ٢٥٣.

(٤٠) Coeman J., Individual interests and collective action: Studies of rationality and social change, Cambridg Univ. press, New york, ١٩٨٦, p. ٩٤.

(٤١) Turner j., the structure…, Op. cit., p. ٤٧٢.

(٤٢) بيار أنصار، العلوم الاجتماعية..، مرجع سابق، ص - ص ٧٥ ـ ٨٥.

(٤٣) وأيضا:

(٤٤) إيان كريب، النظرية الاجتماعية..، مرجع سابق، ص - ص ١٤٧ ـ ١٦٤.

(٤٥) Wilson T ",. Normative and Interpretive Pradigims in Sociology, " in: Doglas J, Understanding Every day life, Routledge and Megan Poul, London, ١٩٧٠.

(٤٦) Meltzer B. N. and petras J. w ", the chicage and Twa Schools of Simbolic Interaction, in: Shibutan? T., (ed) human

Nature and Collective Behavior, Prentce Hall, ١٩٧٠.

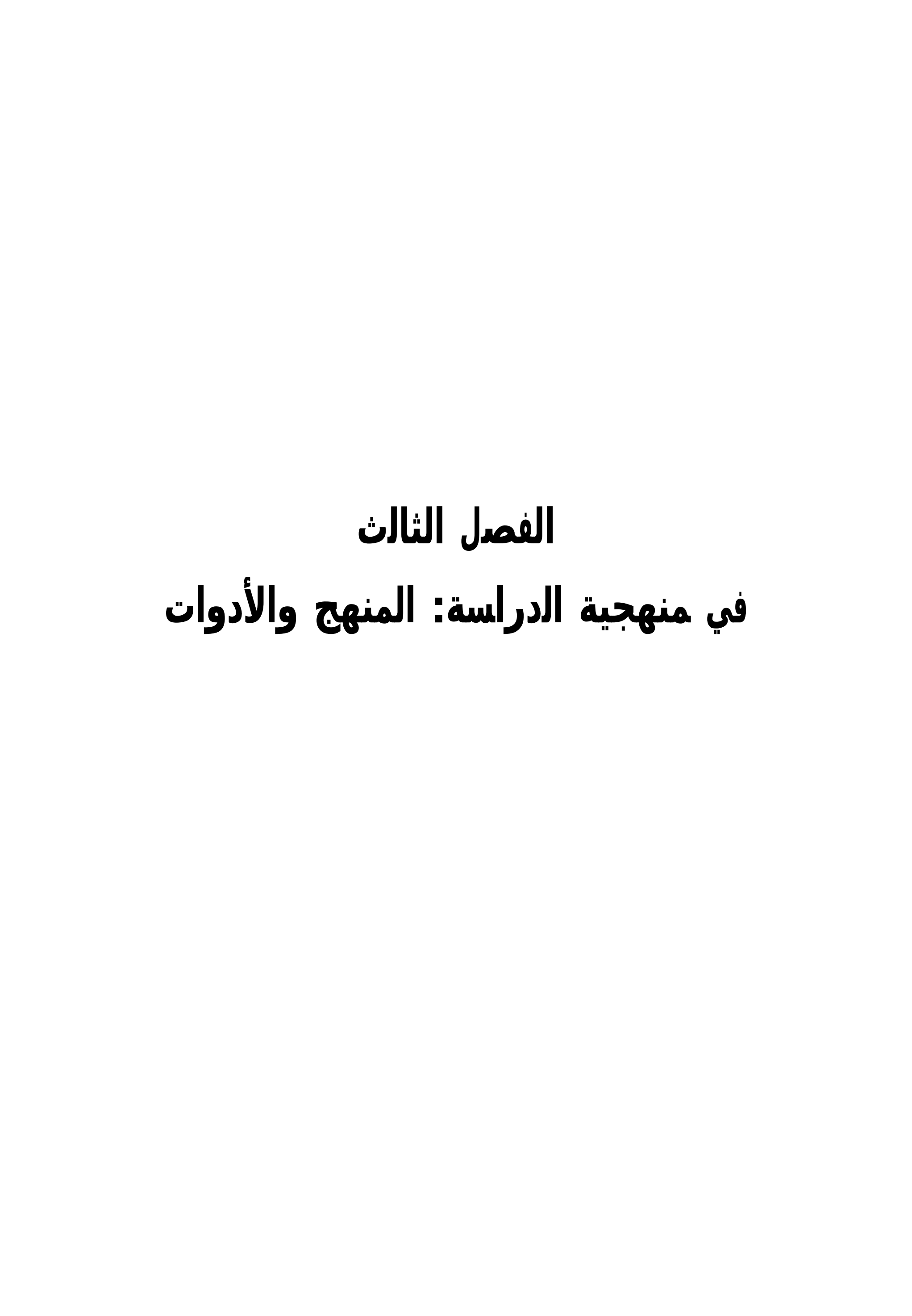
(٤٧) Turner J., The Structure, Op. Cit., P. ٣٩١.

(٤٨) Tucker Ch. W.. Some Methodological problems of Kuhn,s self theory, Sociological Quarterly, No. ١, Winter ١٩٦٦, pp. ٣٤٥ – ٣٥٨.

(٤٩) Turner J., the structure.., Op. Cit., p. ٣٩٦.

(٥٠) Social Action Theory. Sociology and social Research, Not. ٥٩, No. ٣, pp. ٢٠١ – ٢٠٨.

(٥١) إيان كريب، النظرية الاجتماعية..، مرجع سـابق، ص - ص ١٢٩ ـ ١٣٤.



الفصل الثالث

في منهجية الدراسة: المنهج والأدوات

مقدمة:

انطلاقًا من الهدف المحوري للدراسة الراهنة الـذي يسعى إلى الوقوف على أنماط التفاعل الإنساني فـي إطـار الحياة اليومية، وما ينتج عن ذلك من تصرفات فـي أتـون علاقة السيطرة والخضوع، فإن تحقيق هذا الهدف يأتي مـن خلال تحرك الباحث فـي أمـاكن العمـل غيـر النظاميـة أو المؤسسة، أي إننا سوف نهمل عن قصد الأطر المختلفـة للتفاعل الاجتماعي مثـل جماعـات الأسـرة والأصـدقاء والفصول الدراسية فضلاً عن أماكن العمل الرسمية، ووفقًـا لما سبق، فإننا سوف نحاول أن نضع أيـدينا ـ وفـق هـذا التحرك ـ على التناقض في السلوك الإنساني الذي يتم فـي المواقع الخلفية. أو بمعنى آخر،إننا سوف نسعى إلى توضيح صور التفاعل الإنساني، وما يخلفه من سلوك لـيس علـى النشاط الإنساني وحسب، وإنما أيضا ما يتم تحت الجلد، ذلك الذي يتسم بنوع من التكيف والعقلانية فـي وجـه السـلطة، وبنوع من التمرد أو الخروج خلف هذه السلطة.

وإذا كانت الأدبيات السوسـيولوجية التـي تناولـت العلاقات الاجتماعية قد حاولت قراءتها على سـطح الحيـاة

الاجتماعية وفق أطروحتها النظامية، وخاصة علـى صـعيد الجماعات الصـغيرة والبيروقراطيـات الضـخمة أو فـي المجالات الاجتماعية المختلفة، فإننا في الدراسـة الراهنـة سوف نحاول رصد هذه العلاقات الاجتماعية في واقع الحياة اليومية. ولكي نكشف عن ذلك فإننا سوف نتسـلح بالرؤيـة الجزئية Micro التي من خلالها يمكن أن نضع أيدينا علـى التصرفات العقلانية التي تجعل الفرد يتصرف بوعي زائـف في مواجهة السلطة، وبوعي حقيقي خاف ظهر هذه السلطة.

ويجدر أن نشير إلـى أن الوقـوف علـى السـلوك والتصرفات الشخصية أو الأفعال التي توجه إلى الآخرين في مواقع السلطة سواء في حضرة السـلطة أو فـي غيابهـا، لا يمكن الاهتداء إليها دون الالتزام بمجموعة القضايا التالية:

أولاً: إن النظر إلى علاقة السيطرة والخضوع تجعلنا نمعـن النظر في الواقع الحياتي المعاش من خلال أعمـال أفكار الرؤى الجزئية، تلك الرؤى التي سـوف يـتم تفعلها في إطار عملية العمل غير النظامي، التي من خلالها يمكن الكشف عن مجموعـة الآليـات التـي يتجاوز بها الخاضعون أوضاعهم، وكيف يعبـرون

علن ثوراتهم بشكل عقلاني، فضلاً عـن توضـيح آليات إعادة إنتاج ذواتهم.

ثانيا: إنه لكي نكشف عما سبق، فإننا نهتم بالجوانب المختلفة للعالم الاجتماعي للفئات الخاضعة، التي تعمل دومـا على خلق آليات التحايل ضد القهر الـذي يمـارس عليهم من خلال سلوكهم. إن ممارسات المقهـورين تفعل آليات حماية لذواتهم في مواجهة قهـر سـلطة رأس المال وحماية الدولة لها.

ثالثًا: إن الدفاع عن الذات أمام تسلط السلطة البطريركية في العالم المعاش، يجعلنا نقيم علاقة بين القيم الاجتماعية السائدة في الوقت الراهن وبين المصالح الاجتماعية للخاضعين. إن السـلوك والتصـرفات مـن قبـل الخاضعين في مواجهة السيطرة، ما هي إلا سلوكيات كاذبة وغير حقيقية، وهو ما يعبر عنها في المواقـع الأمامية، بينما تكون التصرفات في المواقع الخلفيـة هي التعبير الحقيقي عن العلاقـات بـين الخاضـع والمسيطرة.

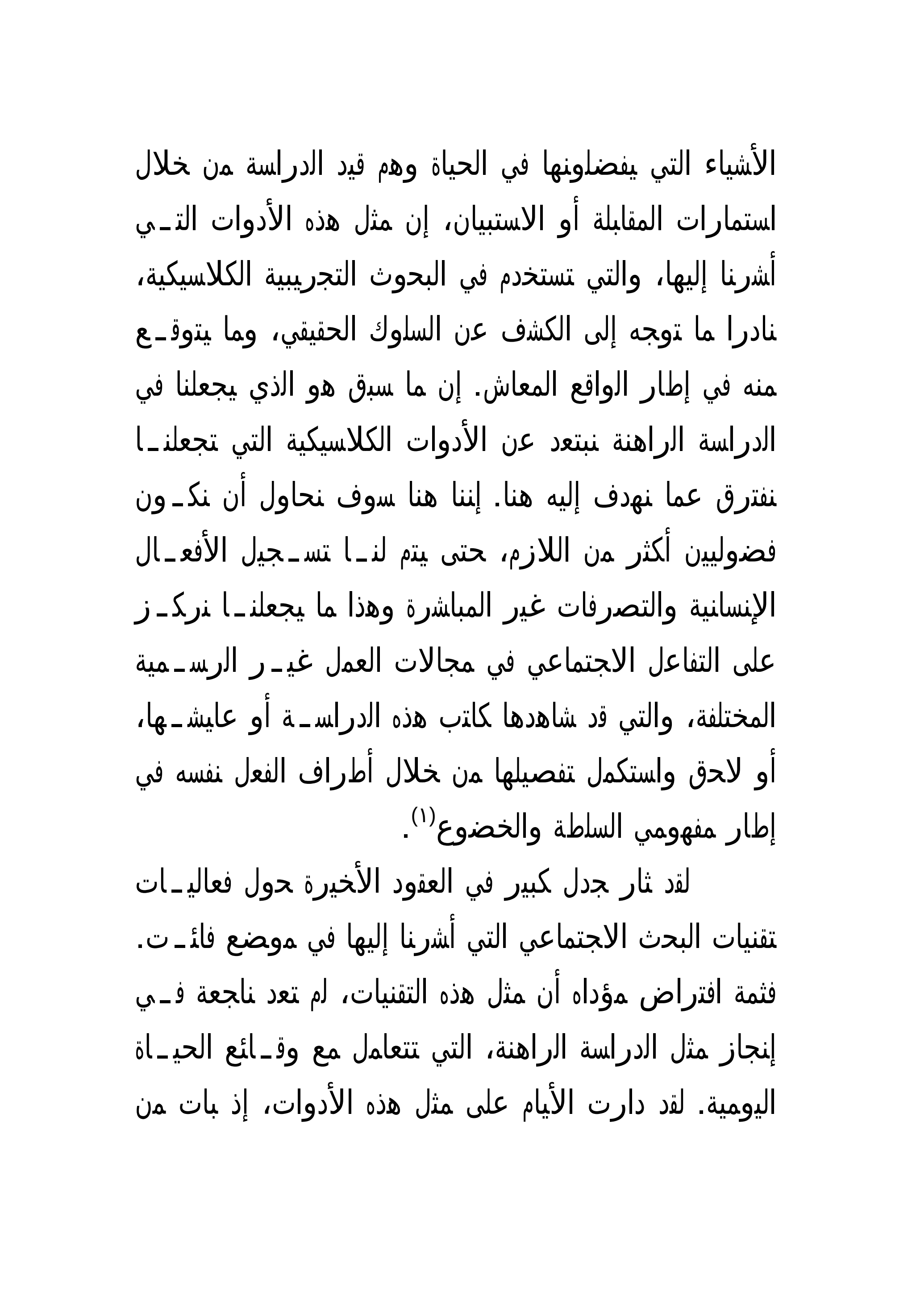
رابعـا: إن الوقوف على الدافعية للسلوك والتصرفات تحددها الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية القائمة، تلك التي تفرضها طبيعة الوجود الاجتماعي في الواقـع الحياتي المعاش.

إن المتأمل في القضايا التي طرحناهـا قبـل قليـل، يجدها تمثل التوجهات النظرية الرئيسية في العمل الـراهن، التي من خلالها سوف نحاول استجلاء ممارسـات الفـاعلين الاجتماعية (الخاضعين) المتناقضة سواء في وجـه السـلطة أو خلفها التي يمكن أن نصورها بنوع من الخيال الاجتماعي، الذي يكون في وقت نوعا من الخضوع، وفي وقـت آخـر نوعا من الثورة السلبية. إن أفعال الخاضعين تظهـر معـانٍ معينة، ولكنها ليست على طول الخط، إذ يطغى عليها الطابع العقلاني في مواقف معينة، وفي مواقف أخرى تتشح بنـوع من المقاومة السلبية.

أولاً: آليات جمع البيانات:

أخذت البحوث السوسيولوجية المتصـلة بالعلاقـات الاجتماعية أشكالاً منهجية متعددة من أجل الوصـول إلـى إجابات عن التساؤلات والافتراضات التي شكلت مسعاها في الواقع العملي. ولكن المدقق في جماع نتائج هذه الدراسـات يجدها قد ركزت نصب أعينها على الشكل النظامي وحسب، مما يعني أنها أغفلت الطرف عن التفـاعلات اليوميـة فـي الواقع المعاش، ذلك الذي يعود إلـى طبيعـة أدوات جمـع البيانات المستخدمة في مثل هذه الدراسات. لقد اتخذت هـذه الدراسات من المسوح الاجتماعية آلية منهجية للوصول إلـى أشياء محددة عن طريق عينات واسعة من الناس، الأمر الذي جعل هذه الآلية تركز وحسب على نمط الحياة والطموحـات والاتجاهات.

وإذا كانت بعض الدراسات قـد اسـتخدمت المسـح الاجتماعي، فإن أخرى قد استخدمت الملاحظـة بالمشـاركة للحصول على المعلومات المتصلة بسلوك الناس والمعـاني التي يعكسونها على تصرفاتهم، فضلاً عن التركيـز علـى



الأشياء التي يفضلونها في الحياة وهم قيد الدراسة من خلال استمارات المقابلة أو الاستبيان، إن مثل هذه الأدوات التـي أشرنا إليها، والتي تستخدم في البحوث التجريبية الكلاسيكية، نادرا ما توجه إلى الكشف عن السلوك الحقيقي، وما يتوقـع منه في إطار الواقع المعاش. إن ما سبق هو الذي يجعلنا في الدراسة الراهنة نبتعد عن الأدوات الكلاسيكية التي تجعلنـا نفترق عما نهدف إليه هنا. إننا هنا سوف نحاول أن نكـون فضوليين أكثر من اللازم، حتى يتم لنـا تسـجيل الأفعـال الإنسانية والتصرفات غير المباشرة وهذا ما يجعلنـا نركـز على التفاعل الاجتماعي في مجالات العمل غيـر الرسـمية المختلفة، والتي قد شاهدها كاتب هذه الدراسـة أو عايشـها، أو لاحق واستكمل تفصيلها من خلال أطراف الفعل نفسه في إطار مفهومي السلطة والخضوع[١].

لقد ثار جدل كبير في العقود الأخيرة حول فعاليـات تقنيات البحث الاجتماعي التي أشرنا إليها في موضع فائـت. فثمة افتراض مؤداه أن مثل هذه التقنيات، لم تعد ناجعة فـي إنجاز مثل الدراسة الراهنة، التي تتعامل مع وقـائع الحيـاة اليومية. لقد دارت الأيام على مثل هذه الأدوات، إذ بات من

الأهمية بمكان الاستناد على أخرى بإمكانها أن تقـف علـى تفاصيل التفاعلات اليومية بين الفاعلين الاجتمـاعيين، ومـا ينتج عنها من سلوك أو تصرفات.

إنه وفقًا لما سبق، فإننا في هذا الفصل نعمـد إلـى طرح أداة جديدة اسـتخدمها مـن قبـل أصـحاب الاتجـاه الأثنوميثودلوجي والمنهجية الاجتماعية، تلك التي يطلق عليها بتحليل المحادثة Conversation Analysis [٢]. ولكن يثور تساؤل في هذا الصدد مفاده: لمـاذا تحليـل المحادثـة؟ إن الإجابة عن هذا التسـاؤل، يجعلنـا نعـود إلـى أساسـيات أو أصول الاتجاه الاثنوميثودولوجي، ذلك الاتجاه الذي يتباين عن الاتجاهات النظرية الكبيرة سواء في توجهاتها النظرية، أو حتى في استخدام أدوات جمع البيانات، والابتعـاد عـن التكمـيم. إن الاتجاهـات الصـغرى أو الضـيقة Micro باعتبارها تهتم بتأويل ما يحدث بين الفاعلين، فـإن الكـلام أو المحادثات تدخل في إطار اهتمامهـا، باعتبارهـا مـادة أو موضوعا للتحليل. إن الاهتمام المحوري هنـا لا يكـون بالمقابلة في حد ذاتها، وإنما ما يحـدث فـي المقابلـة بـين أطرافها، وما تكشف عنه من وقائع تفيد في الكشـف عـن

الموضوع قيد البحث، خاصة فيما يتصل بما يسمى بالتغذيـة المرتدة للمبحوث Consumer Feedback، الذي يمكن من خلالها أن نصف النشاط أو السلوك باعتباره خطابا(٣).

ولما كانت المقابلة من الأدوات الملائمـة لحـدوث تفاعل بين الباحث والمبحوث، حيث التفاعل فيها لفظيا، فـإن الحديث أو الحوار يكون هو الشكل الرئيسي للتفاعـل وهـو العنصر الذي نركز عليه، وبيد أن الباحث من خـلال هـذه الأداة يحاول الوقوف على المواقف وما يتصل بها من وقائع، فإنه يتوجب علينا أن نشير إلى أن دراسة الحـوار تتطلـب أمرين، الأول هو جمع البيانات، والآخر هو تأويل وتفسـير هذه البيانات. وحرى بنا أن نذكر في هذا الإطار أن أشرطة الكاسيت والفيديو تعد من الأدوات الشائعة التي تستخدم فـي حالات تحليل الحوار، باعتبار أن الحـديث المسـجل يعـد مصدرا للمعلومات، والتعميمات في إطار التفاعلات اليوميـة والممارسات، إذ من خلاله يمكن الوقوف على التفاعل بـين المتحدثين وما يحويه من محتوى معين من الجمل وتأويلاتها لإشكاليات الحياة اليومية.

وإذا كان أصحاب الاتجـاه الاثنوميثودولـوجي قـد وضعوا بناء Structure لتفعيل المدخل التحليلي للمحادثـة Conversation Approach، الذي يستند إلى تسجيل هـذه المقابلات من خلال الأجهزة السمعية المرئية، فإنه من خلال هذه الأجهزة استطاعوا أن يسجلوا ليس فقط ما يحـدث مـن تفاعلات عن طريق الكلام ورد الفعل له، وإنما اسـتطاعوا أيضا أن يهتموا بارتفاع أو انخفاض الصـوت، أو وقفـات الحديث، وعمليات الربط أو الفصل بين الكـلام، أو التتـابع المنطقي في موضوع المقابلة، أو بدايات ونهايات الحـديث، أو تعبيرات الوجه والإيماءات. وحيث إنه قد تعذر تسـجيل المقابلات مع المبحوثين في الدراسة الراهنـة، فقـد اكتفينـا بتسجيل هذه المقابلات - كتابيا حيـث اعتبرنـا أن تحليـل الحادثة ما هي إلا خطابا Discourse نسعى من خلالـه أن نؤول الأفعال وفقًا لتفسير المبحوثين لها، ذلك الذي أدخل هذه الدراسة في إطار الدراسات الوصفية التي تسعى من خـلال أفعال وتصرفات وسلوك الفاعلين أن تقف على كـل أبعـاد العلاقة بين الخاضعين والمسيطرين.(•)

• اكتفى البحث بكتابة ما دار في المقابلات نظرا لتخوف بعض المبحوثين

ثانيا: المنهج وخصائص عينة الدراسة:

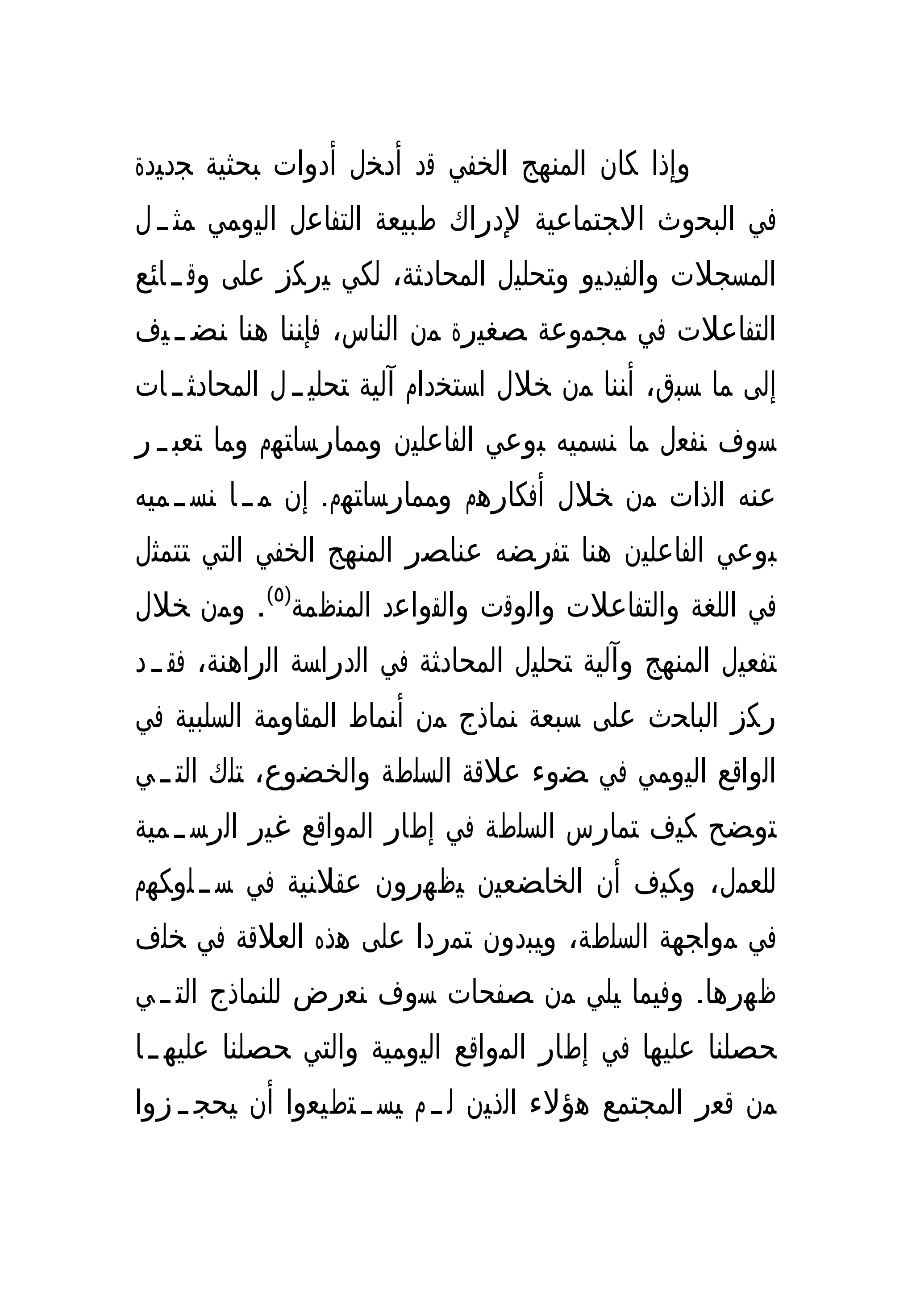
وعلى هدي ما ذكرناه قبل قليل، فإننا في هذا الجزء نعاود التأكيد مرة أخرى، على أن هذه الدراسة تهتم بالأساس بدراسة السلوك اليومي في مواقف التفاعل والمواجهة من خلال ما يسمى بعلم الاجتماع الجزئي (علاقة الجزء بالكل)، وذلك انطلاقًا من فهم الخلفية التأسيسية للحياة اليومية، إن انطلاقنا هنا من فهم الواقع الفعلي للتفاعلات اليومية يجعلنا نقف بصورة أساسية على الأبعاد المختلفة للعلاقات الاجتماعية، تلك التي تجعلنا واعين ليس بما يتم على السطح، ولكن أيضا بما يتم تحت الجلد.

ولما كان الوضع الذي يشغله الفرد في بناء السلطة يعد مصدرا لتشكيل مجموعة من القيم والسلوكيات المتباينة، ويعبر بالضرورة عن ثقافة خاصة، فإننا وفق توجهات الدراسة، سوف نسعى إلى الكشف عن معايير السلوك التي من خلالها يتم تنميط الخصائص والسمات والتصرفات التي تلائم العمل في المواقع غير الرسمية في إطار الحياة اليومية

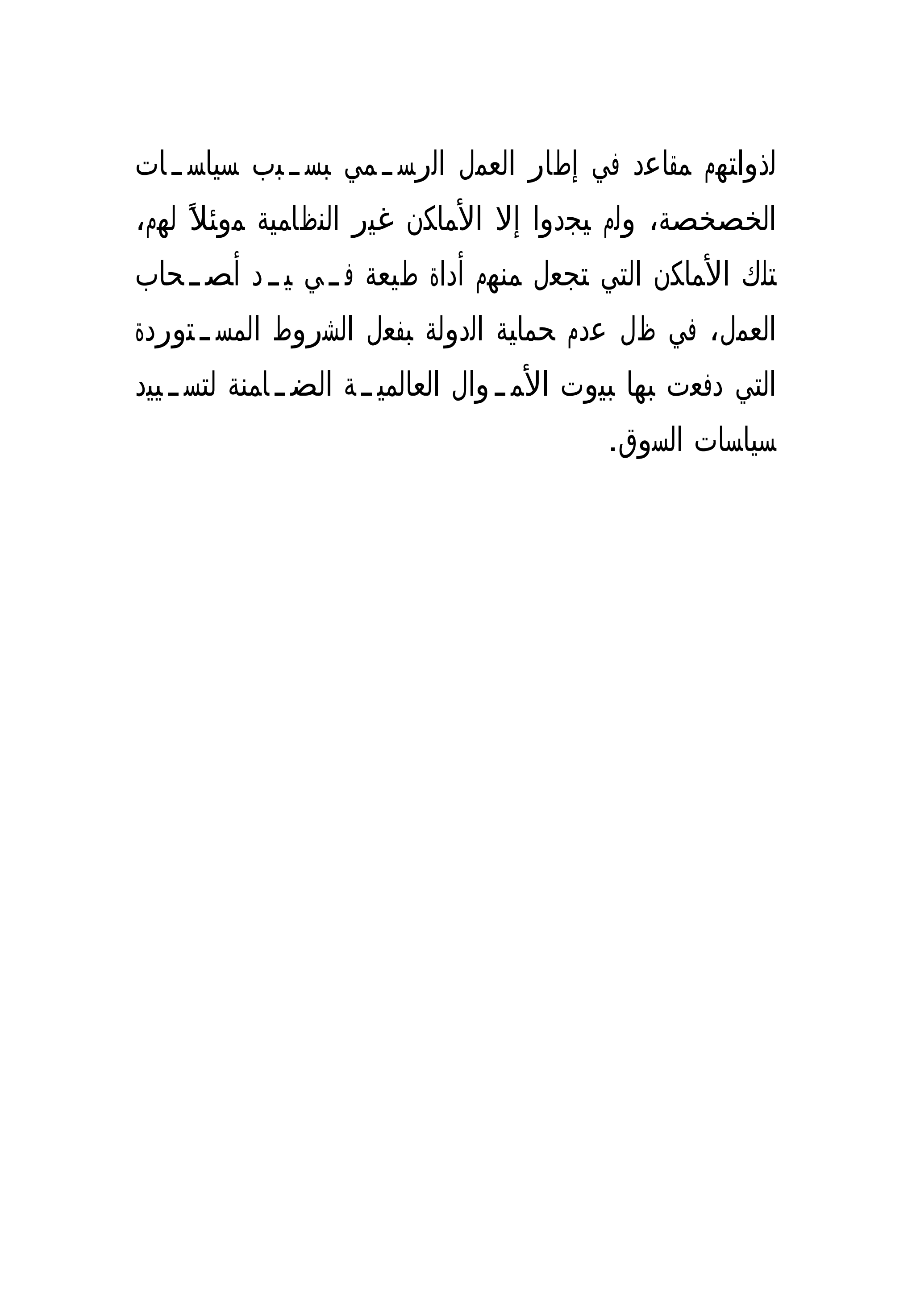
من التسجيل المرئي والصوتي، لذا فقد غاب الدور المتصل بتعبيرات الوجه والإيماءات والإشارات.

في زمن تجنيس المنهج الرأسمالي. وفي إطار هذا المسعى، فإن دراسة ما يجري في المواقع غيـر الرسـمية للعمـل، وعلاقة ذلك بالخضوع والسيطرة، فإن المنهج الخفي يفرض ذاته لكي يحلل أنماط التحايل والمقاومة السلبية، أو ما نسميه بثقافة المقاومة في مواجهة السلطة أو خلفها التي تنتج عـن هذه العلاقة في مواقع العمل غير الرسمية.

إن الوقوف على ثقافة المقاومة لدى الفئات الخاضعة تفر من المدخل الحياتي الذي يتقاسمه تقنيات وأدوات البحث الانثروبولوجي التي تتطلب نوعا من التعايش مع الفـاعلين الاجتماعيين في الحياة اليومية، ذلك الذي يفرض تحليل وفهم وتأويل التفاعلات اليومية، عن الالتجاء إلى المدخل الحيـاتي كنقطة انطلاق منهجية تجعل مـن الأداة الرئيسـة للبحـث الراهن هي قدرة الباحث على الاتصال بالآخرين لفهم وتأويل ما يدور فـي عقـل وفهـم المقاصـد والمعـاني للأفعـال الاجتماعية، أو بمعنى آخر، إننا نبحث عما يوجه الأنا نحـو الآخر، باعتبار أن ذلك ما هو إلا في التحليل الأخير هو فعل اجتماعي بالأحرى(٤).



وإذا كان المنهج الخفي قد أدخل أدوات بحثية جديدة في البحوث الاجتماعية لإدراك طبيعة التفاعل اليومي مثل المسجلات والفيديو وتحليل المحادثة، لكي يركز على وقائع التفاعلات في مجموعة صغيرة من الناس، فإننا هنا نضيف إلى ما سبق، أننا من خلال استخدام آلية تحليل المحادثات سوف نفعل ما نسميه بوعي الفاعلين وممارساتهم وما تعبر عنه الذات من خلال أفكارهم وممارساتهم. إن ما نسميه بوعي الفاعلين هنا تفرضه عناصر المنهج الخفي التي تتمثل في اللغة والتفاعلات والوقت والقواعد المنظمة(5). ومن خلال تفعيل المنهج وآلية تحليل المحادثة في الدراسة الراهنة، فقد ركز الباحث على سبعة نماذج من أنماط المقاومة السلبية في الواقع اليومي في ضوء علاقة السلطة والخضوع، تلك التي توضح كيف تمارس السلطة في إطار المواقع غير الرسمية للعمل، وكيف أن الخاضعين يظهرون عقلانية في سلوكهم في مواجهة السلطة، ويبدون تمردا على هذه العلاقة في خلف ظهرها. وفيما يلي من صفحات سوف نعرض للنماذج التي حصلنا عليها في إطار المواقع اليومية والتي حصلنا عليها من قعر المجتمع هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يحجزوا



لذواتهم مقاعد في إطار العمل الرسمي بسبب سياسات الخصخصة، ولم يجدوا إلا الأماكن غير النظامية موئلاً لهم، تلك الأماكن التي تجعل منهم أداة طيعة في يد أصحاب العمل، في ظل عدم حماية الدولة بفعل الشروط المستوردة التي دفعت بها بيوت الأموال العالمية الضامنة لتسييد سياسات السوق.

مراجع الفصل الثالث:

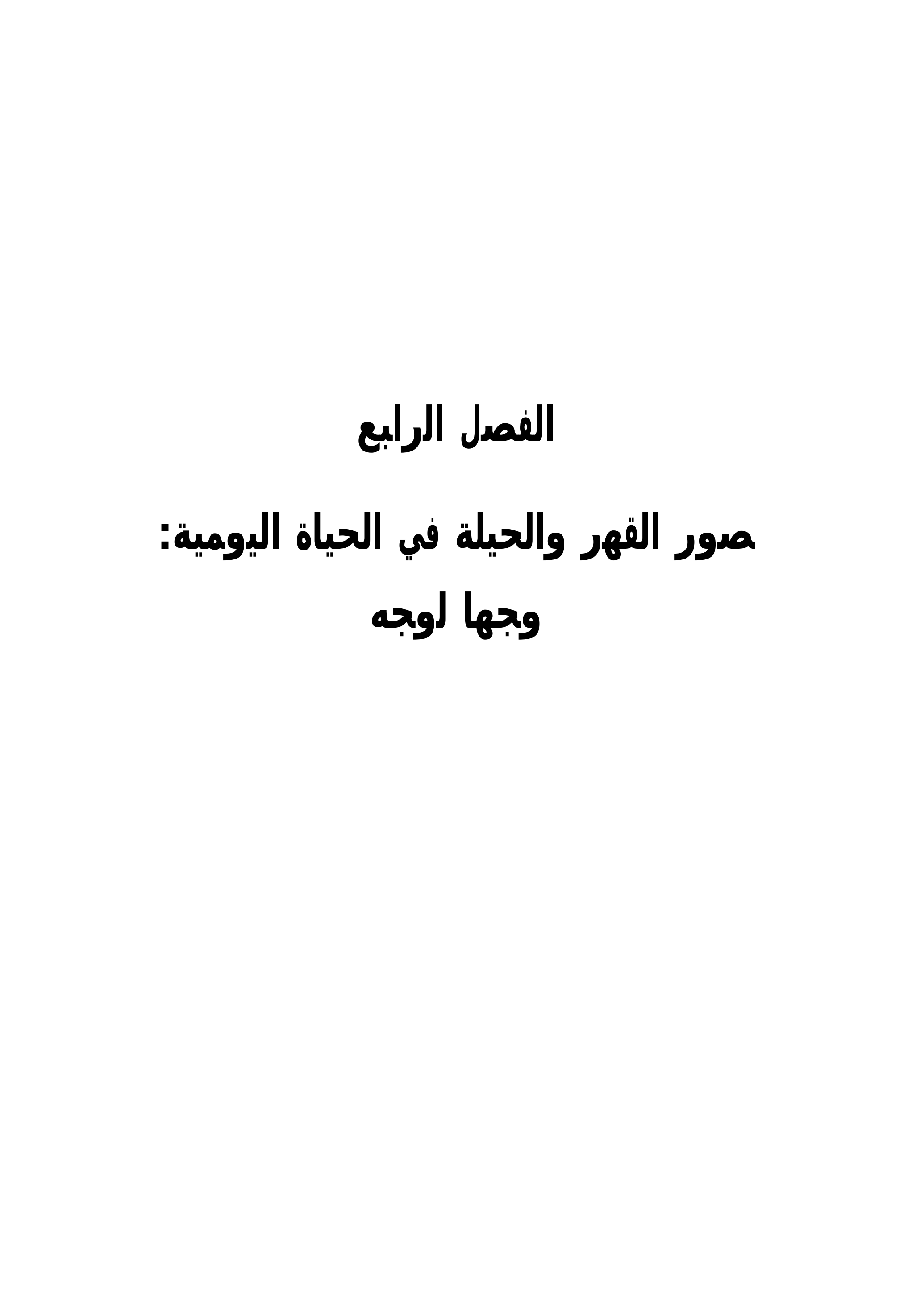
(١) Clark c. and Robboy H., Social Interaction, Readings in Sociology, St. Martins,s press New York, ١٩٨٨, p. ٦ – ٩.

(٢) Davis M., Sociology of Social Work, Op. Cit. pp. ١٢٧ – ١٢٩.

(٣) Ibid., p. ١٣٠.

(٤) Hell H. and Eisenstadts., (eds.), Micro Sociological, Vol. ٢, Sage, California, ١٩٨٥, pp. ٩ – ١٢.

(٥) Ibid., p. ١٨.



الفصل الرابع

صور القهر والحيلة في الحياة اليومية: وجها لوجه

مقدمة:

ينطلق الفصل الراهن من هـدف محـوري مـؤداه تصوير أنماط التفاعل اليومي بين المسيطرين والخاضـعين، وكيف يتناقض سلوك الخاضعين، تارة بالخضـوع، وتـارة بالتمرد. إن تحايل الخاضعين في وجه سـطوة المسـيطرين لبقائهم الجسدي في ظل وجود قوانين السوق، ورفع يد الدولة عن وظائفها، خاصة في إطار عملية التشغيل، يتبـاين عمـا يسجله سلوك هؤلاء في خلف ظهور السلطة، ذلك الذي يرسم صورة الخروج على السلطة. إن الأداء التمثيلي الذي يؤديه الخاضعون سواء في حضرة السلطة أو غيابها، يعبر بقـول سوسيولوجي عن أداء محافظ في وقت، وفي وقت آخر يعبر عن أداء ثوري ولكن بشكل سلبي.

إن قـراءة وتأويـل العلاقـة بـين المسـيطرين والخاضعين، ما هي إلا محاولة لفهـم سياسـات المقاومـة والتسلط التي يمارسها كل من الخاضعين والمسيطرين، التي فرضت ما يسمى بالعبودية الطوعية وأشكال المقاومة السلبية من قبل الخاضعين، تلك التي تتوضح بجلاء من خـلال مـا

نطلق عليه بالسياسات التحتية التي تعبر عنها العبارات والألفاظ والأفعال والسلوكيات.

وإزاء ما سبق، فإننا حاولنا أن نطرق الحيز الاجتماعي للخاضعين، الذي تحدد في إطار عالم الحياة اليومية، ذلك الذي تعتبره نوعا من الخطاب، يكشف عن الخفي والظاهر، أو ما يسميه بالجواني أو البراني في ضوء طبيعة التكوين الاجتماعي الاقتصادي المصري. إنه وفق ما سبق تجدنا نعرض لسبع حالات أساسية، حاولنا من خلالها الاقتراب من الواقع اليومي للوجود الاجتماعي للخاضعين، الذي نستبين من خلاله طبيعة ممارساتهم وتصرفاتهم سواء في حضرة السلطة أو غيابها.

الحالة الأولى: الخاضع الثائر:

يعمل "ش" سائقًا لدى أسرة ميسورة يعمل ربها في مجال المال والتجارة، وتتكون هذه الأسرة من زوجة وولد وبنت. الزوجة حاصلة على بكالوريوس التجارة ولا تعمل. والولد في الثانوية العامة، والبنت في إحدى الكليات بالجامعة الأمريكية. و" ش" هو خريج إحدى المدارس الثانوية

الصناعية منذ خمس سنوات، وحيث إنه لم يتحصـل علـى عمل في أية وظيفة حكومية أو غير حكومية، فلم يجد أمامه سوى أن يعمل سائقًا لدى هذه الأسـرة، علـى أن يتقاضـى مرتبا قدرة ثلاثمائة جنيه.

"أنا باشتغل سواق عند (...) بيـه، اللـي هـوه معروف في (...)، وأشهر من نار على علم.. أنـا عندي شهادة.. يعني مش سواق وبس.. أنا معايـا دبلوم صنايع.. بس أعمل إيه مش لاقي شغل كويس يقدر يخليني أعيش.. لا في القطاع الخاص ولا في القطاع العام.. أنا بأخذ عند الباشا تلتميت جنيـه.. أهم بيخلوني أعرف أعيش.. وكمان حسنة من هنا على حسنة من هناك.. المركب بتمشي..".

إن المرتب الذي يتقاضاه "ش" هو مقابـل أن يقـوم بقيادة السيارة التي يملكها "م" رب هذه الأسرة، ومصـاحبته في كل أعماله التي تتصل بطبيعة المال والتجارة التي يعمل بها "م"، أو حتى سهراته الخاصة والأماكن التي يرتادها عقب انتهاء العمل. والواقع أن هذا لا يحدد طبيعة ووقـت العمـل لصاحب هذه الحالة، إنه أيضا يقوم بمصاحبة الزوجـة فـي

شرائها لاحتياجاتها وإجراء زياراتها الاجتماعية، فضلاً عـن خدمة الأبناء في الوصول إلى أماكن دراستهم سواء الرسمية (المدرسة و الكلية) أو غير الرسمية (الدروس الخصوصية).

".. أنا المفروض أني سواق الباشا وبـس.. أنا بسوق عربية مرسيدس بروح بيها مع الباشا في كل حتة بيروحها.. بوديه الشركة ورجعه.. وباسهر معاه في كل حته هوه بيسهر فيها.. وياريت علـى كدة وبس.. ده كمان لما المدام بتاعته بتحب تروح في أي حته.. أنا بوديها.. وضيف على كدة كمان.. أنا بودي البنت الجامعة بتاعتها اللي في التحريـر وبودي الواد مدرسته في الزمالك.. وبودي الولـد ابنه الدروس بتاعته عند المدرسين اللي هوه بياخد عندهم..".

ويرى "ش" أن كل هذه الأشياء كانت تجعله يقضـي كل وقته في العمل لدى هذه الأسرة، حيث لا يتبقى له شيء سوى الحصول على قسط من الراحة وحسب، إما في داخـل السيارة حيث توضع في مكان تخزينها، أو في بيتـه الـذي يعود له متأخرا في المواصلات العامة، خاصة بعد أن يودع

السيارة في مكان إقامتها. إن ذلك هو أحد شـروط صـاحب العمل. إنه يحرم على "ش" أن يعود بالسيارة إلى حيث يقـيم بعد انقضاء يوم العمل، وبغض النظر عن طبيعة الوقت الذي ينتهي فيه العمل، فما على "ش" إلا أن يترك السـيارة فـي مكان تخزينها، ويعود إلى مكان إقامته بـدونها، ويبـدو أن العمل وفقًا لهذه الطريقـة يعـج بكثيـر مـن المسـئوليات والواجبات إلا أن "ش" كان لا يبدي تذمره، خاصة وأنه لـم يجد "بديلاً" لهذا العمل، بالإضافة إلى تضعيف الدخل الـذي ينتج عن زيادة العمل إما من صاحب العمل ذاته، أو من بقية أفراد الأسرة.

"... أنا عارف إن الشغل ده كثير.. وأنا مش لاقي وقت لنفسي.. بس أنا هعمل إيـه.. مفـيش شـغل بره.. إن لقيت مش هلاقي المبلغ اللي أنا باخـده.. أنا باصبر على الشـغل ده اللـي هـوه مـن نـار ومفيهوش رحمة.. عشان كمان أنا عارف إني بطلع حسنة كويسة.. الرجل الكبير سـاعات بيروقنـي.. وكمان الست بتاعته في أي مشوار بتديني.. مـش بس كدة الولاد في أي مشوار بيروقوني.. والكـذب

خيبة.. همه مش بس كانوا بيروقوني فلوس.. دول كمان كانوا بيدوني هدوم.. أنا مكنتش زمان أقـدر أشتريها.. ده غير اللقمة الحلوة اللي كنت باكلها.. أنا عندهم شفت حاجات مكنتش أحلم أني أشوفها.. أهو الواحد كان بيلاقي من وراهم كثير.. أنا عراف كل حاجة وليها ثمنها..".

إنه من خلال عمل "ش" فقد استطاع أن يطلع علـى كل أمور صاحب العمل الخاصة والعامة، اطلع على علاقاته سواء في إطار العمل أو خارجه لقد تكشفت له أيضا كل مـا يدور بين جدران المنزل صغيرها وكبيرها... وإنه ذات مرة فقد أسرى ببعض هذه الأشياء والخاصة منها إلى بعض مـن يجلس معهم في أوقات غير العمل، وإذا بهذه الأشـياء قـد وصلت إلى مسامع صاحب العمل،؟ مما أدى بالأخير إلى أن يغير معاملته معه. وفي ذلك يقول "ش".

".. أنا كنت مع الباشا في كل مشوار بـره الشغل أو في الشغل.. ده حتى كنت بسـهر معـاه. وكنت بشوف وأسمع كل حاجة.. كنت باعرف هوه بيقابل مين..، النسوان والرجالة.. أنا عرفت البيوت

اللي كان بيقابل فيها النسوان.. وكان فيـه فنـدق مشـهور فـي أول الطريـق الصـحراوي بتـاع الإسكندرية.. مش كده وبس، ده كان لما بيحصـل حاجة في بيتـه أنـا كنـت باعرفهـا.. الخناقـات والمشاكل بينه وبين الست بتاعته أنا كنت أعرفها.. هوه كان ساعات كثيرة بيحكي ليا الحاجـات دي.. وكمان أنا لما كنت بطلع فوق في البيت عنده، أنـا كنت بشوف وبسمع.. المهم هوه لما عرف الحاجات دي من الواد اللي كنت بأقعـد معـاه هـوه اتغيـر معايا..، هوه غير معاملته معايا..، وكمان في يـوم فتح معايا الموضوع ده.. وقاللي الواد (فلان) حكى لي الكلام اللي قلته له.. وأول مـرة ألاقيـه يعلـي صوته عليا.. وقاللي إن الحاجات دي أمانة وأسرار إزاي تطلعها.. ده حتى شتمني وقاللي الواطي دايما واطي في تصرفاته.. واللـي انـت عملتـه أمـور واطية.. وهددني بأنه ممكن يفرط فيا ويرميني فـي الشارع، ويجيب ميت واحد غيري.. بس أنا كنـت عارف إنه محتاجني، لأنه لو كان عـايز يمشـيني

لكان مشاني على طول..، لأن الشغل اللـي كنـت باشتغله، كان ممكن يعمله أربعة.. ومش بس كدة.. كانت الست بتاعته مرتاحة ليا.. أنـا كنـت علـى مزاجها.. كنت مريحها في كل حاجة.. وكمان لمـا كانت بتروح أي حتة أنا مبقاش عليها للباشا..".

ويذهب "ش" إلى أنه منذ ذلك اليوم الذي عنفـه فيـه صاحب العمل، وقد تغيرت العلاقة بينهما. لقد أصدر صاحب العمل أوامره لأول مرة، بعدم تحركه من داخل السيارة، وألا يراه إلا في إطار ما هو منوط به. لقد ساءت العلاقـة بـين "ش" وصاحب العمـل، وازدادت الأمـور حـدة، وكثـرت الطلبات، وقلت العطايا، الأمر الذي لم يبق لـ ـ "ش" سـوى مرتبه. زد على ذلك أن صاحب العمل لم يطلعه منـذ ذلـك الوقت على كل تصرفاته وسلوكه وعلاقاته.

".. هوه من بعد كدة اتغير معايا.. بعد ما كـان بيعاملني كويس.. اتغير.. معاملته بقت وحشة حتى لما كان بيطلب أي حاجة كـان بيشـخط وينطـر.. وكمان بطل ياخدني معاه في أي حتة.. ده حتى لما كان بيكلم في الموبيل كان يكلـم بالألغـاز عشـان

ميعرفنيش حاجة.. أنا معرفش بعرف حاجة عنـه.. ده كمان قطع عليا الميه والنور.. الحايبة والرايبة.. مبقتش أخد إلا المرتب.. وعشان أنا مكنتش لاقـي شغل تاني.. أنا صبرت".

ويضيف صاحب الحالة الراهنة إلى ما سبق طبيعـة التحول الذي طرأ على العلاقة بينه وبين صاحب العمـل إذ يقول:

"... ده كان في الأول مبيحبش إني أنزل وافتح له باب العربية لا هوه داخل العربية أو خارج منها. بعد كده.. هو طلب مني كده.. دا هوه قال لـي لازم أشوف شغلي كويس، وأعرف بشـتغل إيـه.. لازم تفتح لي باب العربية وأنا نازل وأنا داخـل.. إنـت مش عارف شغلك ولا إيه.. يا بني نضف دماغـك شوية واعرف اللي عليك.. طبعا الحتة دي جديـدة عليه.. لأن في مرة كان شـايل الشـنطة بتاعتـه، وحاولت إني أشلها منه، وهوه رفض.. هوه مكنش بيرضي بكده.. لكن بعد ما اتغير معايا.. لاقيته مرة بيشخط فيا، وأنا مش واخد بالي، ولقيته شـتمني،

وقال كلكم ولاد (..)، مش عارفين شغلكوا.. أنـت مش شايف أنا شايل الشنطة مختهاش ليـه.. هـو إنت فالح تاخد فلوس وعنيك واسعة وبس.. ومش عايز تعمل اللي عليك.. أنا على طول قمـت واخـد الشنطة واللي معاه كله.. وضحكت وقلتله يا باشـا انت تؤمر.. هوه أنت سيادتك أمرت وأنا منفذتش.. آكل العيش خلاني أعمل كده..".

وبناء على الموقف والحالة العملية وظروفهـا التـي كان يعيش في إطارها "ش"، حاول أن يعيد الود الذي كـان سائدا فيما بينه وبين صاحب العمل، ولكـن كـل مسـاعيه وتصرفاته كانت تذهب أدراج الرياح. وفي هذا الصدد يشرح "ش" ويقول:

".. أنا كنت اللي بعمله معاه كان يسمحلي إنـي أكلم مع الباشا.. ده في الفترة الأخيرة كان بيقوللي سوق وأنت ساكت.. شوف الطريق وبطل غلبـة.. مش عايز وجع دماغ.. أنا كنـت سـاعات أبتسـم وأسكت.. وأقوله أمرك يا باشا.. بعد كده أنا كنـت مكلمش معاه خالص.. كنت بس بخـزن الحاجـات

اللي بشوفها.. أنا كنت أبص وطنش.. وكان ساعات أكلم معاه في حاجات كان بيعملها وأدور على وقت كويس أكلمه فيه.. كنت ساعات أقوله أن بيعمل حاجات كويسة. وساعات كثيرة كنت بكلمه على اللبس اللي بيلبسه.. كنت بحاول آكل دماغه.. بس هوه مكنش بياكل من الحاجات دي.. هوه كان حاطط ودن من طين وودن من عجين.. مكنش بيرد عليا في أي حاجة.. كنت عايز أرجع العلاقة زي زمان.. أنا مفلحتش.. دماغه مبقتش معايا زي زمان..".

ويرى "ش"، أنه في ذات الأيام قد تتطرق إلى سمعه، أن صاحب العمل يدور بينه وبين زوجته مشكلة معينة، قد تصل إلى حد الطلاق، إنه أراد أن يستغل هذه الإشكالية لصالحه، فلما كان الطريق مسدودا مع صاحب العمل، فما كان منه إلا أن عبر الطريق إلى الزوجة. وفي ذلك يقول:

".. في يوم أنا سمعت أن في مشكلة بين الباشا ومراته.. وأن الموضوع ده هيوصل للطلاق.. في الحقيقة أنا الشيطان لعب بيا.. وقلت الواحد يستغل

الكلام ده.. وكنت مرة وأنا باسوق للست، قمت فتحت الموضوع ده.. ولقيت بسرعة أن الست غاوية إنها تسمعني.. هيه قعدت تحكي معايا.. قمت أنا ركبت الموجة وقعدت أتلتل في مصايب الراجل.. وعريته على الآخر.. أنا الصراحة كان في دماغي فكرة، إما إن علاقتي ترجع بالرجل.. أو أن الست تكون بدل منه.. وبعدين حصل أن الست كانت بداله.. من اليوم ده اللي أنا اتكلمت مع الست دي، وهي بتطلبني كتير عشان أوصلها.. وكانت هيه في المشاوير دي تقعد تحكي معايا على الرجل ده.. وأنا عشان كنت متغاظ منه، كنت بأقول عليه كل حاجة صح أو غلط.. وهيه كانت كل ما بقولها حاجة، كانت بتديني فلوس كتير.. مش بس كده وكانت بتجبلي هدوم.. بس هيه كانت بتشرط عليا إن الباشا ميعرفش حاجة عن الحاجات دي.. ولا حتى مشاويرها.. أنا كنت دايما أقولها رقبتي..".

ونتيجة للوضع الجديد الذي دب في علاقة "ش" بزوجة مخدومه - خاصة في تزايد طلب الأخيرة على

صاحب هذه الحالة في مساعدتها في قضاء حاجاتها وقيـادة السيارة لها، خاصة أن هذا الوضع كـان جديـدا، إذ كانـت لا تعتمد عليه في قيادة السيارة إلا في المسافات البعيدة أو في الخروج في أوقات ازدحام الطرق، فإن الزوج أو صـاحب العمل بدأ يبدي ملاحظته حول ذلك، ويتساءل ليس على هذا الوضع وحسب بل إن على ما طرأ من انتعـاش علـى "ش" ليس فقط من ناحية المال وارتفاع المعنويات، وإنمـا أيضـا على مظهره الخارجي الذي يتعلق بارتداء الملابس. وفي ذلك يعلق "ش" ويقول:

".. الباشا في الوقت ده معجبوش إن السـت بتاعته كانت بتطلبني أكثر من الأول.. هيه كانت في الأول مكنتش بتطلبني إلا لما تكـون مـثلاً رايحـة مصر الجديدة عند قرايبها، أو أنها لما كانت بتنـزل أوقات الضهرية لما كانت الدنيا تبقى زحمة.. هـوه مرة قال لها إيه الحكاية اشمعنى الأيام دي.. هـوه مش فاضي.. أنا بعته مشوار عشان الشغل. وكمان هوه علق على الحاجات اللي بألبسها.. وقاللي إيـه النظافة دي.. ياعم أمورك ماشية، ونفسـيتك عـال

قوي.. وبعد كده لقيته بيحسن أموره وكلامه معايا.. هوه حاول أن يظهر لي إنه رجع زي زمان معايا.. بس أنا كنت حاسس إن الموضوع ده وراه حاجة.. واللي حسبته لقيته.. هوه بدأ يسألني عـن الحتـت اللي بتروحها الست، وإيه اللي خلاها اليومين دول راضية عني.. هوه معرفش يطلع مني بحاجة.. أنا كنت باستعبط عليه.. هو يسأل وأنا أتوهه.. مكنش عليا إلا أني أقوله إن السـت بتاعتـه دي أحسـن واحدة.. دي كويسة.. دي طيبة.. وكان الكـلام ده ميعجبهوش.. ولما لقيت إن الكلام ده مش ماشـي معاه بقيت أسكت وساعات أقولـه دي مشـاويرها كثير وهيه بتتعبني..".

وبناء على ما ساقه "ش" لصاحب العمل، نقل صاحب العمل الكلام الذي دفع به إلى زوجته. لقد كان يهدف صاحب العمل من ذلك أن يحد من طلب الزوجة لـ "ش" في كل مـا تحتاجه، إلا أن هذا الأمر لم يأتِ به بالغرض الذي كان مـن أجله، إذ اعتمدت الزوجة أكثر وأكثر على خادمها، بل إنـه نال استحسانها بطريقة متزايدة.. وفي ذلك يذهب "ش".

".. الباشا راح قال للست كل حاجة وحشة أنا قلتها.. هوه مقالش الحاجات الكويسة.. لدرجة أنها عرفت إنني مقلتش على حاجة أبدا.. لأن هو حاول يعرف منها برده ولكن مفلحش.. وهيه قالت له.. طيب إنت معرفتش ليه منه، وهو قالها إن ابن.. مبيقولش على حاجة..."

إن عدم إبداء "ش" لأي شيء، وعدم إباحته لأسرار الزوجة، جعل الزوجة تزيد من ثقتها في خادمها، الأمر الذي جعل العلاقة ليست بين سائق وصاحب العمل، وإنما تغيرت الأوضاع تماما، وكذلك المسافات.. وعن ذلك يذكر صاحب الحالة الراهنة:

".. أحب أقول إن الباشا حاول معايا كثير عشان يقدر يطلع مني بحاجة عن الست بتاعته..وأنا كنت بتوهه.. هوه في مرة هددني، وقاللي أنت بتشتغل عندي مش عندها، أنا هوديك في ستين داهية.. وبرده أنا مخفتش.. هيه من المرة دي لما عرفت بدأت تغير معاملتها معايا.. بدل ما كانت بتركب في الكرسي الوراني، بدأت تقعد في الكرسي اللي في

ريحي.. ويومها ادتني فلوس كتيـر.. واشـترتلي حاجات كثيرة ويومها طلبت مني نروح مشوار هيه راحت المشوار ده.. بس رجعت زعلانة.. وقعـدت تدخن كثير.. وعزمت علي علشان أدخن.. أنا كنت مبدخنش، بس قلت أجاريها.. وقعدت تكلم معايا في حاجات كتيرة.. وكانت أول مرة تكلم معايا بالطريقة دي.. المهم أنها في اليوم ده قالت، إيه آخر النكت اللي تعرفها.. قمت أنا قلت ليها نكـت الصـعايدة.. هيه معجبهاش النكـت دي.. وقالـت إيـه النكـت الأبيحة.. أنا قلت ليها أنا معرفش.. قالت طيب أنت مكسوف أنا هسمعك واحدة وأنت تقوللي واحـدة. وبعدها أنا قلت ليها كام نكتة بعدها.. وكانت فيهـا واحدة على الباشا.. هيه انبسطت قوي.. من اليوم ده والست دي من ساعة لما تركب لغاية لما تنـزل واحنا بنكلم في الموضوع ده..".

وحينما لاحظ صاحب العمل تكرار خروج زوجتـه مصاحبة "ش" لها. فما كان منه إلا أن يرفض لها تلبية هـذا الأمر، ناهيك عن اشتداد المعاملة السيئة لخادمه، لقد زاد في

عمليات الإهانة لـ "ش"، ذلك الفعل الذي كان الأخير يقابلـه بنوع من القبول الخارجي، برغم ما يختلجـه مـن مشـاعر الكره. وفي ذلك يوضح "ش" ويذكر:

".. الباشا كان دايما بيضايق بعد إن الست بتاعته بتطلبني.. وأوقات كتيرة كان بيرفض طلبها، وكـان في الوقت اللي هيـه تطلبنـي فيـه، يقـوم هـوه بمسخرتي.. يقعد يشتم ويسب.. أنا مكنـتش بـرد عليه.. مكنش عليا إلا أقف أدامه وابتسم سـاعات، أو أسكت ساعات، وساعات تانية أسيبه وأمشـي.. بس هقولك الصراحة، أنا كنت جوايا بغلي.. عـايز أعمله حاجة بس مش قادر.. ومـرة لمـا سـبته ومشيت آم طردني.. وبعدها اتهمني بأنني سـرقت سلسلة مفاتيح ذهب منه.. لما هوه عمل كـده أنـا سبت الشغل.. وقعدت في البيت. وبعد مـدة لقيتـه بيقبلني عشان أرجع تاني.. أنا في الفترة دي دورت على شغل بس ما لقيتش، وما صدقت إنـه بعتـلي قمت رحت على طول.. بس أنا افتكرت إنه عـرف أنني مش حرامي، وعشان كده صـحي ضـميره..

أتاري الموضوع مش كده.. ده الست بتاعته هيـه اللي ضغطت عليه ورجعتني.. وأنا عرفت كده بعدما قابلتها وقالتلي..".

إنه منذ أن عرف صاحب هذه الحالة الوضع السابق الذي أشرنا إليه قبل قليل، وبدأت بواعث الانتقام تـدب فـي داخله، وحيث إنه لا يستطيع أن يوجه إليه الفعل بالفعل، فلـم يجد أمامه سوى شرفه المتمثل في زوجتـه أن يـرد الفعـل بالفعل ويزيد. ولكي نوضح ذلك نستطيع أن نستدل من كلام صاحب التالي على ما سبق:

".. أنا لما عرفت من الست إن هيه السبب اللـي رجعتني، مش أنني مظلوم، بدأت أفكر إزاي أخاص من الرجل ده الإهانات دي كلها من يوم ما اشتغلت معاه.. وعشان أنا عارف إنه رجل واصـل وإيـده طايلة.. ملقتش أدامي إلا مراتـه.. قلـت أرد لـه الحاجات دي في شرفه.. وقعدت من يومها أغـازل الست بتاعته، وأقولها حاجات وكلام حلـو قـوي.. لدرجة أن الست بقت تقـولي أمـال الحاجـات دي مقولتهاش من زمان ليه.. أنا قلتلها أنا محسـتش

بالحاجات دي إلا لما بعدت عنها لما جوزها طردني.. ومن يومها بقيت الحكاية سمنة على عسل.. هيه بقت ليه كل حاجة.. وأنا بقيت لها كل حاجة.. عارف يعني إيه كل حاجة.. أنا كمان مبقتش السواق، ولا هيه بقت الهانم..".

ولكن هذا الوضع لم يدم طويلاً، أقصد العلاقة بين "ش" وزوجة صاحب العمل - إذ تبدلت وتدهورت، وذلك نتيجة لإفشاء الأسرار وانكشاف العلاقة بينهما، ليس عن طريق "ش" ذاته، وإنما عن طريق مصدر آخر، كان يعاني نفس ما يعانيه "ش" حيث كان يعمل موظفًا بشركة صاحب العمل. إن نتيجة الكشف عن هذا الوضع أثر ثرثرة هذا الموظف أودى بهذه العلاقة إلى نهاية أو افتراق "ش" عن العمل وعن الزوجة معا.. وفي ذلك يقول "ش":

".. وفي يوم أنا كنت مع الست وهيه راكبة معايا.. كنا مولعين سجاير ومبسوطين.. آم الواد (فلان) اللي شغال معاه في الشركة شافني معاها.. ومن يومها لقيته بيتردد عليا كتير.. وفي يوم واحنا قاعدين قعدة حلوة، لقيته قاعد يشتم في الرجل.. لدرجة أنني من غيظي، قعدت

كمان أشتم.. وانسحبت من لساني، وقلت له إن كـل اللـي عمله فيا أديني بعمله في مراته.. وحكيت له اللـي بينـي وبين الست.. وكان الواد ده مبيتبلش في بؤه فوله، آم قعد يقول الموضوع ده في كل حته.. والكلام ده طبعـا وصـل للرجل، والرجل وصله للست.. ومن يومها لقيـت معاملـة الست اتغيرت.. لدرجة أنها قفلـت فـي وشـي التليفـون وشتمتني.. أنا حاولـت أن أفهمهـا بـس هيـه مكنـتش بتسمعني، عشان أنا قلت على حاجات محـدش يعرفهـا إلا احنا الاثنين أنا من يومها قلت هيه خربانه خربانه وعلـي وعلى أعدائي. وبقيت كل ما أشوف حد يعرفه ولا بيشـتغل معاه أحكي له الحكاية.. وأديني رديت له الإهانة بالإهانـة، وكان نفسي كمان أضيع له الولد والبنت.. بس الوقت مـا أسعفنيش.. وأديني علمت على مراته.."

الحالة الثانية: المساير

يعمل "ف" بوابا لإحدى العمارات القاطنة في إحـدى المناطق التابعة لحي مصر الحديدة، وهو متزوج وله ثلاثـة أولاد. وهو من أبناء محافظة المنيا، الذي وفد إلى القـاهرة منذ ما يقرب من سبعة عشر عامـا. يقـوم "ف" بحراسـة العمارة نظير راتب شهري يقدر بنحو مائة وخمسين جنيها، بالإضافة إلى ما يقوم به من نظافة سيارات سكان العمـارة التي تتكون من نحو أربعين شقة، حيث يتقاضى عن السيارة الواحدة نحو عشرة جنيهات شهريا. ويعمل "ف" بجانب هـذا العمل سمسارا لبيع وتأجير الشقق المفروشة، ذلك العمل الذي يوفر له عمولة من البائع والمشتري (على الوجهين) تتراوح أحجامها حسب الاتفاق، وحسب نوع وحجم الوحدة موضوع البيع أو الإيجار، تلك التي يلعب فيها دورا كبيرا من حيـث الارتفاع أو الانخفاض.

بجانب ما سبق، فهو يلعب دور التـاجر الوسـيط، خاصة عند قضائه لشراء احتياجات سكان العمارة التي يعمل بها، إذ يستطيع من خلال هذا الدور أن يستقطع له جزءا من

المال نتيجة لرفعه أسعار المشتريات، ناهيك عن القيام بدور المقاول الذي يأخذ من سكان العمارة أو العمارات المجاورة، مقاولات البناء والهدم وتجهيز الشقق للسكن.

وأحرى بنا أن نسجل هنا، أنه في حالة غياب مثـل هذه الحالات التي أوردناها قبل قليل، فإن "ف" يقوم ببيع قوة عمله لقاء أجر (باليومية) حيث يقوم برفـع مـواد البنـاء، أو إنزال مواد الهدم من الشقق التي تكون قيد التجهيز للسكن من قِبل أصحابها. ويضاف إلى ذلك أيضـا، قيـام زوجتـه بالخدمة في المنازل، فهي تقوم بتوزيع أيام وساعات الأسبوع على سكان العمارة والعمارات المجاورة نظير أجـر يـومي يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين جنيها، إن نتيجة هذه المناشط كلها التي يضطلع بها "ف" وزوجته، استطاع أن يشيد منزلاً يتكون من ثلاثة طوابق في إحدى قرى محافظة المنيا التـي وفد منها بالإضافة لملكيته إلى سيارة (تاكسي) تعمل بمحافظة القاهرة.(*)

(*) جمعت هذه المادة إما من صاحب الحالة نفسه، أو من خلال آخرين يمتهنون نفس المهنة التي يعمل بها في العمارات المجاورة فـي نفـس المنطقة، أو من خلال ما يفصح عنه من خلال مشاجراته مع السكان،=

وفي إطار الوصف السابق لطبيعة النشاط الذي يقوم به "ف" فإن طبيعة العلاقات بينه وبين القائمين على شـئون العمارة (اتحاد ملاك العمارة) هي التي تجعله يجد من نشاطه في خارج العمل الذي يضطلع به وهو حراسة العمـارة، إن "ف" يتعامل مع مأمور اتحاد الملاك وأمين صندوق العمـارة بصورة تضمن رضاهما عنه، يقوم "ف" بنظافة سيارة ما أتى ذكرهما قبل قليل على نحو كامل ويوميا. وأن هـذا الفعـل يتفارق مع معاملته مع باقي السكان الآخرين، فإذا ما تمـت المقارنة بين طبيعة العلاقات نجده يميز بين مطالب الآخرين، وحتى في نظافة السيارات التي يدفع لقاءها أجرا فهو يقـوم بنظافة سيارات الآخرين مرة كل أسبوع. إنه في إطار هـذه العلاقات يميز "ف" بين أصحاب السلطة وغيرهم من السكان.

وإذ يعرف "ف" ميعاد مغادرات وقدوم كل من مأمور اتحاد الملاك وأمين صندوق العمارة، فهو يقوم بانتظارهمـا يوميا، لكي يقدم لهما كل ما يحتاجانه وحمل كل متعلقـاتهم، بما يضمن رضاهما عنه، وليشعرهما أنه لا يغـادر مكـان

= إذ يبوح بها علنًا ليعلن عن ذاته ووضعيته، أو مـن خـلال فضـح السكان لممارساته تجاههم.

تواجده، أو العمل لدى الآخرين لقاء أجـر، وتركـه لمكـان العمل، وهو الأمر الذي يكثر فيه الشكاوى من بقية السـكان. وإذا كان ذلك يحدث - أقصد مغادرة مكان العمـل - فإنـه يوكل هذه المهمة إلى زوجته وأولاده، وأحيانًا إلى أمه التـي تقوم بزيارته لأحيان كثيرة. ومزيدا من الإذعـان لمـأمور اتحاد الملاك وأمين الصندوق، فإن زوجة "ف" تقوم بخدمـة كل منهما في إطار منزلهما دون أي مقابل مادي، في الوقت الذي تتقاضى أجرا من بقية السكان الذين يسـتقدمونها فـي منازلهما للقيام بأعمال النظافة.

إن الضغط من أعلى (مأمور اتحاد المـلاك وأمـين الصندوق) على أسفل (بواب العمارة) جعلـه يـنهج نهجـا مزدوجا أمام هذه السيطرة، ففي الوقت الذي يبدو فيه مطيعا وخانعا أمام هذه السيطرة في الوقت عينه فإنه يكون عكـس ذلك في غيابها. إنه أمام هذه السيطرة يطلق ألفاظ التهـذيب والمجاملة في حضرتها، وعلى العكس من ذلك غالبـا مـا يصدر عدم رضاه عن هذه السيطرة في غيابهما سواء علـى مستوى اللفظ أو حتى على مستوى الإشارة.

إنه أمام هذه السيطرة نجد "ف" يركز في تعاملاتـه على "سيادتك تؤمر بإيه"(*)، "سيادتك تأمر بحاجة ثانيـة" إن لفظ "سيادتك" تعد لازمة من لازمـات التعامـل بـين "ف" وأصحاب السلطة، بينما يتعاكس ذلـك فـي غيـاب الـذات المسيطرة فغالبا ما يتم التلويح باليد أو اللفظ، ذلك الذي نفهم منه، أنه في غياب المسيطرين غالبـا مـا تصـدر آليـات المقاومة. ويمكن أن ندلل على ذلك من خلال تصرفات "ف". فعبر استدعاء "ف" مـن خـلال آلـة المنـاداة أو الإمـلاء (ديجتافون)، فغالبا لا يدير بالاً بهذه الاستدعاءات، فضلاً عن إطلاقه للإشارات أو العبارات التي تعبر عن مخالفته لقواعد الخضوع ".. همه هيستعبدونا..".. الواحد مش عارف "يروح منهم فين، هما عايزنا نفضل على طول تحـت رحمـتهم.. الواحد امتى يخلص من الشغلانة المنيلة دي..".

في الوقت الذي يستقبل فيه "ف" مأمور اتحاد الملاك بعبارة "صباح الخير يا باشا" فإنه قبل مغادرة الأخير للعمارة والذهاب إلى عمله، فإنه يعطيـه أوامـر بضـرورة تلبيـة

(*) يتعاكس هذا التصرف مع معاملته مع بقية سكان العمارة.

احتياجات المنزل، وبعد مناداته من قِبل منزل مأمور اتحـاد الملاك يحدث التلكؤ والتمرد وعدم الانصياع لهذه الأوامر.

"... ابتدينا.. صبحنا وصبح الملك .. يـا سـتار هيبدأ وجع الدماغ.." ويبدأ "ف" في تلبيـة الأوامـر "..أوامرك يا ست.. أأمري.. حاضر هروح أجيـب العيش، والفطار والجرايد.. مش عـايزة سـيادتك حاجة ثانية.. من عيني هجيب كل اللي قلتي سيادتك عليه.." أنا هبعتلك أم (...) عشان تشـوف اللـي سيادتك عايزاه.." وبعد أن يلبي "ف" كل ما يحتاجه منزل مأمور اتحاد الملاك، تبدأ عملية المحاسبة من قِبل زوجة مأمور اتحاد الملاك، إذ تبدأ عملية الجدل والنزاع حول أسعار الأشياء التي قام "ف" بشرائها، إلى الدرجة التي تقوم هذه الزوجة بقذفه بمجموعة من السباب".. ما هو أنت حرامي.. حـرام عليـك تزود علينا كل يوم.. أنت عايز تتغني على حسابنا.. مبيكفيكش اللي أنا بدهولك.. ما أنا بزودلك من غير ما تقول حق ما أنت بتجيب الحاجة.. لازم تخنصـر

من كل حاجة.. أنا لما يجي (فلان) بيه أنـا هبقـى أقوله إنك تمشي على طول من هنا..".

ولكن فور ما يصل مأمور اتحاد الملاك، سرعان ما يذهب "ف" ويحكي له الرواية بكل أدب، وانصـياع وإبدائـه الموافقة وقبول سباب وقذف الزوجة له، وتوضـيح وتبرئـة ممارساته بعيدا عن طعن الزوجة فيها.

".. أنا يا باشا بخدمك بما يرضي ا .. أنـت مـش مخليني عايز حاجة.. معقول برده آخذ منك حاجـة حرام عليا.. هبص على ٢ جنيه ولا حتى خمسـة.. ما هو لو أنا عايز ما أنا هطلبهم من سيادتك.. على العموم الست قالت كلام كتير.. وأنا مسامحها...".

وأمام هذا كله، فإن "ف" يذهب إلى أمـين صـندوق العمارة ويشكو له ما قامت به زوجة مأمور اتحاد المـلاك، ويبدي له عدم قبوله للإهانات التي وجهتها لـه. إذ يقـول:

"..أنا برده يا بيه ليا كرامة.. هيه مفكرة نفسها إيه.. كـل يوم تهني وتمرمط بيا الأرض عشان إيه.. أنا بخدمها هيـه

والباشا.. وبيعت كمان مراتي تخـدمها... [*] **وبعـد كـده تشتم.. أنا باخد حقي وبس.. ده كمان حقي مـش عـايزه تدهوني.."**.

إنه نظرا لتعالي استهجان السكان لاحتكـار مـأمور اتحاد الملاك لكل أدوار "ف"، فإن مأمور اتحاد الملاك هـو الآخر قد ركب موجة بقية السكان، إذ كيل له مجموعة مـن الاتهامات، تلك التي كان يفعلها إما مع زوجته خاصـة فـي تلكئه للاستجابة لها، أو نتيجة لعملية الزيادة التـي يضـيفها على الأسعار، فضلاً عن كونه في أحد اجتماعـات مجلـس إدارة العمارة، فقد قام مأمور اتحـاد المـلاك إلـى تفريـغ الشحنات التي تكمن في داخل بعض سكان العمارة إلى الحد الذي اتهمه بالسرقة.

(*) هنا يلاحظ تغير علاقات الوجه الإيماءات والإشارات التي تصـدر منه في خلاف الوجود مأمور اتحاد الملاك (السلطة)، تلك التي تتبـاين عن نظيرتها في وجود حضرة السلطة. إن "ف" يستشعر العلاقة غيـر الحميمة بين صندوق العمارة ومأمورها لذا فهو يسري له بالأخبار التي تجعله يقترب من أطراف السلطة وتجنبه البطش من أحد أطرافها.

".. أنت مش شايف شغلك.. أنت همك على الفلوس وبس.. إحنا سايبينك تشوف رزقك بـره وجـوه.. وبعدين قاعد تتنطط علينا.. الواحد لو مش حـرام كان مسح بيك الأرض.. أنا ساكت علـى شـكاوى السكان.. وعلى اللي أنت بتعمله.. يا أخي حوط في عينيك حصوة ملح.. أنا بدياك فلوس وهدوم ومش مخليك عايز حاجة.. وبطـنش علـى اللـي أنـت بتعمله.. أنت لازم تشوفلك حتة ثانية.. أنـا صـابر عليك.. أنت معـتش نـافع لأي حـد.. "دا الرجـل (شتيمة) لما جينا نفتح فتحه للسخان الغـاز، قـام بعمل شغل عليا.. ويقوللي إن الفتحـة دي هتكلـف ٦٠ جنيه.. قمت أنا اتفقت مع بتوع الغاز وعطيتهم إكرامية ١٠ جنيه.. شوف (شتيمة) لغايـة فـين.. الواحد يعمل معاه أكثر من كده.. أنا ساعات بحـط عيني على حاجات كثيرة.. وبقول اللي تعرفه أحسن من اللي منعرفوش..".

وبعد هذا الفاصل من التجريح والتـوبيخ مـن قِبـل مأمور اتحاد الملاك، تدخل بعض السكان، مع تعهـده بعـدم

حدوث مثل هذه الأشياء، وعدم تركه لمكانه، وعدم الاشتغال بأية أعمال أخرى، وعدم الاستمرار في مثل هذه الأعمـال، فقد منح "ف" فرصة أخرى.

ويلاحظ في هذا الموقف أن "ف" كان يدفع عن ذاتـه في بعض الأحيان الاتهامات التي وجهت له، وكـان يبـدي لمأمور اتحاد الملاك كل الاحترام والتبجيل، وفـي معـرض دفاعاته يقول:

".. يا باشا.. أنا محصلاش مني كده.. ده أنا وولادي (يقصد زوجته) مبنتأخرش عـن أي حـد. وحتـى سيادتك لما بتطلب مني حاجة على طول بنفذها.. ده المدام حتى لما شتمتني أنا مقلتش حاجة.. وأنا قلت لسيادتك على الموضوع ده.. وعلـى العمـوم أنـا غلطان وعايزين ناكل عيش.. وأنت سيادتك خيـرك علينا.. ومليش بركة إلا أنتم..".

وفي الوقت الذي يبدي "ف" خضوعه أمـام مـأمور اتحاد الملاك وبقية مجلس إدارة العمارة، فإنه في وقت آخـر خاصة في خلافه مع أحد سكان العمارة يكون عكس ذلك. إنه لا يبدي مثل هذا الخضوع، إذ من خلال مناقشة أحد السكان

لعدم قيامه بتنظيف سيارته مثلما يقوم بها على النحو الـذي يقوم به لمأمور اتحاد الملاك، فإنه يبدي تذمره وتطاوله على هذا الساكن الأمر الذي دفع الأخير إلى القول:

" هو أنت بتقوم بلحس عربية (فلان) مأمور اتحـاد الملاك، وعربيتي بتطنش عليها، وبتطلسأها أمال أنا بديلك فلوس على إيه.." على ذلك يرد "ف": "... أنا مبعملش عربية حد، أنا ممكن أجيـب عربيـة زي بتاعتك دي وأحطهـا أدام العمـارة.. روح امسـح عربيتك في أي حتة تانية أو امسحها أنـت.. إحنـا مش هنحط إيدينا عليها..".

وإذا كان "ف" يفرق في معاملته بـين مـن يحـوز السلطة عليه، وبين الآخرين من بقية السكان، فإنه أيضا قـد أبدى عدم موافقته لما بدر من مأمور اتحـاد المـلاك. لقـد صرح لنظرائه الذين يعملون في نفس المهنة في العمـارات المجاورة. إنه في اجتماع حراس العمارات الذي يتم يوميـا عشية كل يوم، إذ قال نقلاً عن أحد الحراس ما يلي:

"... الواحد مننا يعمل إيه.. أنا لو ألاقي مكان آخـر في المنطقة، كنت سبت العمارة دي.. بس عشـان

الولاد في المدرسة اللي بناحيتنا، أنا كنـت مشـيت على طول.. أنا جايد للرجل ده صـوابعي العشـرة شمع.. ومش عاجبه.. أنا هعمـل إيـه.. أجيبلـه الحاجات اللي يطلبها ومخـودش فلـوس.. ربنـا يخلصنا منه.. أهوه بعد ما شتمني عربيته اتخبطت وراح يصلحها بالشيء الفلاني.. يـا ريـت يـتعظ ويعرف أني مظلوم.. هوه مش عارف أنـي بنـي آدم.. وليا كرامة.. ربنا يعديها على خيـر.. أهـو الواحد يرمي الدور اللي فاضل في البلد ويسد قسط العربية.. وأسيبها من وشه..".

الحالة الثالثة: الفهلوي

تقوم "ع" بأعمال الخدمة في البيوت، إذ تقسـم أيـام الأسبوع بين مخدوميها، فهي تعمل لدى إحدى الأسر ثلاثـة أيام من الساعة العاشرة حتى السادسة مسـاء مقابـل مائـة وخمسين جنيها في الشهر والأيام الثلاثة الأخرى لدى أسـرة أخرى وبنفس الأجر، على أن يكـون اليـوم السـابع لهـا ولأولادها وأسرتها.. وتقطن "ع" في مساكن السيل بمنطقـة المقطم، وهي أم لثلاث بنات وولدين، وزوجة لعامل طلاء.

وتعمل "ع" لدى إحدى الأسر في مناطق حي مصـر الجديدة، وقد تعرفت هذه الأسرة عليها مـن خـلال إحـدى صديقات ربة المنزل (س)، التي كانت تعمـل لـديها فـي النصف الآخر من الأسبوع ونتيجة لتزكية الصـديقة لعمـل وأمانة "ع" فقد قدمت لخدمة هذا المنزل. وفي بداية الأمر فقد أقامت "ع" علاقة جيدة مع ربه المنزل "س"، إلـى الحـد أن الأخيرة قد أشارت لزوجها بعمل وأخلاق وطاعة "ع" الأمـر الذي لم يألفه الزوج من قبل من زوجته "س" في الإشارة بأي مخدوم قد وفد على هذا المنزل. وفي ذلك تقول "س":

".. على فكرة "ع" دي ست كويسة.. هيـه عارفـة شغلها كويس.. نظيفـة.. وغيبهـا أنعانـه (مـن القناعة).. دي لما بتشوف حاجة بتقول اللهم صـل على النبي، كمان لما بأديها حاجة هي ما بتخدهاش على طول.. هيه غير اللي كانوا عنـدي.. وكمـان هيه أمينة.. ده أنا بسيب الفلوس في حتت كتيـرة، وبلاقيها زي ما هية ومطرحها.. أنا لما بقولها على حاجة، هيه بتعملها على طول، وتقـوللي "عينـي" الواحد كان مستريح لها قوي...".

وإذا كانت "ع" وفق الوصف السابق لمخدومتها قـد أشيد بأخلاقها وعملها، فإن هذا الوصف لم يدم طويلاً، لقـد تغيرت الأوصاف كثيرا، حيث قد أهملـت عملهـا، وكثـر غيابها، وبدأت الزوجة تغير رأيها في "ع"، إذ تقول:

"بعد فترة اتغيرت "ع"، معـديتش بتشـوف شـغلها كويس.. وكتر غيابها وكمان اليوم اللي بتجيني فيه، عادت بتجيني متأخرة.. هيه بقيت بتجيني السـاعة حداشر أو اتناشر بدل ما كانـت بتجينـي السـاعة عشرة.. أو ساعات كتير ما بتجيش.. وكـل مـرة

كانت بتتحجج بأي حاجة.. مرة جوزهـا تعبـان.. ومرة هيه بتجهز لبنتها اللي علـى وش جـواز.. المهم، إنها كانت بتتحجج وتكذب.. وعشان أنا كنت محتاجها.. أنا كنـت بطـنش علـى الحاجـات دي كلها..".

ولم يقف الأمر عند حد كثرة غياب "ع" أو تأخرهـا، وإنما امتد إلى الإهمال في الأعمال التي تقـوم بهـا.. لقـد تقلصت جهودها في أعمال النظافة، فضلاً عن تلكئها حتـى لا تضطلع بما تقوم به يوميا. لقد سعت إلى المراوغة حينًـا، وإلى إنهاء عملها بغير أمانة حينًا آخر.

".. إن "ع" كانت في الأول تقوم بعمل كل شـيء.. هيه كانت بتنضف كويس.. وتخاص كل حاجة قبـل ما تروح.. ولكن بعد شوية، بدأت تهمل في عملها.. فهيه ساعات كانت بتقوم بتنظيـف أودة أو اتنـين وتترك الباقي.. وتقوم بغسـيل الأطبـاق والحلـل وحاجات المطبخ بسرعة، لدرجة إن كنـت ألاقـي ساعات الطباق مدهننة وسـاعات ألاقـي أطبـاق وسخة..".

وفي إحدى المرات واجهت ربة المنزل "س" خادمتها "ع"، بما يبدو على عملها وإهمالها وفق ما ذكرته قبل قليـل، إلا أن "ع" قد رفضت هذه الاتهامات، خاصة فيمـا يتصـل بعملها داخل المنزل، وإنما التأخير فقد تعللت به أنه خـارج عن إرادتها وعن ذلك تقول "ع" لربة المنزل "س":

".. أنا بشتغل عندك بما يرضي ا ورسوله.. وأنا مبشتغلش عندك زي ما بشتغل عند البيت الثـاني.. شوفي أنا زودوني خمسين جنيه ثانية.. ولكن أنـا بشتغل عندك بضمير وربنا يعلم.. أنـا بعمـل كـدة علشان بحبك، وأنتِ يا هانم مراعيـاني ومراعيـة

ظروفي.. وبتديني كل حاجة أنا بعوزهـا.. المهـم مش الفلوس، المهم المعاملة الكويسـة.. ده أنـتِ حتى في الأعياد والمواسم فاكراني وفاكره ولادي.. أنا وا مخلصة ليكي.."

وإنه نتيجة لهذه المجاملات، اكتفت الزوجة بتوجيـه "ع" حتى تقوم بما كانت تضطلع به، أو حتى تعيـدها إلـى سيرتها الأولى.. ولكن "ع" بقيت على حالها، وازداد غيابهـا وإهمالها لكل شيء إزاء كل ذلك بدأت الزوجة تضيق الخناق على كل تصرفات "ع" وتدقق وتحقق في كل شـيء، حتـى تقوم "ع" بإنجاز واجباتها على خير وجه. وفي ذلـك تقـول الزوجة "س":

".. أنا لما شفت إن غيابها كتر.. بدأت هيه تيجـي متأخرة.. بدأت أنا أباشرها في كل شـيء. يعنـي ساعة لما بتجيني متأخرة كنت أخليها تقعـد اللـي تأخرته في مرواحها..، وكانت لما تغيب يوم كنـت بقوم بخصمه من مرتبها.. طبعا ده مكنتش بعملـه الأول.. مش بس كده.. لأ ده لما كانت هي بتعمـل حاجة كنت بقف على دماغها.. يعني كنت بوجههـا

عشان مطلسأش الحاجة.. وألاقيها وسخة.. وكنت لما ميعجبنيش شغلها كنت بخليها تعيد الحاجات..".

ولكن "ع" إزاء تشديد الزوجة "س" عليها في كل شيء، ومراعاتها الدقيقة تمام كل شيء على ما يرام، جعلها تراوغ تارة في عمل الأشياء، خاصة إذا كانت الزوجة في غياب عنها، وتارة أخرى تزيد من غيابها.. إن ذلك جعل "ع" تفرغ عن مكنونات هذه الأشياء إلى مخدومتها الأخرى التي تعمل لديها نصف الأسبوع المتبقي، والتي هي قد أوصلت هذه الأشياء إلى صديقتها "س". وفي ذلك تقول الزوجة "س":

"... هيه لما أنا شددت عليها عشان تعمل الحاجة بضمير وذمة.. كانت بتضايق، وطبعا أنا كنت بشوف ده على وشها.. كان وشها بيغلي.. وساعات تقعد تبرطم.. وطبعا أنا لما كنت بغيب عنها بلاقيها تكروت الحاجة.. إن مكنتش أحط عيني عليها ألاقيها تطنش أو تعمل الحاجات من غير ذمة.. ولما كنت أنا بشدد على أنها تعمل الحاجات كويس، كنت ألقايها تقوللي يا هانم أنتِ غيرتي معاملتك معايا.. أنتِ مبقتيش زي الأول.. واقفة على دماغي في كل

حاجة.. مبتسأليش فيا.. أنتي مبقتيش بتحبي شغلي زي الأول.. مش بس كـدة، ده أنـا لقيـت مـرة صاحبتي اللي بتشتغل عندها "ع" في النص الثـاني من الأسبوع، لقيتها مرة بتطلبني فـي التليفـون، وقعدت تحكي معايا الأول فـي حاجـات عامـة... وبعدين لقيتها دخلت فـي الموضـوع بتـاع "ع"، وقالتلي إنتِ مزعلاها ليه.. دي هيه قالت إنك مش عايزة تزوديها فلوس، وبتطلبي منها شغل زيـادة، وبتأخريها عن الميعاد اللي أنتِ متفقة معاها عليه.. وكمان إن معاملتك معاها اتغيرت.. وحتى سـألتني في الآخر، وقالتلي أنتِ محتاجاها ولا لأ.."

ووفق كلام الزوجة، أنها لم تصدق مـا سـرت بـه خادمتها إلى صديقتها ربة المنزل الأخرى، إلا أن هذا الكلام، قد نطقه أيضا بواب العمارة على لسان "ع"، إذ أضاف أنهـا ـ أي ـ "ع" تتحدث كثيرا عن الأسرار الخاصة بـالمنزل، وعن علاقة الزوج بالزوجة والأبناء.. وفي مثل ذلك تقـول الزوجة "س":

"أنا مكنتش مصدقة اللي قالته صـاحبتي الثانيـة.. بس لما البواب بتاع العمارة جـالي وقـالي نفـس الكلام وساعتها عرض عليا واحدة ثانيـة.. مـش عشان هيه قالت الكـلام ده.. لأ، ده عشـان هيـه بتطلع أسرار البيت. وطبعا هوه بيقوللي الكـلام ده نقرلي على موضوع حصل بيني وبين جوزي، وكان الموضوع ده حصل قريب".

وتذهب "س" ربة المنزل التـي تعمـل عنـدها "ع" صاحبة هذه الحالة، إلى أنه منذ ذلك الحين، وبدأت أتعامـل معها كخادمة، أعطي لها حقها، وفق ما تعمله، بمعنى أنهـا حينما تأتي متأخرة أو تغيب، فأقوم بإضـافة الوقـت الـذي تأخرته، وذلك أن أحسب لها عدد الساعات التـي حضـرت فيها، أو أن أستقطعه من مرتبها وتضيف "س" أيضا، بأن في الوقت الذي أقوم بعمل هذا، في الوقت الذي كانت فيـه "ع" تطالب بحقها فيما تفعله، خاصة إذا حضـرت فـي وقتهـا، وانصرفت متأخرة بما يقتضي العمل المطلوب منها.

إنه وفق ما فعلته الزوجة تجاه خادمتها، فإن الأخيرة بدأت في الشكوى، خاصة إلى مخدومتها الأخرى، إلى حد أن

كل ما أباحت به لها قد وصل إلى "س". ونقلاً عن المخدومة الأخرى تقول "س":

"... أنا بعد ما عملت كده، بدأت "ع" تشتكي. وفـي يوم من الأيام قالتلي مدام (فلانه) اللي هيه تشـتغل عندها "ع" نص الأسبوع.. قالتلي إيـه اللـي أنـت بتعمليه مع "ع" الأيام دي بتشتكي على طول.. مـا تخفّي عليها شوية.. دي هيه قالـت إنـك بتـاكلي عرقها.. ومش بتديها حقها.. وسـاعات بتشـغليها فوق طاقتها.. وبتأخريها عن ميعادها..".

وتقول "س" إنها منذ أن دفعت المخدومة الأخرى هذا الكلام، وقد بدأت تضيق بوجودها لولا إن الوقت كان غيـر مناسب للاستعاضة عنها بأخرى.. ولكن لاحظت بعد ذلك أن "ع" بدأت تهمل في كل أعمالها، إذ في أحد الأيـام لاحظـت مدى إهمال "ع" في القيام بواجباتها.. وهو ما جعلهـا تثبـت ذلك في وجه "ع"، وفي ذلك توضح "س":

"... أنا من اليوم اللي قالتلي مدام (فلانة) إنني بأكل عرق "ع" وبشغلها على الفاضي والمليان، وبأخرها عن وقتها. بدأت أتضايق من وجودها بس مكنشـي

عندي وقت أقوم باللي هي بتعمله ولا إنـي أجيـب واحدة ثانية.. كانت مواعيد الامتحانات بتاعة الولاد على الأبواب، ولسة هعلم اللي هاجيبها.. فقات أهو الواحد يخليها لغاية لما الوقت المزنوق ده يعـدي.. وبعد كده لاحظت أنهـا مـا بتنضـفش كـويس.. وضبطها في حاجات، وقلتلها في وشها على طـول هوه أنتِ حلو تشتكي وتقولي إنـي بشـغلك علـى الفاضي وعلى المليـان ومبـدكيش حقـك وبأكـل عرقك.. قامت هيه أنكرت الكلام ده.. وحلفت علـى المصحف وعلى عيالها إنـه مـا حصـلاش منهـا الحاجات دي، ومستعدة تواجه مدام (فلانه).."

وتستطرد الزوجة "س" إنه برغم ما حدث، فلم تتغير "ع" عن العادات التي طرأت عليها بعدما شددت عليها، بـل إن كان هناك أشياء كثيرة قد جدت عليها خاصة ما تتصـل بالأمانة.. وحول ذلك توضح: "س" فتذهب:

".. من يوم ما أنا واجهتها متغيرتش أبدا.. والخيبة اللي حصلت إنها بقت تسرق.. أنا كنت لاحظـت أن الحاجات بتنقص، والخـزين اللـي بجيبـه للبيـت

بتاعي.. بلاقيه ناقص.. السكر والشـاي والزيـت والأرز والمكرونة وحتى اللحمة.. أنا من عوايـدي إني أقسم اللحمة على قد الأكل وعلى أد اللي هياكل وطبعا هيه معانا.. كنت لمـا بطلـع الحاجـات دي بلاقيها ناقصة.. وفي يوم اتعمدت أني أخرج وأرجع بسرعة.. واليوم ده لقيتها مرتبكة ومـش عارفـة تقف على بعضها.. قمت أنا دورت في هدومها اللي هيه بتغيرها عندي وبتلبس بدلها لـبس الشـغل.. قمت لقيت لبسها ملفوف فيه حاجات من الحاجـات اللي بلاقيها ناقصة.. وواجهتها على طول بالحاجات دي وقامت ردت عليها وقالت إنها شايلاها عشـان تحطها مكانها..".

ونتيجة ما سبق، تقول الزوجة إنها بدأت تشك في كل تصرفات "ع"، إلى هذا الحد الذي جعلها تقوم بمراجعة كـل أدوات وممتلكات المنزل، بدأت تغيب وتنقص. وحول ذلـك تذكر "س":

"... أنا من اليوم اللي اكتشفت فيه أنها حراميـة.. بدأت أربط بين كلامها اللي كانت بتقوله ليـا لمـا

كانت تشوف أطقم الصيني بتاعتي وتقوللي، إنهـا جابت لبنتها اللي بتجهزها من الحاجات دي أنا كنت ساعات بسأل نفسـي وأقـول ازاي هيـه تجيـب الحاجات الغالية دي.. أنا على طول قمـت أراجـع الحاجات اللي عندي، لقيت من كل طقـم حاجـات ناقصة.. فناجين وكوبيـات وأطبـاق وسـرفيس.. حاجات كتير.. قمت واجهتها بالحاجات دي ولما أنا كلمتها.. قامت هيه ارتبكت وقالتلي بعد مناهدة إنها هترجع الحاجات دي.. هيه أوام اعترفت..، وعدتني أنها هاتجيبهم معاها المرة الجاية.. وأنا وعدتها إني مش هعملها حاجة ومش هعرف حد على الحاجـات دي..."

وتضيف "س" أن وعد "ع" بإرجاع الأشياء التي قـد سطت عليها لم يتحقق، فضلاً عن أنها لم تعـد إلـي مـرة أخرى. ولكن بسؤال "س" صديقتها التي تعمل لديها "ع"، مـا إذا كانت الأخيرة ما زالت تأتي إليها أم لا، فقد عرفت منهـا أنها ما زالت تعمل لديها، وعلى الفور فقد أبلغتها بما فعلت، وما كان من الصديقة إلا أن واجهت "ع" بذلك، وأبلغتها بمـا

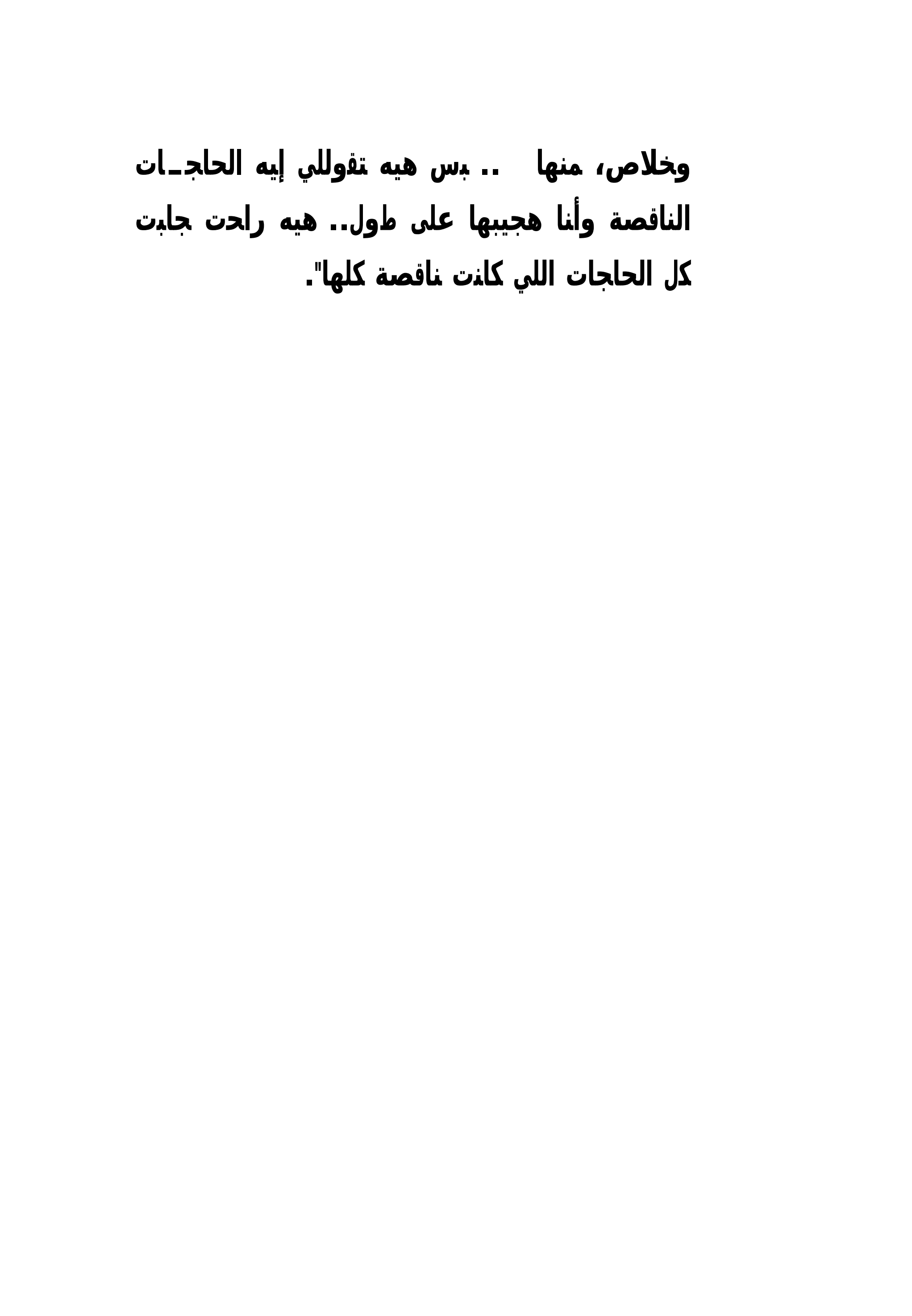
حدث، ولكن "ع" قد أنكرت ذلك، وأضـافت أن "س" تقـول بذلك حتى تضيع عليها أجرتها التي لم تستلمها بعد.

وفي ذلك تقول "س" نقلاً عن "ع":

"... هيه الست دي بتقول كده، وبتسرقني عشـان متدنيش حقي.. هيه عايزة تاكل عليا حقـي.. أنـا على العموم أنا مش عايزه فلوس منها.. بس بلاش هيا تقول عليا كده".

ولما كانت "ع" قد أنكرت ذلك، فما كان من "س" إلا أن هددتها، بأنها سوف تبلغ البوليس بذلك، الأمر الذي دعـا "ع" على الفور بأن أحضرت كل ما قد أخذته، وتقول في ذلك "س":

".. لما بلغتني مدام "فلانة" إن هيه أنكرت أنها أخذت حاجة..و إن أنا عملت كـده عشـان آكـل عليهـا الفلوس.. قمت أنا بلغت مدام (فلانة) أنـي سـوف أبلغ قريبي اللي بيعمل في البوليس، خاصة أن عمي كان ماسك منصب كبير في البوليس وهـوه كـان لواء، قامت هيه خافت، وقالت أنا مش قد البهدلـة وأنا هجيب الحاجات دي.. أنـا هـروح اشـتريها



وخلاص، منها .. بس هيه تقوللي إيه الحاجـات الناقصة وأنا هجيبها على طول.. هيه راحت جابت كل الحاجات اللي كانت ناقصة كلها".

الحالة الرابعة: الوجاه

كان "م" يعمل عاملاً للطباعة، ويتخصص في عملية التجليد، وهي إحدى الحلقات في حرفة الطبع. أي أنه لا يتقن كل فنيات الطباعة. وقد أتيحت له عملية الخروج إلى النفط. أن يعمل بإحدى المطابع في السعودية. لقد عمل "م" طـوال عشر سنوات في السعودية، استطاع من خلالهـا أن يكـون قدرا من المال، ساعده على إقامة مطبعة بمنطقة عين شمس بإحدى ضواحي محافظة القاهرة، شاركه فيها أحد أقاربـه "أ" خريج كلية التجارة، والذي كان هو الآخر له نصـيب مـن الهجرة في العراق قرابة ثماني سنوات. و"م" لم يحصل على قسط من الشهادات العلمية إلا التحاقه بالسنوات الأولى مـن التعليم، التي تؤهله لمعرفة القراءة والكتابة والحسـاب. وإذا كان "م" لا يعرف إلا قدرا محدودا من القراءة والكتابة، فهو أيضا لا يعرف إلا النذر اليسير فنيات الطباعة.

إن ما سبق هو ما جاء على لسان حال شريكه الذي يقول:

"م" ده كان عامل بسيط في مطبعة على أدها.. كانت مش كبيرة.. ومن بتوع زمان.. كان هو بيشتغل فيها بتاع تجليد.. كان بيجلد وبس.. مش كمان تجليد كتب ومجلدات زي ما إحنا بنعمل النهاردة.. لأ.. ده هو كان بيجلد حاجات خايبة.. كتب المدارس، اللي كانت الناس بتحب تحفظها عشان ولادهم ميقطعوهاش.. ومكنش يفهم إلا في الشغلانة دي.. يعني معندهوش معرفة بكل فنيات الطباعة.. الظروف سمحت له أنه يسافر إلى السعودية.. وقعد هناك يجي عشر سنين.. عمله فيهم قرشين.. وبعدين جه، مش عارف يعمل إيه بالفلوس دي.. هوه قعد يتردد عليا، وبيجيني علشان أعمل معاه مطبعة.. كان في الوقت ده برده أنا راجع من العراق.. وكان معايا قرشين كويسين.. أنا قلت هساعده، خاصة أن بيتنا هو اللي مربيه.. أنا الصراحة اتغاضيت عن حاجات كثيرة في شخصيته وطبيعته وتربيته.. أنا عارف إنه كان أجير.. وأخلاق الناس دي ونفوسهم متعبة..

وعارف إنه مش متعلم..و إن عقليته بالنسبة للشغل أو حتى الأخلاق هي عقلية وأخلاق الأجير..ولأنـي عارف إنه له ظروف خاصة لأنه اتربى بعيـد عـن أهله.. يعني مكانش في رعاية ولا تربية.. ولإنـه كان فاشل في التلعليم وبيهرب من المدرسـة.. وإن ظروفه دي، أنا هتعامل معاها.. وهيه اللي هتشـكل كل تصرفاته. أنا قلت أهو نعمل شركة مع بعـض، عشان أساعده ويساعدني.. ويمكن يكون اتغير في السعودية، وانصلح حاله..".

إنه نتيجة لتغاضي "أ" عن كل الظروف الحياتية التي تفرز وتسهم في صياغة السلوك والشخصية، فإنه أقدم علـى مشاركة "م" في إقامة المطبعة. ومن خلال الأيام الأولى لقيام هذه المطبعة وإذ ظهرت مجموعة مـن القـيم والـدباجات الأسلوبية، تلك التي سرعان ما تبددت وتلاشت مـع مـرور الوقت، خاصة مع شعور أنه أصبح صاحب عمل. وفي ذلك يذكر "أ":

"... إحنا لما بدينا الشغل في المطبعـة.. كان عند "م" شوية حاجـات وشـعارات هـو قعـد

يرددها.. والحاجات دي يا ريت كان بيستعملها هـو كان بيرددها وبس.. هو لما بقى صـاحب عمـل، الحاجات دي بقت شكل وبس. لإنه لما بدأ يحس أن له سلطة على الناس اللي مشغلينها.. هو مـارس اللي كان بيشوفه زمان.. هو بيضغط على النـاس وبس.. لأنه كمان مش عارف حاجة في الطباعة.. عايز يتريس (من الرياسة).. عـايز يعمـل ريـس وبس.. مش عارف حاجة.. ولكن الضغط اللي كان عليه هوه بدأ يخرجه..".

وعن مثل هذه الممارسات والسلوكيات التي يصـفها "أ" والتي تعكسها طبيعة وظروف وتكوين "م" فهو في ذلـك يقول:

".. إحنا ربنا رزقنا بواحد فني طباعة، اسمه "ح".. والفني ده كان متعلم.. وهو بيفهم أحسن مـن "م".. وطبعا المفروض أنه كان يحصـل العكـس، أن "م" هوه اللي بيفهم في الشغل.. بس عشـان "م" كـان على أده في الطباعة، و"ح" كان مـتعلم وشـاطر، فكان "م" عايز يأمر "ح" وبـس.. مـش شـرط أن

الشغل يطلع كويس.. المهم أنه ينفذ الحاجات اللـي بيقولها وخلاص.. إن شا ا يطلع الشغل بـايظ.. وكان "ح" عشان يرضي"م" كان بينفذ لـه أوامـره وخلاص.. وطبعا كان "ح" بيقوللي علـى الحاجـات دي.. وأنا كنت بوجـه "م" عشـان يطلـع الشـغل كويس، وعشان العملا بتوعنا ميطفشوش.. أنا كنت بحاول أوجه "م".. ولكن الشغل هوه هوه، والنـاس كانت بترجع الشغل ساعات.. وطبعا كنا بنخسر في الحاجات دي..".

ويذهب "أ" أنه نتيجة لتسلط "م" على من يعمل لديـه، دون فهم أو دراية، جعل عماله يسترضونه بشتى الوسـائل، دون مراعاة صالح العمل. أدى ذلك بالعمال إلى نفاقه، وإبداء موافقتهم على كل ما يصدر لهم من أوامر، وهذا يوضحه "أ" حيث يذكر:

".. "ح" ده واد شـاطر وذكـي. والشـطارة والذكاء مش في المهنة بس.. لأ... ده هـوه كـان فاهم "م" كويس.. هو لما عرف أن كلام "م" وأوامره مش في صالح الشغل، لأنه أمر للأمر، هو بدأ ينافق

"م".. هوه كان عارف أن كل كلام "م" فـي الشـغل مبيجبش مكسب كويس..، كمان بيطلع الشغل بايظ.. فكان بيوافقه على كل حاجة.. هوه كان عارف إنـه عايز يعمل صاحب شغل وريس وبس..".

ويرى "أ" أنه نتيجة لسيطرة "م" وإطلاقه الأوامر على كل شيء، دون أن تجد لها مكانًا من حيث الصح والخطـأ، أو حتى من حيث إفادتها لموضوع العمل والمكسب المادي، فإن ذلك الأمر جعل العمال يوافقونه على كل شيء مع تقديم ما لا يبطنون من مشاعر، وحول ذلك يرى "أ":

"كان "ح" ساعات اسمعه بيقوله حاجات كتير.. مش هيه اللي بيحسها.. ألاقيه يقوله حاجات في نفاق.. لدرجة أن أحس أنه بيضحك عليه.. هل كان بيفهمه أن الحاجات اللي بيقولها "م" هيه أحسن حاجة فـي مصلحة الشغل.. وأنها ممكن تـوفر لينـا حاجـات كتيرة. أنا مرة لقيته بيقوله الكلام ده وبيغمـز ليـا بعنيه.. وطبعا أنا عارف شغل الصـنايعية.. هـوه عايز طبعا يقوللي الكلام ده غلط.. وفي نفس الوقت هو مبيعترضش على كلام "م" اللي هوه مـش فـي

صالح الشغل.. أو اللي هيه في لغتنـا بتهـدر فـي الورق وبتصرف في المصاريف وفي الحبر..".

ويذكر "أ" أنه نتيجة لمثل هذه الأفعال، خاصـة مـن شريكه أو من يعمل لديهما، فإنه تدخل في أكثر مـن مـرة لإصلاح الاعوجاج الذي يأتي من التصرفات التي يخلفها "م" ونتيجة لهذا الفعل الذي قدم عليه "م" إذا بـ "م" يـرد عليـه قائلاً:

"..."ح" ده واد مش كويس. وهو مش عارف شغله. وده ابن(...) وحرامي.. وبتاع كلام وبس.."

ويضيف "أ" أنه وفقًا لهذا الموقف الذي كان قد انتهى إلى سمع "ح"، والذي لم يحاول مواجهة "م"، وإنما حـاول أن يراجعني، إذ يقول:

"... يا أستاذ "أ" يصح أن "م" يقول كده..هل أنا ابن (..) وحرامي، وأنا بتاع كلام ومش بتاع شغل.. ده أنا مرضاش أقولك إيه اللي بيعملـه، ده سـاعات مبيسجلش حاجات في الوقت وبيدبها فـي جيبـه.. وهوه مش عارف بس إلا أنه يدي أوامر وبـس.. ولما ساعات بصحح حاجات هو بيعملهـا وبتـودي

الشغل في داهية.. هوه ساعات مبيـردش عليـا.. وساعات يقوللي ما تتنطاش عليا.. واعمل اللي أنا بقولك عليه وبس.. مش عايز كلام كتير.. هو أنـا عشان أنا كشفه بيقول عليا كده".

والواقع أن ممارسة "م" السلطة على "ح" لم تحفر في العمل أو الأشياء المرتبطة بالعمل وحسب، بل راحـت إلـى أشياء أخرى تتعلق بمظهر ولبس "ح" ويقول "أ" في ذلك:

".. ساعات كتير مبيكنش فيه عندنا شغل.. وميلقيش "م" حاجة يكلم فيها. تلاقيه يفتح "ح" فـي موضوع اللبس بتاعه.. كان "ح" ده بيحـب يلـبس ويبقى نضيف.. حتى لما يكون واقف علـى مكنـة الطباعة، تلاقيه لابس لبسـه اللـي بيخـرج بيـه وساعات تلاقي البلطو الكحلـي.. بـس الصـراحة بيبقى زي الفل، لا نقطة حبر على إيـده ولا علـى هدومه.. طبعا الحاجات دي كانت بتزعل "م" لأنه هو مش نضيف، ومبيحبش النظافة.. ده حتى مرة لقيته بيكلمه على السجاير المارلبورو اللـي بيشـربها..

ويقول له أنت بتحب تتمظهر.. يا أخي امشي على قدك.

ويرى "أ" أن كل ما دار بين "م" ومستخدمه "ح" قد أعيد فتحه مرة أخرى بينه، أي بين "أ" وبين "ح". إذ يذكر "أ" أن "ح" قد قال وفقًا لما سبق:

".. هوه بيكلمني على كل حاجة.. حتى اللبس كمان.. طيب هوه مبيعرفش يلبس.. وبخيل وكمان يقوم يكلمني على السجاير.. لما هوه مضايق من المارلبورو، طيب بياخد مني ليه.. هوه مش واخد يشتريها لكن واخد يشحتها.. هو ميعرفش إلا السجاير بتاعة الأمن المركزي (يقصد السجاير كليوباترا الصغيرة) اللي هيه عاملة زي الشياط..".

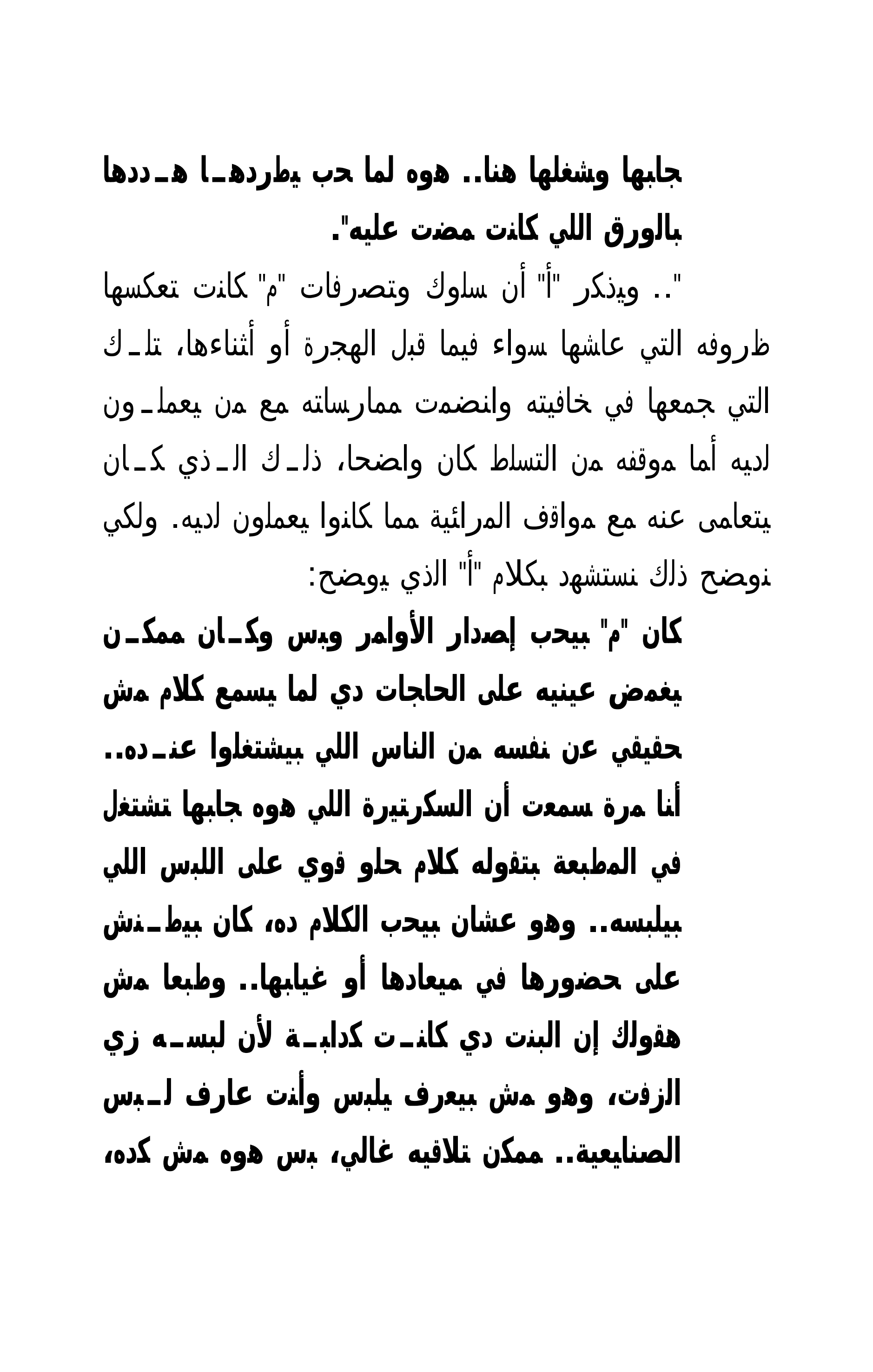
وفي الوقت الذي كان يسر "م" إلى شريكه بالصفات التي ذكرناها قبل قليل عن خادمه "ح" الذي يعمل لديه، في الوقت الذي يكيل له أعظم الصفات خاصة في مواجهة "ح"، أو حينما يكشف الأخير الأول فيما يتصل بالخبرات العملية المتصلة بالمهنة. وفي ذلك يقول "أ":

".. طبعا زي ما هم "ح" بوشين ووجاه.. تلاقـي "م" بأربعة وشوش.. هوه قعد يشتم فيه.. ولمـا تجـي شغلانه هو مش عارف فيها حاجة والواد مبيبقاش عايز يشتغل فيها عشان يكشفه.. تلاقي "م" يحـاول أن يمدحه ويقدم له الشاي والسجاير.. وحتى لمـا يحب "ح" يسأله يقوم "م" يقوله يا عم هو أنا هعـدل عليك.. ما هو أنت عارف كل حاجة واعمـل اللـي أنت عايز تعمله..".

والحقيقة أن تسلط "م" لم يكن حكرا على "ح" وحسب، بل إن نفس الفعل يتكرر مع آخرين ممن يعملون لدى الأول. إن عملية إصدار الأوامر تعد خاصة في شخصية صـاحب الحالة الراهنة وإن عملة المرائية والنفاق يتمتع بها الآخرون، خاصة في حضرة "م" في الوقت الذي يكون عكس ذلك تماما في ظهره ونستطيع أن نقف على ما سبق فيما يوضحه "أ" إذ يقول:

".. هوه مش بس بيؤمر "ح"، وإن "ح" بياخده على أد عقله ومعرفته.. لا.. برده هو ده أسلوبه مع كل اللي بيشتغل معانا.. هوه في دمه حب الأوامر.. ده

كمان شوف بيعمل حاجات كتيرة تدلك على كـده.. كان بينزل إعلان في الجرائد، عشان عايز سكرتيرة أو طباع أو أي حد يشتغل معاه.. هوه الشغل مـش محتاج لكن الموضوع ده في دمه ينزل الإعـلان.. يقوم يجي ناس كتيرة يقعد يعمل معاهم مقـابلات.. وفي المقابلات يحط ويطلع عقده كلهـا.. ويكلمهـم مش كويس وبعدين ما يخدش حد.. وفي مرة جاب لـه سـكرتيرة.. ولا الشـغل ولا المكـان يحتمـل الموضوع ده.. احنا مش محتاجين حد.. هوه بـس عايز يعمل صاحب شغل.. وكـان النـاس دي لمـا يشغلهم يقوم ميعملش ورق ولا تأمينات ولا حاجة.. وكان ساعات بيمضي الناس دي على ورق فاضي. وبعد كده يضغط عليهم بيها.. وكان لما يبقـى حـد ناصح فيهم، كان بيعمل لهم تأمينات.. بـس، فـي الوقت نفسه يمضيهم على استقالات عشان بعد كدة يقدر يهرب من التأمينات، كان لما يطرد حـد مـن الشغل، يتهمهم بالسرقة ويطلع الورق اللـي همـه مضوا عليه.. وده استخدمه مع السـكرتيرة اللـي



جابها وشغلها هنا.. هوه لما حب يطردها هددها بالورق اللي كانت مضت عليه".

".. ويذكر "أ" أن سلوك وتصرفات "م" كانت تعكسها ظروفه التي عاشها سواء فيما قبل الهجرة أو أثناءها، تلك التي جمعها في خافيته وانضمت ممارساته مع من يعملون لديه أما موقفه من التسلط كان واضحا، ذلك الذي كان يتعامى عنه مع مواقف المرائية مما كانوا يعملون لديه. ولكي نوضح ذلك نستشهد بكلام "أ" الذي يوضح:

كان "م" بيحب إصدار الأوامر وبس وكان ممكن يغمض عينيه على الحاجات دي لما يسمع كلام مش حقيقي عن نفسه من الناس اللي بيشتغلوا عنده.. أنا مرة سمعت أن السكرتيرة اللي هوه جابها تشتغل في المطبعة بتقوله كلام حلو قوي على اللبس اللي بيلبسه.. وهو عشان بيحب الكلام ده، كان بيطنش على حضورها في ميعادها أو غيابها.. وطبعا مش هقولك إن البنت دي كانت كدابة لأن لبسه زي الزفت، وهو مش بيعرف يلبس وأنت عارف لبس الصنايعية.. ممكن تلاقيه غالي، بس هوه مش كده،

وكمان ألوانها ملخبطة.. أنا مرة مسكت البنـت دي واتنرفزت عليها.. ووبختها على تأخيرها وغيابهـا وأنا بكلمها فتحت الموضوع ده بتاع إعجابها بلبس "م"، قامت لقيتها بتضحك وبتقوللي مـا هـو أنـت شايف يا بيه هوه الكلام ده بفلوس..".

ويـرى "أ" أنـه نتيجـة لضـغوط وتصـرفات "م" السلطوية، وممارساته أن جعلت كـل مـن يعملـون لديـه يتصرفون في مواجهته بشكل وفي غيابه بشكل آخر. إن هذا الأمر جعل العمال لا يهتمون إلا بالعمل أمامه، وفـي خلفـه يقدمون سلوكًا من شأنه أن يضر بمصالح العمل، فـي ذلـك يوضح "أ" ويدلل:

".. كان لما "م" بيضيق علـى العمـال.. وسـاعات مفيش ومبيديش الناس أجورهم فـي وقتهـا خـلاّ العمال يعملوا حاجات كتيـرة مـش فـي مصـلحة الشغل.. لدرجة أني عرفـت أن "ح" الطبـاع اللـي عندنا كان لما هوه بيضغط عليه ألاقيه ميرضـاش يصلح المكن لما يعطل، وساعات يبقى عارف إنـه هوه اللي معطلها.. كان زمان مبنحـتجش عشـان

يصلح المكن أو يعملها صيانة. وكان هـوه بيقـوم بالشغلة دي.. دلوقتي بعد كتـر المشـاكل مـع "م" تلاقيه يقول عايزين ميكانيكي.. عايزين حد يعمـل صيانة.. مش بس كدة، أنا عرفـت أن هـوه كـان بياخد الشغل من ورانا ويروح يعمله بره..".

".. هوه كان بيوقف المكن مخصوص عشان يروح يشتغل الشغل اللي بيلهفه من المطبعة ويروح يعمله في مطابع تانية.. والحاجات دي طبعا ظهرت لما أنا عرفت أن "م" كان بيخصم فلوس من الناس.. وأنـا مكنتش بعرف عنها حاجة.. بس ربنا بيسلط أبـدان على أبدان.. ده مش بس كده ساعات أنا أكون قاعد في المكتب اللي في السندرة وأقوم أسـمع العيـال الصنايعية بيتريقوا عليه.. تسمع العجب، شـتيمة، تريقة.. أنا مرة سمعت "ح" بيقول للصبي بتاعـه.. روح قل (شتيمة) عايزين فلـوس.. ومـرة تانيـة بيعلق على كلامه ويقول.. هوه عامل نفسه فـاهم، ده هوه (شتيمة) وادي إحنا بنضحك عليه.. قصـير و (...) وشكله مش عاطفي.. وبخيـل وحرامـي،

أقرع ونزهي.. عاملي حبيب والبنت بتضحك عليه..
(يقصد السكرتيرة) هو يعرف (..) بيها..".

الحالة الخامسة: المرائي:

يبلغ "أ" من العمر نحو خمسة وعشرين عاما، وهو متزوج وله بنت ولا يتعدى عمرها عامين. كان يسكن في منطقة بولاق، حيث تم نقله من خلال إدارة المحافظة إلى حي السلام حيث مساكن الإخلاء الإداري. كان يعمل "أ" نجارا بإحدى مدارس اللغات بحي مصر الجديدة.. ومن خلال عمله تعرف على المدير المالي للمدرسة الذي كان عائدا من السعودية، حيث كان يعمل محاسبا هناك. لقد كان للمدير المالي إحدى الكافتريات في أحد الأحياء الطرفية بمصر الجديدة والذي كان يحتاج إلى أحد العمال ليقوم بتقديم الشيشة لرواد هذه الكافتريا.

لقد عمل "أ" في هذه الكافتريا طوال ثلاث سنوات إلى الحد الذي تفوق فيه على زملائه في نفس العمل والذين كانوا قد سبقوه بزمن فيها إلى الحد الذي كون من خلال هذا العمل مجموعة من المعارف والصداقات، إنه عن طريق تقديم الشيشة لرواد الكافتريا وطريقته في المجاملة في هذا الإطار، استطاع أن يتعرف على اثنين من موظفي إحدى الشركات

العاملة في إطار الطيران اللذين اتفقا معه على الشراكة فـي إقامة إحدى الكافتريات بمكان مجاور مجهز لهـذا الغـرض كان قد سبق العمل. ولكنه لم يوفـق إذ أغلـق بعـد كثـرة المشاكل مع السكان ولأن أحد الموظفين "ح" يسكن أعلى هذه الكافتريا، فإنه تعهد بحماية الكافتريا من السكان خاصـة وأن له أحد الأقارب يعمل بأحد الأجهزة الحساسة في الدولة. إنه من خلال هذا الوضع فقد تم ترتيب أوضاع العمل والذي كان ينص على أن يكون "أ" هو المسئول عن إدارة المكان باعتبار أن شريكه من موظفي الدولة. إن هـذا الوضـع جعـل "أ" لا يدفع إلا قوة عمله وتفرغه التام لإدارة الكافتريا. إنه نتيجة لهذا الاتفاق فقد استغنى "أ" عن عمله في المدرسة التي كـان يعمل بها، إذ تفرغ تفرغًا كاملاً لإدارة مشروعه الجديد.

وحيث إن "أ" من خلال عمله السابق بالكافتريا الذي عمل بها، قد استطاع تكوين معارف وصداقات فقد اسـتطاع أن يسحب معه رواد الكافتريا وزبائنها، وهو الأمـر الـذي ساعده وساعد الكافتريا الجديدة في الاستمرار. ولمـا كـان وضع "أ" في مشاركته للآخرين في ملكيته الكافتريـا غيـر متكافئ، فكان "أ" تحت هيمنة "ر" و"أ" الشـريكين الآخـرين.

وما إن استقر العمل في هذا المكان الجديد حتى بدت علاقات السيطرة من الشريكين على "أ" ومن ثم بدأت التراتبية تظهر بوضوح.

لقد بدأت علاقات الهيمنة تتضح يوما بعد يوم، خاصة بعد أن فرغوا من ترتيب الأوضاع والعمل على استمرارية المكان وتعزيزه بكل الطرق. إنه من هنا تتضح الأدوار والعلاقات والتصرفات والسلوك. كان العمل في هذا المكان طوال ٢٤ ساعة وكان "أ" يقوم بشراء ما تحتاجه الكافتريا.. ففي الشهور الأولى التي كان العمل فيها يتم على قدمين وساقين، وليس على قدم وساق، فكان الدخل مناسبا لا يجعل أي من الشركاء يثير خلافًا. بالرغم من وجود بعض الأشياء كان يتحدث كل منهم على جانب مع أحدهم أو مع آخرين من رواد الكافتريا، خاصة ما يتعلق بالدخل. إنه نتيجة لتناقص الدخل شهرا عن آخر فقد بدأت تدب المشاكل..

لقد كان "أ" يمارس خضوعه بشكل صريح ومباشر لشريكه. وكان "أ" حتى يرضي "ر" عنه، أن يجهز له الشيشة بنفسه، ويقوم على خدمته طوال وجوده بالكافتريا. وكان عندما يقدم "ر" إلى الكافتريا، إذ بـ "أ" يقابله من بعيد أهلاً..

أهلاً يا باشا.. إيه النور ده.. الدنيا نورت.. المكان ميـنفعش من غيرك.." ثم ما يلبث أن يجهز له الشيشة والطاولة ويقوم بخدمته..".

إن فعل "أ" تجاه "ر" شريكه أثار اشمئزاز وتساؤلات الرواد.. لماذا هذا الفعل إن شعور الرواد أصـاب الشـريك الثالث "ح" الذي هو الآخر بدأ يثير نفس التساؤل خاصة بعد وقوفه على ما يقدمه "أ" إلى "ر" شريكه إنه يقدم لـه شـراب (...) بعد أن تفرغ الكافتريا من روادها.

لقد كان "أ" يقوم بخلط شراب (..) بعصير البرتقـال حتى لا يفهم ولا يلاحظ أيضا من هو موجود ما هو طبيعـة هذا الشراب خاصة وأن الكافتريا قد أغلقت من قبـل نتيجـة مثل هذه الأفعال. كان "أ" يقوم برواية ما حدث من "ر" إلـى المقربين له من رواد الكافتريا على حد أن وصلت مثل هـذه الروايات للشريك الثالث "ح" والذي قام هو الآخر بنقلها إلـى "ر" خاصة وأن بعض الرواد الذين يحظون بوجاهة وسـلطة معينة في إطار ونظام الدولة قد أبدوا اعتراضهم على هـذا الفعل خاصة وأن ارتيادهم هذا المكـان قـد يثيـر حـولهم الشكوك..

وحينما سمع "ر" هذا الكلام من "ح" فإنه على الفـور قد نفى مثل هـذه الأفعـال، إلا أن "ح" بـدأ يـدعم كلامـه بالاسترشاد بآخرين كانوا قد سمعوا مثل هـذا الكـلام. لقـد تطوع أحدهم وذكر:

".. يا عم إنت مش مصدق ليه.. هوه "ح" هيكـدب عليك.. ده زي ما قالي هوه قال لغيري كتيـر.. ده بيقعد يتريق عليك في موضوع الشرب.. هو إحنـا كنا معاه لما طلعت من هنا تطوح وسـقت العربيـة ودخلت في العمود، واتفرقع الكاوتش بتاع عربيتك. واحنا عرفنا منين أنك وقعت علـى السـلم وأنـت مروح".

والواقع أن "ر" بتأكيد الكلام له، ما كان منـه إلا أن أبدى غضبه، وإذا به على الفور يوجه مجموعة من السـباب والإهانات لـ "أ" وأردف قائلاً:

".. ده تصرف واطي.. وأنا معملش كده.. والواد ده كداب وابن (..) هو عايز يشوه صورتي أودامكـوا أنا مش ممكن أعمل كـده هـوه فيـه حـد مـنكم

حيحاسبني أنا مش بنكر بس زي ما هوه عايز يلعب بيني وبين "ح" ويخسروني ويخليني أبعد عنه هـوه كمان عايزكوا تبعدوا عني ده مرة قاللي أن ابن "ح" الواد (..) كان بينزل هنا وبياخد اللي هوه عايزه.. وبيكسر الحاجات بتاعة الكافتريا".

إنه منذ فتح هذا الموضوع بين الشريكين وقد بدا لهما مدى تحايل "أ" سواء على استمالة ورضاء أحدهما عليه. إنه نتيجة لهذه الرواية فقد قام "ح" بالرد على مـا أثـاره "ر" إذ يذكر:

".. هوه الواد ده قال كـده.. ومـش عيـب إنـك تصدق.. ده هوه لما أنا فتحت له موضـوع نقـص الدخل.. هوه قاللي ما هو أنت عارف أن "ر" يقعـد من الساعة سبعة لغاية الفجـر، وهـو بيجـر لـه ولصحابه.. وكمان قاللي إن فيه ناس هنا زي الفل ومفـيش داعـي أذكـر أسـامي بتيجـي تشـرب ومبتدفعش..".

لقد أدرك كلا من "ر" و"ح" مدى تحايل "أ" على كـل منهما بمفرده فضلاً عن إيجاد الوقيعة بينهما، ذلك الفعل الذي

أدى إلى مواجهة "ر" مع "أ" وإثبات خضوع الأخير لـلأول. وفي ذلك تفصيل ما حدث:

".. الواد ده ما بيقوللي بيقولك طيب أنت هتشـوف إيه اللي أنا هعمله فيه.." وعلى الفـور يقـوم "ر" بالمناورة على "أ".

"يا واد يا "أ" يا واطي يا ابن (..) ويـرد "أ" أيـوه يا باشا هو أنـت سـيادتك هنـا.. إيـه موضـوع الويسكي.. وإيه موضوع قعادي هنا لغاية الصـبح وأن الناس اللي معايا اللي مبيدفعوش، وإيه حكاية الناس اللي مبيدفعوش.. مش قلت قبل كده إن سبب قلة الإيراد أن المدارس شغالة ومفيش زباين.. وأن ابن "ح" بياخد حاجات كتير وبيكسر العـدة. علـى العموم أنت كداب وحرامي لأن طالما أنـك بتكـدب عليا وعلى "ح" يبقى فيه حاجة مش مظبوطة، وأنت اللي بتمد إيدك على الصندوق".

إنه نتيجة لهذه المواجهة ما كان من "أ" إلا أن أبـدى أسفه وندمه وعدم قصده بكل ما حدث إذ يذكر في مواجهـة "ر".

"روق يا حاج.. أنت برده زي أبويا.. وأنا متأسف.. أنا مكنش قصدي اللي أنت فهمه.. وعلى العموم أنا مش هكلم مع حد.. طالما أنا اللي بقع في النص".

وإذا بالموقف ينتهي إلى الحد الذي تم في مواجهة "ر" من قبل "أ" إذا بـ "أ" يحاول أن يبعد عن ذاته ما قد وجه إليه وفي ذلك يقول في عدم حضرة "ر" وفي مقابل أحد رواد الكافتريا:

".. همه عايزين يصفوا اللي بينهم يقوموا يصفوا على حسابي.. أنا صغير آه وممكن أستحمل بس هوه بيشتمني ليه.. ده أنا ممكن كنت أرد عليه.. هوه مش عارف أني ممكن أخربها.. أسيبه يوريني هيعرف يمشيها ازاي.. هما عايزين يخدوا فلوس كل مرة زي الثانية.. دي المسألة أرزاق مرة كدة ومرة كدة.. مرة فوق ومرة تحت.. أنا مش عارف هعمل إيه.. كل واحد موظف أد الدنيا، أومال أنا أعمل إيه".

ومثلما نقل إلى "ر" ما قاله "أ" فيما يتصل بما ذكرناه حول شربه للـ...، فإن ما قاله في حضرة أحد رواد الكافتريا

الذي ذكرناه قبل قليل فإذا بالكلام نفسه ينقل إلى "ر" والـذي على أثره توعد "ر" بأن يطرد "أ" من العمل خاصـة وأنـه يتهمه بالسرقة وتزويده الأسعار على كل ما يقوم بـه مـن مشتريات وما يقوم به من تخريج مصروفاته كلها من إيـراد الكافتريا إنه نتيجة لذلك فقد قال "ر" في مواجهة "أ" ما يلي:

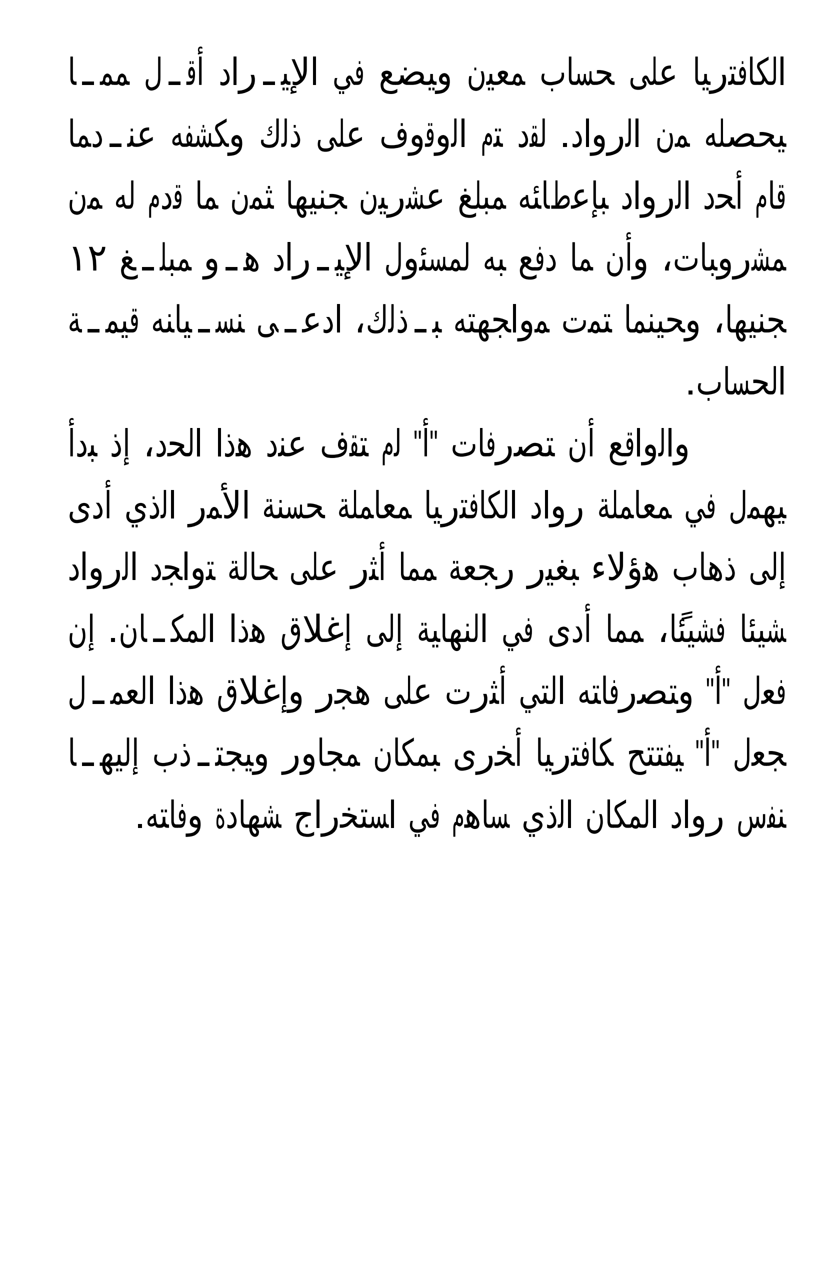
"اوعة تكون فاكر انك شريك بصحيح انت عامل هنا وبس.. انت لازم تعرف حجمك وتبطل تاطيخ فينا.. انا ممكن افرمك ومخليش الدبان الأزرق يعرف لـك طريق جرة.. يا بن.. (شتيمة).. أنت مـش عـايز تسكت أنا عارف كل عمايلك" (..) هوه أنت بتـروح تجيب المعسل وتزود علينـا السـعر. مـش بـس المعسل، ده الفحم والسكر والشاي وكـل حاجـة.. وأكلك وشربك مش بطلعه مـن الـدرج.. وحتـى سجايرك.. هو انت تعرف تشرب سـجاير ميريـت يا أخي حط في عينك حصوة ملح، أنا عارف أنـت بتعمل إيه بالظبط بس أنا مطنش أهو أنت مقطـوع وملكش شغل تاني..".

إنه منذ أن تمت المواجهة للمرة الثانية وقد أبعـد "أ" عن عملية الإدارة وكذا تدبير احتياجات الكافتريا، إلى الحـد أنه بدأ يأخذ أجرا لقاء العمل بالكافتريـا، ولكـن إزاء هـذا الوضع الجديد فقد غير "أ" عن طبيعته فـي العمـل، إذ بـدأ يتقاعس عن العمل في غياب شريكه خاصـة فـي الفتـرة الصباحية. عن ذلك يذكر "أ":

".. أنا أما كنت مسئول عن كل حاجة.. آه صحيح كنت بعمل مصلحة. وده شطارة.. أنا كنت بطلع حسنة.. هو المجهود بتاعي كان لازم أحطه في الشغل.. أنا كنت باخد زيهم.. بس هما بهوات وليهم شغل تاني، وأنا سبت الشغل بتاعي.. ومزروع هنا ٢٤ ساعة.. هو أنا أشتغل وغيري ياخد على الجاهز.. هوه مكنش ينفع إلا أشرب (..) عشان أبقى وبس، أو أغطي عليه في موضوع الشرب.. لكن أنا قبل ما أمشي لازم أخربها..".

وبيد أن "أ" غير من طبيعته في العمل خاصة في غياب "ر" و"ح"، إلا أنه في وجودهما يكون على عكس ذلك، إذ يبدي لهما أنه أفضل من طبيعته السابقة، ناهيك عن زيادة اهتمامه بهما وما يطلبان منه، أو حتى في إطلاق عبارات التهليل والترحيب بهما أهلاً أهلاً.. منورين يا بشوات.. الدنيا هنا منورة.. أهلاً أهلاً..".

وإزاء تضييق الخناق على "أ" وتصرفاته فما كان منه إلا أن أقدم على تصرفات سمحت له بتوليد دخل إضافي له. لقد كان "أ" يقوم ببيع المشروبات لحسابه ويقوم بحساب رواد



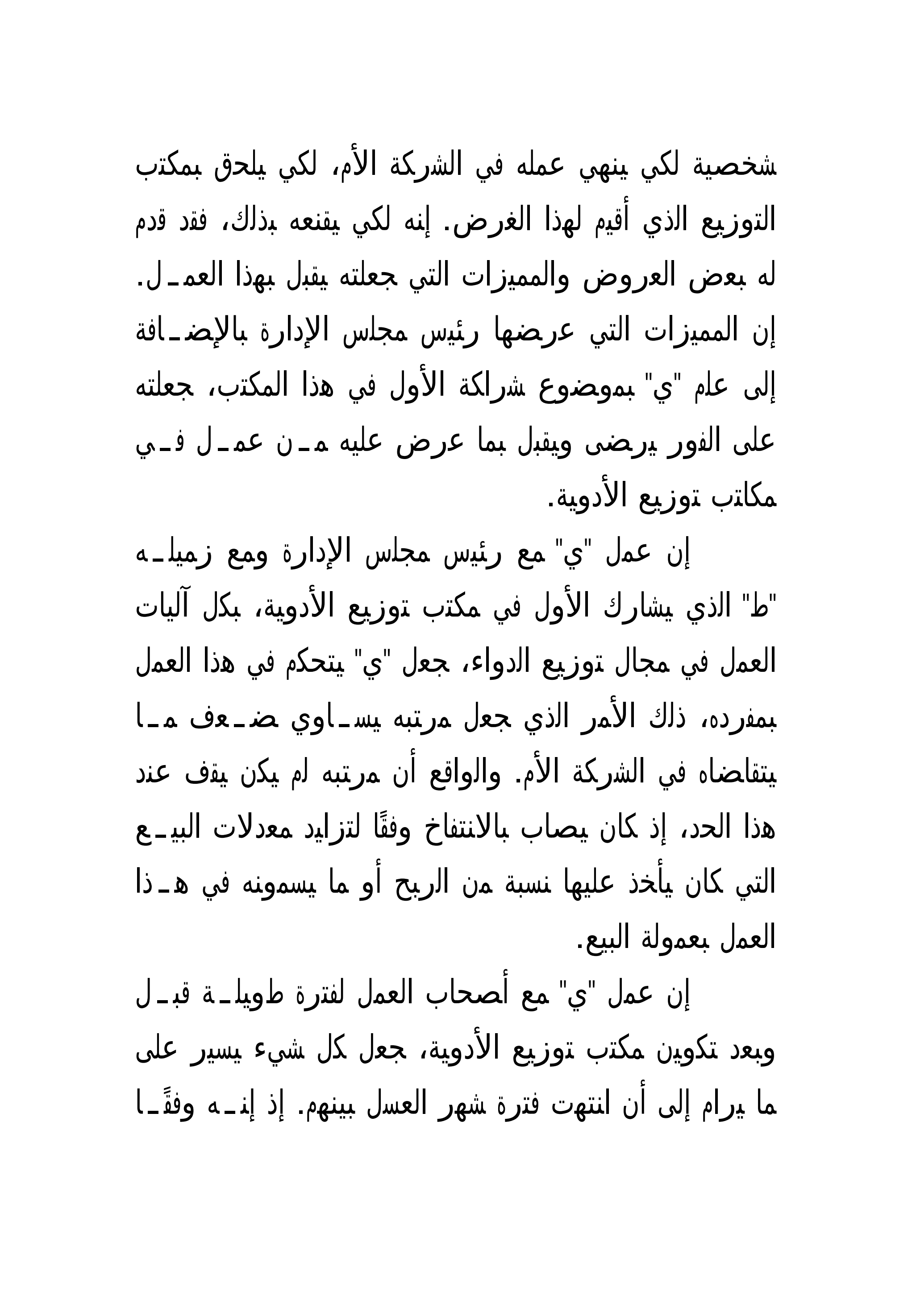
الكافتريا على حساب معين ويضع في الإيراد أقل مما يحصله من الرواد. لقد تم الوقوف على ذلك وكشفه عندما قام أحد الرواد بإعطائه مبلغ عشرين جنيها ثمن ما قدم له من مشروبات، وأن ما دفع به لمسئول الإيراد هو مبلغ ١٢ جنيها، وحينما تمت مواجهته بذلك، ادعى نسيانه قيمة الحساب.

والواقع أن تصرفات "أ" لم تقف عند هذا الحد، إذ بدأ يهمل في معاملة رواد الكافتريا معاملة حسنة الأمر الذي أدى إلى ذهاب هؤلاء بغير رجعة مما أثر على حالة تواجد الرواد شيئا فشيئًا، مما أدى في النهاية إلى إغلاق هذا المكان. إن فعل "أ" وتصرفاته التي أثرت على هجر وإغلاق هذا العمل جعل "أ" يفتتح كافتريا أخرى بمكان مجاور ويجتذب إليها نفس رواد المكان الذي ساهم في استخراج شهادة وفاته.

الحالة السادسة: الانقلابي

يعمل "ي" في أحد مكاتب توزيع الأدوية، الذي كـان يملكه أحد زملائه الذي كان يعمل معه في إحـدى شـركات الأدوية الكبرى التي كانت قد نشأت وفق سيطرة الدولة على كل شيء. ولما كان مالك هذا المكتب قد خرج للعمل في أحد البلدان الخليجية حيث الوفورات المالية، حيث قضى قرابـة ثلاث سنوات. ولكن نتيجة تفكير هذه الشركة في منح بعض المكاتب الخاصة فرصة توزيـع منتجاتهـا خـارج نطـاق القاهرة، فما كان من رئيس مجلس إدارة الشـركة أن مـنح مستوظفه السابق هذه الفرصة، ولكن شريطة أن يشاركه.

ونتيجة لعملية إحلال العمالة في الشركة انتهز رئيس مجلس الإدارة هذه الفرصة لكي يعم هـذا المكتـب بـبعض الكفاءات التي كانت تعمل معه قبل اعتلاء منصبه الحالي. لقد عمل "ي" مع رئيس مجلس الإدارة قبل احتلال هذا المنصب، إذ كان يعمل آنذاك مديرا للبيع، ونتيجة لمعرفة رئيس مجلس الإدارة بقدرة وكفاءة هذا الموظف وهو "ي" الذي كان يعمل وقتها مندوبا للبيع، فما كان منه إلا أن أعطـى لـه مكافـأة



شخصية لكي ينهي عمله في الشركة الأم، لكي يلحق بمكتب التوزيع الذي أقيم لهذا الغرض. إنه لكي يقنعه بذلك، فقد قدم له بعض العروض والمميزات التي جعلته يقبل بهذا العمل. إن المميزات التي عرضها رئيس مجلس الإدارة بالإضافة إلى علم "ي" بموضوع شراكة الأول في هذا المكتب، جعلته على الفور يرضى ويقبل بما عرض عليه من عمل في مكاتب توزيع الأدوية.

إن عمل "ي" مع رئيس مجلس الإدارة ومع زميله "ط" الذي يشارك الأول في مكتب توزيع الأدوية، بكل آليات العمل في مجال توزيع الدواء، جعل "ي" يتحكم في هذا العمل بمفرده، ذلك الأمر الذي جعل مرتبه يساوي ضعف ما يتقاضاه في الشركة الأم. والواقع أن مرتبه لم يكن يقف عند هذا الحد، إذ كان يصاب بالانتفاخ وفقًا لتزايد معدلات البيع التي كان يأخذ عليها نسبة من الربح أو ما يسمونه في هذا العمل بعمولة البيع.

إن عمل "ي" مع أصحاب العمل لفترة طويلة قبل وبعد تكوين مكتب توزيع الأدوية، جعل كل شيء يسير على ما يرام إلى أن انتهت فترة شهر العسل بينهم. إذ إنه وفقًا

لحركة السوق الدوائي. بدأت تحدث بعـض الهـزات فـي معدلات التسويق، الأمر الذي جعله يغير من معاملتـه لـ ـ "ي". إنه لهذا الفعل بدأ رئيس مجلس الإدارة يوجه الانتقادات واللوم إلى عملية البيع ومن يقوم عليها، وهو ما حدا به إلـى تكييل الانتقادات والتعنيف إلى "ي".

وبرغم دفوعات "ي" للدفاع عن ذاته، وعن خبرتـه في مجال بيع وتسويق الأدوية، وما حـدث مـن انخفـاض المبيعات، إلا أن رئيس مجلس الإدارة و"ط" لم يقبلا ما قدمه "ي" من تبرير، تلك التي كانت مقرونـة بازديـاد شـركات الأدوية في هذا الإطار فضلاً عن تقديمهم لعروض تفوق ما تقدمه الشركة الأم، وكذلك مكتبهم الخاص بتوزيع الأدويـة. إن عدم قبـول أصـحاب السـلطة لمحاججـة ودفوعـات مستخدمهم، جعل "ي" يبدي ضجره وحنقه على هذا المكتـب ومالكيه، وقد عبر عن ذلك إذ يقول:

".. همه عايزين ياخدوا فلوس وبس.. همه مـش هاممهم أي حاجة إلا أنهـم يحطـوا فلـوس فـي جيوبهم.. همه مش عايزين يعملوا دعاية للأدويـة بتاعتهم ولا كمـان همـه بيقـدموا أي تسـهيلات

للأجزخانات ولا بيشوفوا الدكاترة بأي حاجـة.. أي دكتور عشان يكتب دوا معين لازم يكـون عـارف الدوا كويس عن طريق النشرات.. وكمان الـدكاترة دي عشان يزقوا الدواء لازم تعمل معاهم واجـب.. لازم تعزمهم أو تقدم ليهم أي هدايا.. أنا أعرف أن الشركات التانية بتعزم الدكاترة على الإقامـة فـي الفنادق الدرجة الأولى "فول بورد" عشـان يخـدوا بالهم من منتجاتهم ويكتبوها.. وكمان الأجزخانـات دي حكاية تانيـة.. الأجزخانـة مـن دول عـايزة تسهيلات في الدفع.. كنا زمان نخلي الـدفع علـى ١٢٠ يوم الوقتي يدوب نخلي الدفع علـى أربعـين يوم.. ده كله أدام اللي بيعملوه في الشركات التانية بيخلي الدكاترة والأجزخانات مبتقاش أي حاجـة.. وكمان ضيف على كده أن الأجزخانات كانت زمـان بتاخد "بونص" كبير، الوقتي يدوب إحنـا بنـدي أي أجزخانة ٢٠ % بس، بس وتلاقي شـركات تانيـة بتدي ٥٠ %.. والمشكلة الكبيرة أن السوق الوقتي شغال على الحرق وده مخلي السوق مليـان مـن

الأدوية طبعا أنا قلت الكلام ده كله للريس وشريكه "ط"، وطبعا "ط" هوه عارف الكلام ده لأنه كان شغال في السوق وعنده خبرة بس مكـنش يقـدر يعمـل حاجة..".

وأمام معرفة "ي" بمركز السلطة، وضعف "ط" أمـام رئيس مجلس الإدارة لم يكن أمامه سوى التـودد والتقـرب للأخير خاصة وأن دفوعاته السابقة لم تجد طريقًا لإقناعـه، لقد رأى صاحب هذه الحالـة أن الطريـق الوحيـد لـدرء الانتقادات الموجهة له سوى أن يضـرب بـبعض الكلمـات المجاملة، أو أن يقوم بتلبية بعض مطالبه التي يبحث دومـا عنها.. وفي ذلك يذكر "ي":

" وأنا لما عرفت أن الرجل الكبير "رئـيس مجلـس الإدارة" هو كل حاجة مش بس في الشركة الكبيرة، وبرده في المكتب اللي بشتغل فيه (مكتـب توزيـع الأدوية) قمت أنا عشان أحوش الضغط اللي عليا.. ما كنش أدامي إلا أني أتقرب للرجل الكبير، وعشان أنا كنت شغال وعارف كل حاجـة عنـه.. فكنـت

ساعات أسمعه كلام حلو عن اللابس اللي كان يلبسه.. وساعات تانية أسمعه النكت الجديدة.. أنا كنت كمان عارف أنه بيشرب.. فكنت بعزمه على (....) اللي كان بيحبه.. أنا كنت بجيبه من المطار.. وفي مرة أنا كنت جايب صندوق، وعرضته عليه.. لقيته على طول ما صدق واخده.. ومن اليوم ده الطريق اتفتح ليا على طول. ومن اليوم ده لقيته اتغير.. بعد ما كان بيوجه ليا اللوم.. لقيته بيضحك معايا على طول.. لدرجة أن صاحبي "ط" في يوم بيقوللي إيه يا عم.. الرجل الكبير مبسوط منك قوي.. ده بيقوللي إن "ي" ده واد جدع.. ده مش مخلي جهد في الشغل.. والعملا بيشكروا فيه. أنا لقيت أن ده مدخل كويس قوي عشان يخليه راضي عني.. أنا قعد أشتغل على الموضوع ده على طول..".

ولم يكن المدخل السابق للوصول إلى عين السلطة هو المدخل الوحيد، وإنما تعدى ذلك إذ استحدثت آليات أخرى. لقد استخدم صاحب هذه الحالة آليات أخرى للوصول

إلى قلب وعين رئيس مجلس الإدارة، وذلك لدفع الانتقـادات التي كانت قد وجهت إليه، وفي توضيح ذلك يقول "ي":

".. مش بس، أنا كنت عارف إنه بيحـب اللـبس.. وعارف كمان أنه ابن نكتة.. قمت بـدأت أجيبلـه شوية كرفتات وشـوية قمصـان مـن الحاجـات المستوردة اللي بعرف أماكنها... وكنت لما أقابلـه اخبط له شوية نكت.. وفي مرة كنت أنا نازل للعملا بتوعنا قمت لقيت "... "[*]حلـوة قـوي، وقمـت علقتها وهيه راكبـة معايـا.. وبـدون ترتيـب.. وبصدفة.. لقيت في وشي الريس.. قـام شـاورلي فوقفت.. ويومها قاللي أنت رايح فين.. قلت له أنـا نازل أشوف العملا.. فقام ضـحك وهـز رأسـه.. وقاللي أشوفك في الشركة.. ولما شوفته أنا قلـت أنه هيحصل مصيبة.. ولكن خابت توقعاتي.. أول ما شفني قاللي يا نصاب.. أنا أول مرة أحترمك.. إيـه ياله اللي كانت معاك.. إيه (..) دي.. أنـت ذوقـك

---

[*] هناك لفظ دارج ومتداول في لغة الحياة اليومية يشير إلى الحـريم اللاتي يتمتعن بقسط وافر من الجمال، أو بأية ميزات جسمية أخرى.

حلو قوي.. قمت أنا قلت له اتفضل يا ريـس.. آم قعد يضحك.. وفي مرة أنا رحت لـه، وأنـا معايـا الست دي وكانت معايا واحدة صـحبتها.. وكانـت التالية أنأح من الأولى.. قام شافها واجنن.. وقاللي على طول.. أنا عازمكوا على الغـدا متـروحش.. وخرجنا ورحنا محل كبير.. وقعدنا قعـدة انبسـاط حلوة.. وبعد كده كل واحد راح في طريقه.. هـوه معاه واحدة.. وأنا معايا واحدة.. ومـن اليـوم ده وبقت العلاقة بيني وبينه سداح مـداح.. ومعـدش بيكلمني على الشغل..".

ويضيف صاحب الحالة الراهنة أنه منذ ذلك الحـين، الذي فيه انكسرت الحواجز، وتكشفت التصرفات، ولم يتبـقَ سوى المصالح تلك التي تتجلى بوضوح في تسهيل المصالح المادية للطرفين دون الرجوع إلى الطرف الثالث. وفي ذلـك يذكر "ي":

".. من اليوم ده اللي انا ضمنت الريس في جيبـي، بقيت أعمل اللي أنا عايزه.. وفي مرة من المرات، لقيت عميل بيطلب مني كمية كبيرة من الدوا بتـاع

السكر والصداع.. "دوانيل وأبلـونج". ولمـا كـان المبلغ كبيرة حوالي مليون جنيه.. قمت أنـا علـى طول قلت ما أقول للريس.. ولمـا عرضـت عليـه الموضــوع.. قــاللي اضــرب الموضــوع ده.. ومتدخلوش في حساب المكتب.. خليه بيني وبينك.. ولما تم الموضوع ده.. هوه اداني ٦ آلاف جنيـه.. وبقيت أعمل الموضوع ده على طول...".

ويرى "ي" أنه منذ أن استطاع أن يصل إلى فكـر وتصرفات رئيسه فقد وفرت له مثل هذه الظروف أن يفعـل الفعل السابق لصالحه وبمفرده. فعلى الرغم من أن مثل هذه الأفعال أدت بآخرين إلى الطرد من العمل في الشـركة الأم، إلا أن رصيد "ي" لدى صاحب هذا العمل قد أمـن صـاحب الحالة الراهنة ويقول صاحبنا في ذلك:

"... وفي مرة أنا لقيـت فرصـة أنـي أضـرب ده لوحدي.. قمت عملت عملية تانية على حس العملية القديمة.. وكانت تقريبا بنفس المبلغ اللي فات.. أنا بعت البيعة لواحد كان بيحرق الدوا فـي السـوق.. بس المرة دي أنا مختدش الفلوس على بعض.. أنا

أخذت الفلوس متقطعة.. هوه كان متفق أنه هيديني الفلوس على حلقات.. أنا طلعـت مـن الموضـوع بمبلغ محترم.. شوف بقى أنا لما وصلت للـريس، ومشيت على هواه.. هوه وافق أن أعمل كده.. ولما هوه عرف أن واحد في الشركة الأم عمل الحكايـة دي.. آم راح فاصله على طول.. طبعا أنا مكـنش بيهمني لأني كنت بعمل الموضوع ده معاه.. هـوه طبعا مكنش يقدر يعمل معايا حاجة.. عشان إحنـا الاثنين بنسرق مع بعض..".

والواقع أن هذا الوضع لم يدم كثيرا إذ تـم اكتشـافه على أثر عملية أخرى، ذلك الوضع الذي أدى إلـى إسـاءة الأمور بين صاحب هذه الحالة وبـين رئيسـه، إن إسـاءة الأوضاع أدت بصاحب هذه الحالة إلى تبديل طريقتـه فـي العمل، مما أدى إلى تفريطه وتبديده لأموال العمل. ويكشـف "ي" عن ذلك إذ يذهب:

".. أنا كنت عملت عملية كبيرة تانية خلتني أجيـب شقة تانية.. أنا غيرت سكني مـن عـين شـمس ورحت سكنت في مصر الجديدة.. ومرة أنـا كنـت

غايب آم عميل من اللي بشتغل معاهم، رجع طلبية، وكانت الطلبية دي أنـا ضـربها.. آم الموضـوع انكشف.. ولقيت الريس هيجـنن.. وفتحنـي فـي الموضوع.. أنا طبعا حاولـت أداري الموضـوع.. ومعرفتش.. كانت كل حاجة واضحة.. واتهمني أني بالعب من وراه.. ومن يومها.. وهوه بـدأ يضـيق عليا الشغل.. من الموضوع ده مكنش أدامي غيـر المرتب.. وبقت العيشة نيلة.. أنا كانت مصـاريفي كتيرة.. كان ليا قعدة خاصة في فندق جنب المطار.. وطبعا باصرف كتير.. والدخل بقى قليـل.. مكـنش أدامي إلا أن أمد إيدي على فلوس الشـغل.. كنـت بلبس طاقية ده لطاقية ده.. كنت آخد الفلوس مـن العملا، وبدل ما أوردها، كنت أأجـل الـدفع علـى الورق، وأصرف منها.. وبعدين لما تيجي فلـوس تانية أقوم أسدد منها.. وكنت ماشي على الوضـع ده.. وفي يوم لقيت الريس عامل تصفية قبـل مـا ييجي ميعاد الجرد. وكان لازم أدفع الفلـوس اللـي عليا.. مكنش أدامي إلا أن أعمل عمليـة صـغيرة

تانية عشان أعرف أدبر حالي.. وفعلاً عملت كـده، وقدرت أسوي أوضاعي.. بس لقيت مرة صـاحبي "ط" بيتهمني أن الرجل واخد بالـه منـي.. وهـوه بيتهمني بالسرقة.. ولما كتر الكلام قمت قلت عليـا وعلى أعدائي. وحكيت لصاحبي إيه اللـي مخلـي الريس صابر عليا.. ومش عايز يطردنـي.. وإيـه برده اللي مخليه شايط مني.. أنا حكيت اللي كـان بيني وبين الريس.. أنا قلت كل حاجة..".

إن ما أورد "ي" لصاحبه جعل الأخير هو الآخر يدلي ببعض النقائص التي يتعامل بها رئيس مجلس الإدارة معه.. وعلى لسان "ط" يقول "ي":

"أنا عرفت من "ط" تصرفات الريس اللـي بيعملهـا معاه.. أنا عرفت أنه ازاي بيستغله وأنه بيـدفع "ط" ضرايب الشركة كلها.. وإنه هـوه بياخـد نصـيبه مشفي.. وازاي إنه دايما بيحسسـه أنـه صـاحب النعمة.. ده غير المعاملات التانية اللي كانت بتخلي "ط" مضايق ومش طايق صاحبنا..".

إن إدراك "ي" لطبيعة العلاقة بين الشريكين، جعلـه ينفذ إلى عقل "ط" ويشكل من خلاله حائط لكل تصرفاته، إنه نتيجة توضيحه لممارسات رئيس مجلس الإدارة، فضلاً عـن مزايدته على شخصيته وسلوكه، جعل مثل هذه الأفعال تعجل من المواجهة بين الشريكين، الأمر الـذي أدى إلـى تفعيـل الانفصال بينهما، ومن ثم انطواء صفحة العمـل فـي هـذا المكان.

الحالة السابعة: المنتقم

يعمل "ط" في إحدى ورش سمكرة السيارات القاطفة على أطراف مدينة القـاهرة مـن جهـة طريـق القـاهرة الإسماعيلية الصحراوي، وقد أودعته أسرته في هذا المكـان نتيجة إخفاقه في الحصول علـى شـهادة إتمـام المرحلـة الابتدائية. وفي ذلك يقول صاحب هذه الحالة:

".. أنا باشتغل فـي ورشـة الحـاج "م" لسـمكرة السيارات.. أنا باشتغل في الورشة دي من زمان.. أنا ما فلحتش في المدرسة. وكنت باهرب منهـا.. وسقطت في امتحان الابتدائية.. أنا سقطت في سنة ستة ابتدائي كام مرة.. وعشان كده أبويـا شـافلي الورشة دي عشان أتعلم صنعة..".

ويذهب "ط" إنه عند التحاقه بالعمل بهذه الورشة لـم يكن يعرف أي شيء عن أمور الصـنعة، إذ اعتمـد عليـه صاحبها في تدبير احتياجاته. والواقع أن اسـتخدام صـاحب العمل لصاحب الحالة الراهنة لم يتوقف عند هذا الحد، بل إنه

كان يعول عليه في تدبير احتياجات المنزل أيضا. ونـدلل على ذلك بقول "ط" حول ذلك إذ يذكر:

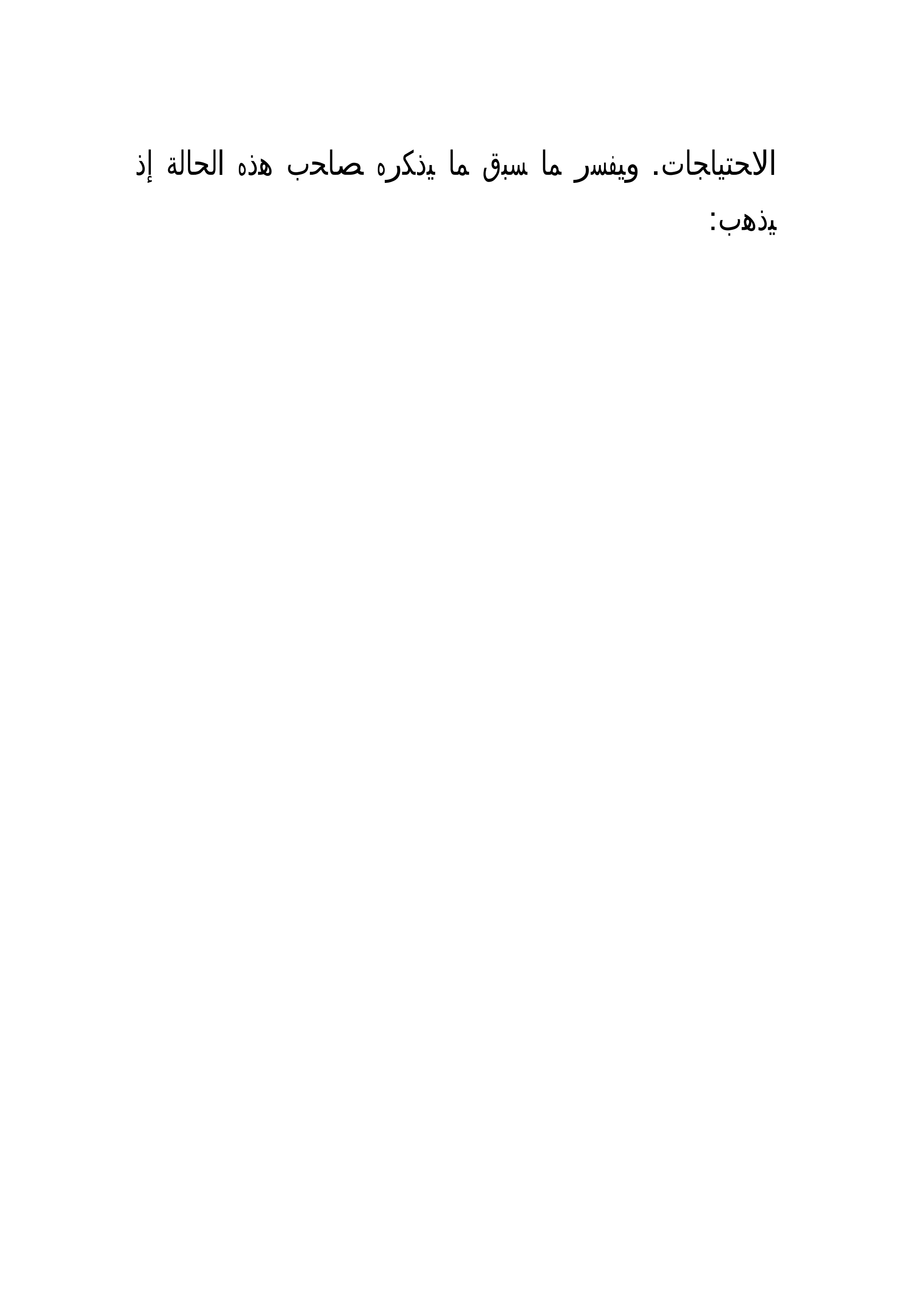
".. أنا لما سبت المدرسة، واشتغلت مع الحـاج "م" كنت مبعرفش أي حاجة عن الشغل.. وكان الحـاج "م" بيخليني أجيب الحاجات اللي بيحتاجها الشـغل.. مش بس كده، ده أنا كنت بجيـب الحاجـات اللـي بيحتاجها بيت الحاج "م"... أنا عشان كنت مبعرفش حاجة عن الصنعة دي كنت مشاورجي، يعني أروح أجيب الشاي والقهوة، واشتري النحـاس والسـلك بتاع اللحام، والبودرة.. وكنت ساعات بروح أغيـر اسطوانات الأكسجين. وكمان باشتري الحاجات اللي بتحتاجها العربيات من بتوع الاكسسوار.. وبجنـب مشاوير الورشة كنت بجيب حاجات بيت الحـاج "م" اللي كانوا بيحتاجوها.. وساعات كنت بوصل الست بتاعة الحاج "م" في أي مشوار هيـه بتروحـه زي الدكتور.. ولما كانت بتجيب حاجات العيال ولاده..".

وبعد فترة من عمل "ط" في تلـك الورشـة، نتيجـة لاعتماد صاحبها على صاحب هذه الحالة، بدأ فـي تعليمـه

بعض مسائل الحرفة. إن اعتماد صاحب العمل على "ط" في كل ما يتعلق بمسائل العمل. ساهمت في إيجاد علاقة حميمة بين "م" و"ط"، الأمر الذي عمل الأول على تعليم الأخير كـل ما يتعلق بدقائق الصنعة وحول ذلك يوضح "ط"، يقول:

".. أنا عشان كنت باعمل كل حاجة، هـوه حبنـي قوي.. وكان بيحاول أنه يعرفني أصول الصـنعة.. أنا بعد ما قضيت فترة كبيرة في المشاوير.. هـوه خلاني أشتغل جنب منه.. كنت بناوله العـدة اللـي بيحتاجها لما كان بيلحم أو يدق.. لدرجة أنه كـان عايز يخليني أعرف كل حاجة بدري.. هوه علمنـي بسرعة.."

وعلى الرغم من حرص صاحب العمل على تعلـيم "ط"، إلا أنه لم يغض الطرف عن مهمة "ط" الأساسـية، ألا وهي قضاء كل احتياجاته سواء للورشة أو للمنزل. إن هـذا الفعل جعل صاحب العمل يتطاول بالكلام والفعل علـى "ط" خاصة حينما يقضي وقتًا طويلاً سواء فـي إنجـاز العمـل المطلوب منه، أو في إنجاز ما يطلـب منـه فـي قضـاء



الاحتياجات. ويفسر ما سبق ما يذكره صاحب هذه الحالة إذ يذهب:

".. هو صحيح علمني الصنعة.. واتعلمت بسرعة.. بس هوه منسنيش المشاوير.. أنا كنت بشتغل في الورشة، وكنت بقضي المشاوير الخاصة بالورشة أو البيت. وكنت لما بغيب في عمل أي حاجة هوه بيطلبني أعملها، كان بيجنن لدرجة أنه كان ساعات بيشتمني أو يضربني.. هوه مرة كان طالب مني أبنط رفرف عربية ولقيته مرة واحدة نازل شتيمة فيا لدرجة أنه زود فيها قوي.. أنا قلت الرجل ده اجنن.. هوه كان لسة باعتني مشوار، ولسة أنا قاعد أشتغل لقيته قام نازل فيا ضرب وشتيمة.. ولما أنا رديت عليه وعرفته أني لسة جاي من المشوار اللي كان بعتني ليه، قام هوه قاللي.. (شتيمة)، هو أنت تقعد تتمرئع في المشاوير.. ومتعملش لي شغل.. تقعد يوم بحاله في رفرف.. بس شاطر تيجي آخر الأسبوع وتأخذ يوميتك.. طيب اديني شغل على أد ما بتقبض..".

إنه وفقًا للموقف الفائت فقد تغيرت العلاقة وكذا المشاعر والسلوك بين العامل وصاحب العمل.. والواقع أن

التحول لم يقف عندما سبق ذكره، بل تعدى ذلك، حين فكـر وسلك صاحب الحالة عدة دروب، ويمكن أن نقف على ذلك من خلال ما يطرحه إذ يقول:

".. أنا من اليوم ده، وأنا اتغيرت.. اتغيرت قـوي.. أنا زعلت من الحاج "م" لأنه أول مرة يحصل منـه الكلام ده.. ومن اليوم ده، أنا دارت فـي دمـاغي شغلات كتيرة.. أنا قلت كان زمان كنت باخد يومية بسيطة.. وأنا الوقتي لما بقيت اسطى بقيـت آخـد يومية كبيرة، وهوه عشان كده هوه بيـدق عليـا.. هوه عايز يطلع اليومية من الشغل اللي أنا بعمله.. وهو عنده حق.. بس أنا هعمل إيه.. وهوه بيطلـب مني مشاوير أقضيها.. وأنا لما الموضوع ده زعلني خلاني آخد على خاطري.. قمت نفست لواحد مـن اللي بيشتغلوا معانا قلتله طيب لما هوه عايز منـي شغل، يبطل يبعتني مشاوير.. أو انه يبعتني أقضـي المشاوير وبس..".

" لما أنا قلت الكلام ده للأسطى اللي بيشتغل معانـا في الورشة.. هوه راح قال الكلام ده، وطبعـا زود

عليه للحاج "م".. ومن ساعتها لقيت الحـاج غيـر معاملته معايا واللي خلاني اتغاظ أنه زود كل اللـي بيشتغلوا في الورشة إلا أنا.. واللـي زود الطـين بله.. أنه تقل عليا الشغل في الورشة وبطل يبعتني أي مشوار".

ويذهب صاحب هذه الحالة، أنه نتيجـة لتصـرفات صاحب العمل سواء في عدم إعطائه حقـه أو فـي تحميلـه لأعباء إضافية في العمل، ناهيك عن المعاملة السـيئة، فمـا كان منه، إلا وأن بدأ يتحايل ويسلك ويتصـرف تصـرفات مخالفة لما كان عليه في السابق. وفي ذلك يذكر "ط":

".. أنا لما فضلت على كده.. قمت عملـت حاجـات وحشة كنت ساعات لمـا اروح اشـتري حاجـات بخنصر من تمنها.. بس أنا كنت بقول إنها شـطارة منـي.. واهـو أنـا بطلـع الفلـوس اللـي هـو مزودهانيش.. وكمان كنت لما باخد بقشيش كنـت بضربه لوحدي.. كان زمان لما حد بيديني بقشيش أو قهوة.. كنا بنفرقها على كل اللي بيشـتغل فـي الورشة.. مش بس كده، ده أنا بقيت أبوظ الشـغل

اللي باعمله.. والشغل اللي كان ياخد سـاعة كنـت باعمله في ساعتين.. وطبعا كل ده كـان مـن ورا ظهر الحاج "م".

والواقع أن ممارسات وتصرفات صاحب هذه الحالة لم تتمثل فيما ذكرناه قبل قليل، إذ إنه يضيف إلى مـا سـبق ويقول:

".. مش بس كده.. ده انا بقيـت أعمـل حاجـات تانية.. أنا كنت ساعات لما بييجي زبون من بتـوع المحل عشان يعمل حاجة، والحاج مش موجـود.. كنت ساعات أقوله.. إحنا مش شغلين.. أنا ممكـن أعمل اللي أنت عايزه.. واتفق معاه.. واروحله في البيت بتاعه.. واعملـه الشـغل.. وسـاعات اروح واوديه لورشة تانية.. يا إما انا أعمـل الشـغل.. أو أقبض عليه من صاحب الورشة التانية وعشـان أنا معنديش عدة لما كنت بعمل الشغل بـره، باخـد عدة من الورشة من ورا الحاج "م".. وكنت برجعها تاني".

وعلى الرغم من أن ممارسات "ط" كانت تتم بـدون علم صاحب العمل، إلا أن أحد تصرفات صاحب هذه الحالة قد تكشفت في إحدى المرات، وعنها وضح "ط" ويذهب:

".. الحاجات اللي أنا قلت عليها.. مكنتش بتكشف.. ومرة أنا عملت شغلانة لزبون.. كنت يومها شغال.. ولما اتفقت مع الرجل ده.. أنا استأذنت إني رايـح مشوار وهرجع.. وكان الوقت ضيق وعشان كـده

مطلعش الشغل مظبوط.. الشغل طلع بايظ.. ولما الرجل رجعلي.. آم الحاج عرف الموضوع.. وبدأ يدقق على العدة بتاعة الورشة.. وعلى المشاوير بتاعتي..".

إن تضييق الخناق من قبل صاحب العمل على مستخدمه، أدى بالأخير إلى ممارسة أفعال أخرى، تعد وفقًا لتقديره رد فعل لممارسة صاحب العمل تجاهه، وفي ذلك يوضح "ط" ويقول:

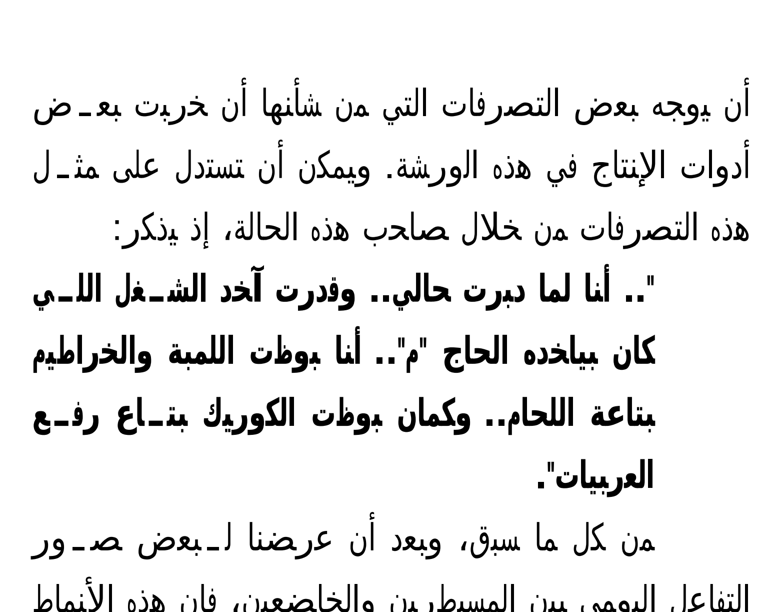
".. هوه من اليوم اللي عرف فيه أن بعمل شغل براني وباخد الزباين منه.. لقيته كل يوم يتمم على العدة.. وكمان مكنش بيسمحلي إني أروح أي مشوار.. ولما كنت بطلب إذن منه ألاقيه يقوللي روح بس أنا مش هحسب اليوم.. ومرة كنت رايح مشوار، قمت ركبت عربية من اللي كانوا بيصلحوا في الورشة.. وخيشتها وعملت بها حادثة.. وكانت تخييشة جامدة.. ورجعت سبت العربية ومشيت.. ولما هوه عرف.. قعد يدور عليا.. لغاية لما لاقاني في قهوة جنب الورشة.. ولاقيته نازل فيا ضرب

وشتيمة، وقالي هتصلح العربيـة علـى حسـابك.. وفعلاً هو خصم كل تكاليف العربية من حسابي.."

ويذهب "ط" ويضيف، أن ممارساته لم تنته عند مـا سبق، بل إنه أضاف إلى ممارساته.. ممارسات أخرى مـن خلالها استطاع أن يعوض ما كان قد أنقص من دخله بسبب ممارساته. إنه حول ذلك يوضح:

".. طبعا أنا كنت متغاظ.. بس كنت سـاعتها مـش قادر أعمل حاجة.. كنت بسايره لغاية لمـا أشـوف شغل تاني.. أو أشوف أي صرفة.. وملقيتش أدامي إلا أني استمر اعمل شغل برانـي.. كنـت بـروح المعارض اللي كان الحاج "م" بيشتغل معاهم، وكنت بعرض عليهم أني أعملهم الشغل بتاعهم وآخد نص اللي كانت الورش بتاخده.. ومن اليوم ده والواحـد قدر يزود دخله".

ومنذ أن استطاع صاحب هذا الحالة تـدبير مـوارد مالية أخرى من خلال الاستيلاء على الأعمـال التـي كـان يتعهدها صاحب العمل، فما كان منه إلا وبدأ يفكر في هجـر هذا العمل وهذا المكان ولكن قبل الشروع في ذلك اسـتطاع



أن يوجه بعض التصرفات التي من شأنها أن خربت بعض أدوات الإنتاج في هذه الورشة. ويمكن أن تستدل على مثل هذه التصرفات من خلال صاحب هذه الحالة، إذ يذكر:

".. أنا لما دبرت حالي.. وقدرت آخد الشغل اللي كان بياخده الحاج "م".. أنا بوظت اللمبة والخراطيم بتاعة اللحام.. وكمان بوظت الكوريك بتاع رفع العربيات".

من كل ما سبق، وبعد أن عرضنا لبعض صور التفاعل اليومي بين المسيطرين والخاضعين، فإن هذه الأنماط توضح كيف يتحايل الخاضعون على قهر وسيطرة المسيطرين، إن السلوك المتناقض لعينة الدراسة سواء في حضرة المسيطرين أو في غيابهم يكشف لنا عن نوع من العبودية الطوعية في جانب، وعن نوع من الخروج عن السلطة في جانب آخر، تلك التي نطلق عليها بالخطاب الخفي والظاهر للخاضعين.

إن الخطاب الظاهر والخفي الذي يكشف عن سلوك حالات الدراسة الراهنة توضح إلى أي حد يأتي هذا السلوك حمال أوجه.. ففي حين يأتي على نحو المحافظ في إطار

المواقع الأمامية، وفي مواجهة السلطة فإنه يأتي على نحو المغاير في ظهرها وهو ما نسميه بالمواقع الخلفية، إن الحيز الاجتماعي الذي يتم فيه الإفصاح عن السلوك الاجتماعي للخاضعين هو المكان الذي يجعل من أشكال التعبير والممارسات تدخل في باب القبول أو الرفض.

إن المطلع على حالات الدراسة التي دفعنا بها على طول هذا الفصل لتوضيح طبيعة وشكل العلاقة بين المسيطرين والخاضعين في الواقع المعاش، تبين كيف يتم عقلنة السلوك في مواجهة السلطة، وكيف يتم نفي هذا السلوك والخروج عليه في غيابها. وفي ضوء تأويل هذا السلوك المتناقض، فإنه يمكن القول أنه في ظل ظروف وسيادة المنطق الرأسمالي في المجتمع المصري فإن ثمة ثقافة خاصة للخاضعين، تلك التي تتمثل في إظهار ما لا يبطنون تحايلاً على المعايش.

إنه في ظل العولمة وشروطها القاسية، وإذعان المجتمع لها، فقد خرجت الفئات الدنيا خالية الوفاض من أية حماية. إن عدم اضطلاع الدولة بأدوارها الاجتماعية وتخليها عن حماية مثل هذه الفئات ومساندتها للفئات الاجتماعية

العليا، جعل الفئات الأولى ـ أقصد الدنيا ـ تكيف ذواتها داخليا من أجل البقاء.

إن تصرفات وسلوكيات الفئات الدنيا من أجل البقاء الفيزيقي هو في جانب يشير إلى الاستكانة، وفي جانبه الآخر يعد نوعا من التمرد أو الثورة السلبية. إن السلوك المتناقض الذي يصدره الخاضعون ما هو إلا رد فعل متكيف مع طبيعة الحيز الاجتماعي الذي يصدر فيه الفعل أو بقول آخر إنه ممارسة عقلانية متكيفة في الواقع المعاش.

خاتمة

خاتمة الدراسة

عرف علم الاجتماع في الآونة الأخيرة مجموعة من التطورات الأمر الذي ولد مجموعة من الرؤى النظرية الحديثة والمخالفة للأطر النظرية الكبرى، إن ظهور الرؤى الجزئية أو الضيقة على مسرح علم الاجتماع جاء مع اهتمام المفكرين بعالم وحياة الأفراد اليومية، تلك التي تتباين عن الأطر النظامية والمؤسسية القائمة في المجتمعات الإنسانية. إن إعادة الاهتمام بالفرد في إطار وجوده أو حيزه الاجتماعي، ينتج اهتماما جديدا هو ما يطلق عليه بسوسيولوجيا الحياة اليومية، التي تهتم بالأفراد وتصرفاتهم، وما تفرزه من خطاب يكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية في الواقع المعاش.

إن الاهتمام بخطاب الحياة اليومية في ضوء مفهومي السيطرة والخضوع، أو قل الاهتمام بعلاقات القوة في إطار صورتها المصغرة، في ظل تمجيد القيم الرأسمالية في الواقع المصري، يكشف عن تفوق من يملك وإغفال الطرف عن حماية الخاضعين، ذلك الوضع الذي جعل الخاضعين يبدون عنفًا رمزيا، يتوضح بجلاء في استنفارهم وثورتهم الصامتة

أمام ممارسة المسيطرين، أو ما نسميه هنا بالخطاب المستمر للخاضعين.

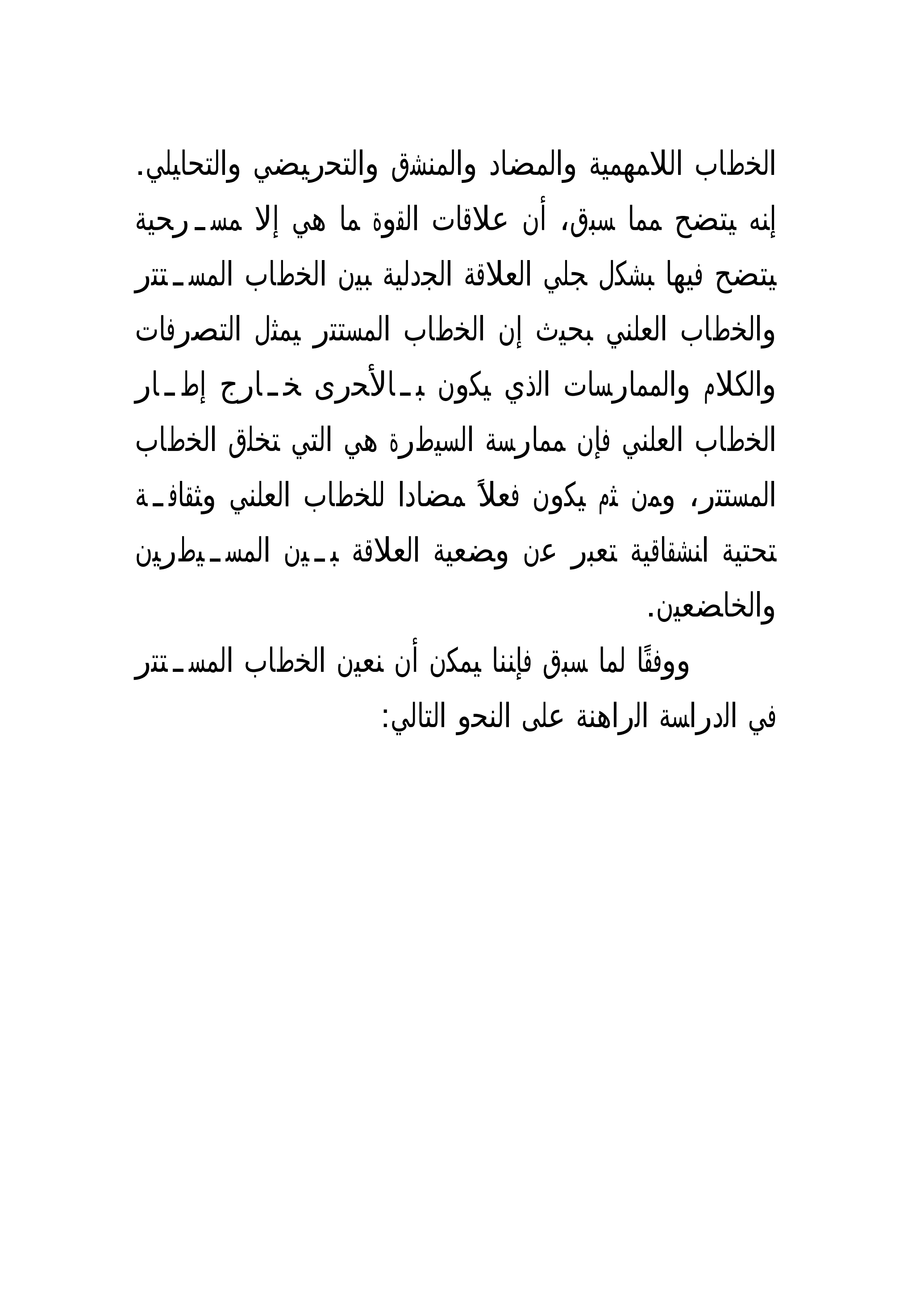
إننا نقصد هنا بالخطاب المستمر للخاضعين، ذلك الخطاب الذي يتمثل في التصرفات والكلام والممارسات التي تصدر في خارج إطار الخطاب العلني الذي يمارسه الخاضعون بفعل ممارسة السلطة. وإزاء هذا التعريف، فإن ثمة علاقة جدلية بين الخطاب المستتر والخطاب العلني. إن الخطاب المستتر يكون رد فعل مضاد للخطاب العلني، وهو يعبر عن ثقافة تحتية للخاضعين، حيث لا يتجاسرون مقاومة السلطة، خوفًا من تبعات ذلك.

إن قراءة الخطاب المستتر للخاضعين في الواقع المعاش، توضح أن أوضاع الخاضعين تخلق موروثًا خفيا وناقدا لأوضاع التسلط، وهو ما يأتي دائما في غياب السلطة أو من وراء ظهرها. إن الموروث الخفي للخاضعين يتباين عن ممارساتهم في حضرة السلطة. إن التناقض أو السلوك المموه الذي تفرضه طبيعة سلوك الخاضعين ما هو إلا نوع من عقلنة للسلوك في مواجهة السلطة، وفي الوقت عينه خروجا عن هذه السلطة في غيابها، إن الجدل بين المعلن

والخفي الذي تفرضـه طبيعـة العلاقـة بـين المسـيطرين والخاضعين، يساعدنا في الوقوف علـى الأنمـاط الثقافيـة المتصلة بمفهومي السيطرة والخضوع.

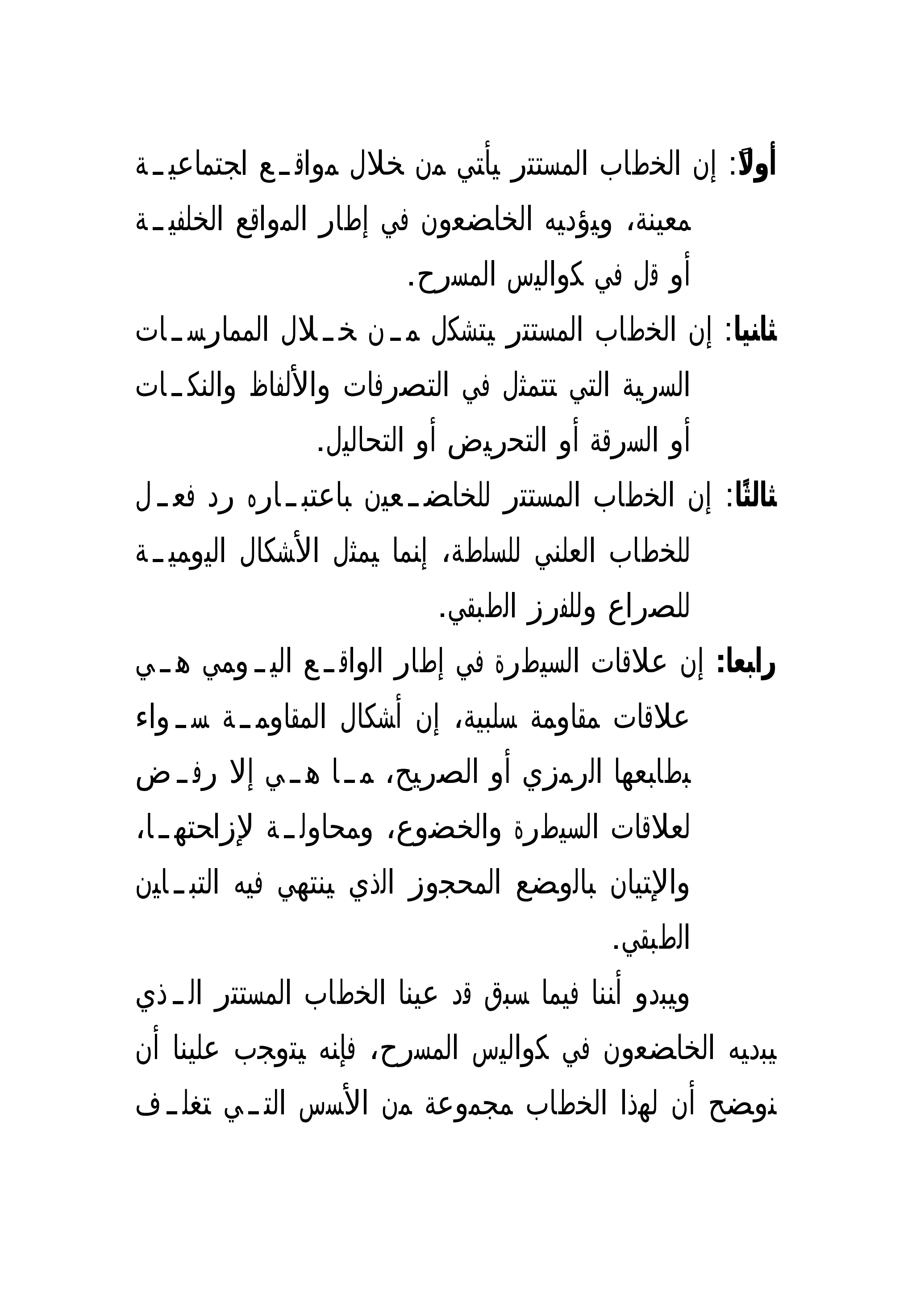
وفي ضوء فهم الأنماط الثقافيـة المتصـلة بعلاقـة السيطرة والخضوع، وبعبارات سوسيولوجية، فإن العبوديـة الطوعية أو ارتداء القناع في حضور السلطة غالبا ما يولـد رد فعل معاكسا في غيابها، ذلك الذي يكشف عن وجود ثقافة مضادة، أو حيل دفاعية خلف كواليس المسرح، إن خطـاب الخاضعين خلف كواليس المسرح يحيلنا إلى وجـود ثقافـة خاصة خارج المسرح، تلك الثقافة التي تعبر عن واقع وقهر من ابتدعها وشكلها.

إذا كان ليس ثمة غموض في فهم الخطـاب العلنـي الذي يبديه الخاضع في حضور السلطة، والذي تمثـل فـي ممارسة الاحترام حفاظًا على أوضاعهم التي يتكسبون فيها، وخوفًا من ضياع مثل هذه الأعمال في أيام عز فيها العمـل والتوظيف نتيجة لسياسات الخصخصة، فإنه لنفس السياسات فإن الخاضعين يديرون الحـديث همسـا أو خـارج إطـار المسرح. إن ملكوت الخطاب المستتر هو الذي ينطلـق فيـه



الخطاب اللامهمية والمضاد والمنشق والتحريضي والتحايلي. إنه يتضح مما سبق، أن علاقات القوة ما هي إلا مسـرحية يتضح فيها بشكل جلي العلاقة الجدلية بين الخطاب المسـتتر والخطاب العلني بحيث إن الخطاب المستتر يمثل التصرفات والكلام والممارسات الذي يكون بـالأحرى خـارج إطـار الخطاب العلني فإن ممارسة السيطرة هي التي تخلق الخطاب المستتر، ومن ثم يكون فعلاً مضادا للخطاب العلني وثقافـة تحتية انشقاقية تعبر عن وضعية العلاقة بـين المسـيطرين والخاضعين.

ووفقًا لما سبق فإننا يمكن أن نعين الخطاب المسـتتر في الدراسة الراهنة على النحو التالي:



أولاً: إن الخطاب المستتر يأتي من خلال مواقع اجتماعية معينة، ويؤديه الخاضعون في إطار المواقع الخلفية أو قل في كواليس المسرح.

ثانيا: إن الخطاب المستتر يتشكل من خلال الممارسات السرية التي تتمثل في التصرفات والألفاظ والنكات أو السرقة أو التحريض أو التحاليل.

ثالثًا: إن الخطاب المستتر للخاضعين باعتباره رد فعل للخطاب العلني للسلطة، إنما يمثل الأشكال اليومية للصراع وللفرز الطبقي.

رابعا: إن علاقات السيطرة في إطار الواقع اليومي هي علاقات مقاومة سلبية، إن أشكال المقاومة سواء بطابعها الرمزي أو الصريح، ما هي إلا رفض لعلاقات السيطرة والخضوع، ومحاولة لإزاحتها، والإتيان بالوضع المحجوز الذي ينتهي فيه التباين الطبقي.

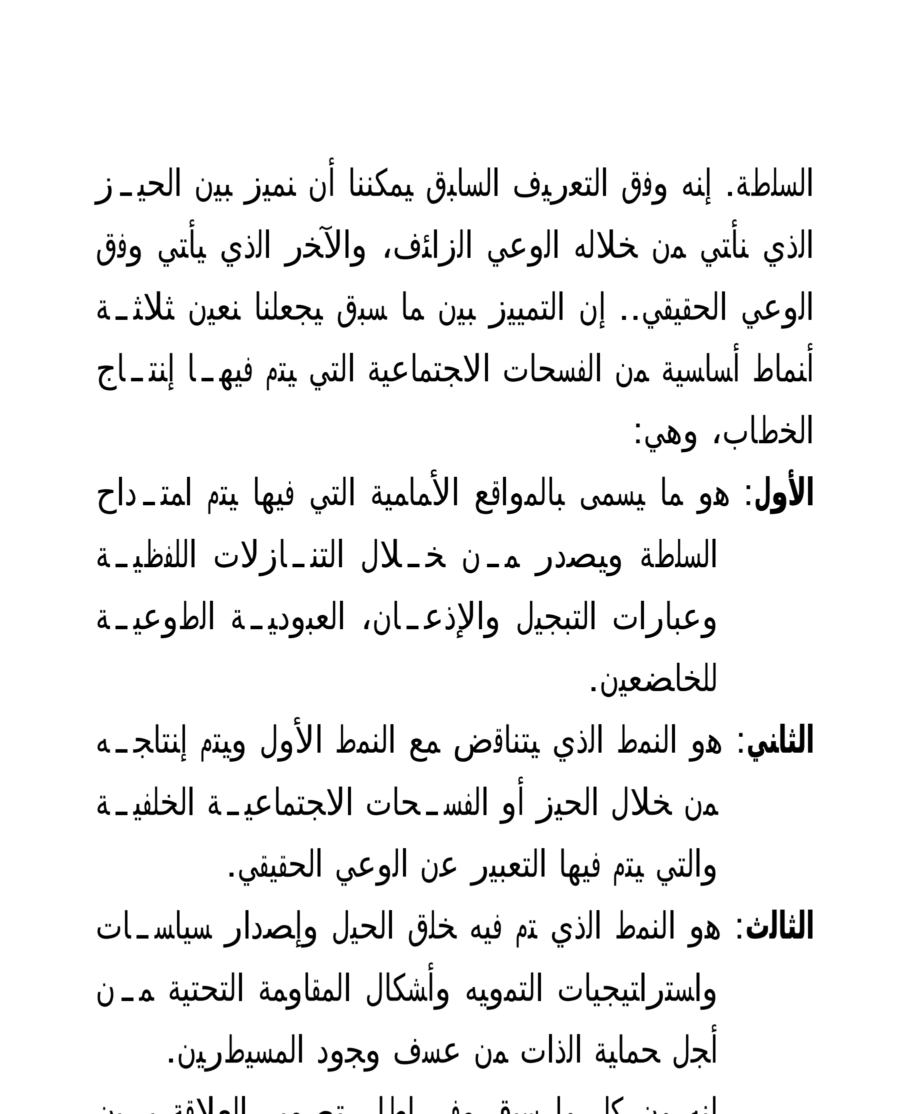
ويبدو أننا فيما سبق قد عينا الخطاب المستتر الذي يبديه الخاضعون في كواليس المسرح، فإنه يتوجب علينا أن نوضح أن لهذا الخطاب مجموعة من الأسس التي تغلف

أركان وجوده. إن الخطاب المستتر محكوم دائما بالسرية، إذ من خلالها يأتي السلوك أو التصرفات متوافقة مع الموقف والحيز المكاني. إن المسألة لا تكون مجرد إخفاء المشاعر وإنتاج السلوك، إنما هو اختيار للمكان الصحيح الذي يتولد ويظهر فيه الفعل. فالمسألة بالأحرى هي مسألة السيطرة التي لا يستطيع الخاضع أن يظهر اندفاعاته الطبيعية التي تمليها المشاعر. إن الخطاب المستتر ما هو إلا صورة للاستلاب يمثل عند مستواه تصرف سري يبدي فيه الخاضع غضبه ويمارس فعل الاعتداء المتبادل في عدم وجود السلطة ويجدر أن نشير في هذا المكان إلى أنه إذا كان الخاضعون يخرجون مكنونات شعورهم تجاه السلطة في المواقع الخلفية، فإنه في إطار الحيز الأمامي غالبا ما يبدون ممارسات الاحترام والخضوع والعرفان، تلك التي تتماشى مع الشخصيات الخاضعة المنزوعة لأساليب المقاومة. إن الأداء المقنع الذي يفعله الخاضع في مثل هذه المواقف ما هو إلا نوع من نفي المشاعر، أو قل إنها نوع من كبح المشاعر والسيطرة عليها. إن القناع الذي يرتديه الخاضعون في مثل هذه المواقف يعبر عن شخصيات فصامية، تبذل جهدا كبيرا أمام المسيطرين

حتى لا تظهر المشاعر الحقيقة. إن الرقابة على الذات التـي يفعلها الخاضع تعتبر من قبيل الأداء التمثيلي تمرينًا عمليـا يوميا، من خلاله يتم تطبيع الحاضر الرأسمالي الذي يجسـده قوانين السوق.

إن الوعي الزائف الذي يبديه الخاضع فـي حضـرة السلطة يتباين عن الوعي الحقيقي الذي يظهره الخاضع فـي ظهر هذه السلطة. إن التناقض بين ما يسمى بالوعي الحقيقي والوعي الزائف يعد نوعـا مـن الاسـتيعاب الإيـديولوجي للجماعات الخاضعة، والذي من شأنه أن يقلـل مـن حـدة الصراع، أو بالأحرى يفوت الفرصة عن تـأجيج الصـراع الاجتماعي بين المسيطرين والخاضعين.

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا أنه إذا كان ثمة وجود لمـا يسمى بالوعي الحقيقي والوعي الزائف في الحياة اليوميـة، فإن هناك حيزا اجتماعيا يتم الإفصاح من خلاله عن الخطاب الذي يعبر عنها، إن الأماكن التي يحدث فيها الوعي الزائف تتباين عن غيرها التي يحدث فيها الوعي الحقيقي. فـالوعي الأول يتواجد في الأماكن التي تتضح بعلاقات القوة، بينمـا الوعي الآخر ـ أقصد الحقيقي ـ فإنه يتم بعيدا عـن عـين



السلطة. إنه وفق التعريف السابق يمكننا أن نميز بين الحيز الذي نأتي من خلاله الوعي الزائف، والآخر الذي يأتي وفق الوعي الحقيقي.. إن التمييز بين ما سبق يجعلنا نعين ثلاثة أنماط أساسية من الفسحات الاجتماعية التي يتم فيها إنتاج الخطاب، وهي:

الأول: هو ما يسمى بالمواقع الأمامية التي فيها يتم امتداح السلطة ويصدر من خلال التنازلات اللفظية وعبارات التبجيل والإذعان، العبودية الطوعية للخاضعين.

الثاني: هو النمط الذي يتناقض مع النمط الأول ويتم إنتاجه من خلال الحيز أو الفسحات الاجتماعية الخلفية والتي يتم فيها التعبير عن الوعي الحقيقي.

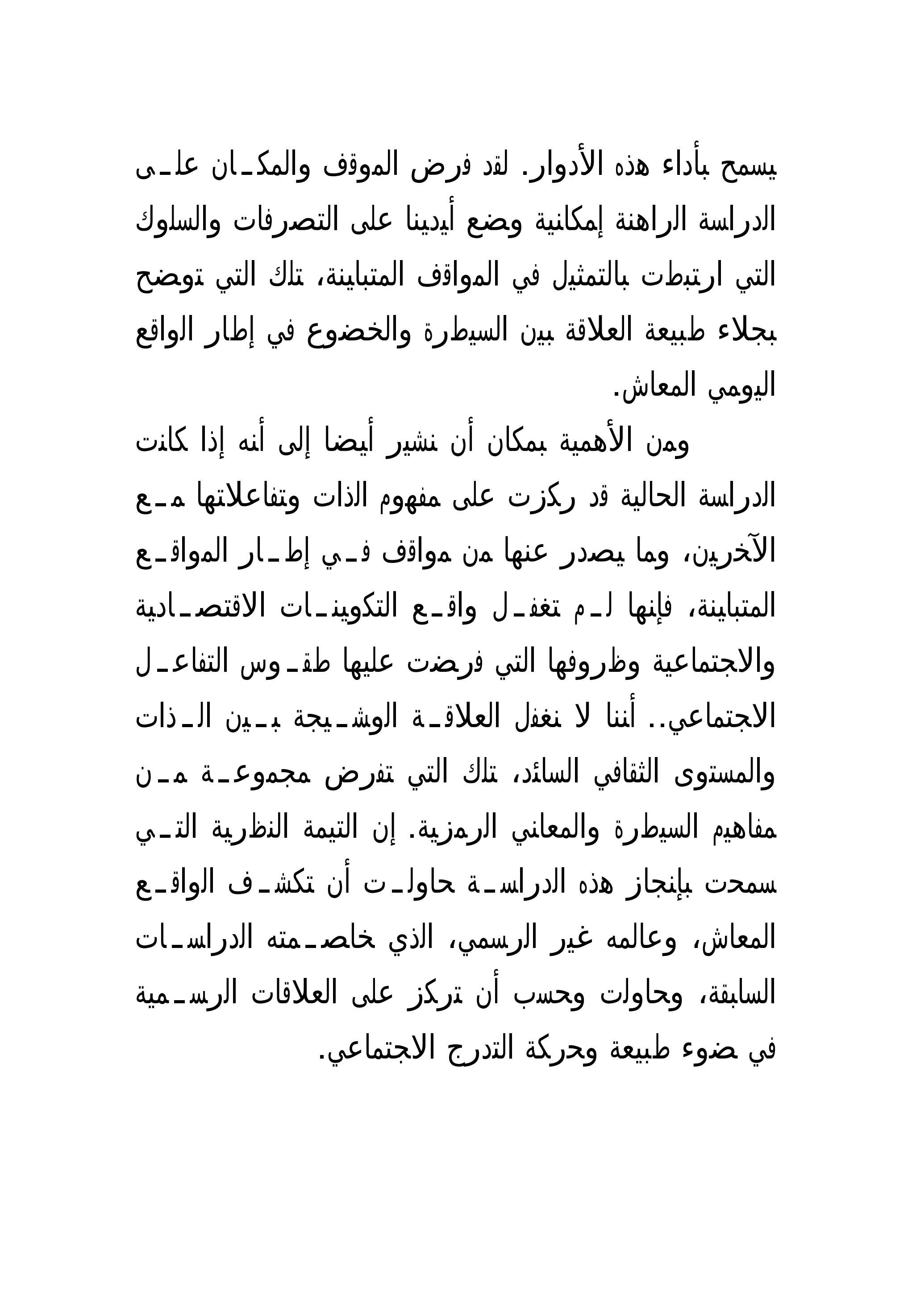
الثالث: هو النمط الذي تم فيه خلق الحيل وإصدار سياسات واستراتيجيات التمويه وأشكال المقاومة التحتية من أجل حماية الذات من عسف وجود المسيطرين.

إنه من كل ما سبق وفي إطار تصوير العلاقة بين المسيطرين والخاضعين، فإن حيل المقهورين، ما هي إلا مقاومة غير فعلية لا تجد أمامها سوى اقتصاديات الأبدان

والرموز، الأمر الذي يدخلها في إطار البراكسس العقلاني الذي يتم من خلاله عقلنة العالم المعاش، والبعد عن الصراع الظاهر والصريح.

وفي خاتمة هذه الدراسة ينبغي أن نعيد التذكير بأن مخرجاتها جاءت من خلال الاستناد إلى النظريات الصغرى أو الضيقة التي تركز وحسب على مفهوم الذات في ضوء تفاعلاته واتصاله مع الآخر في الحياة اليومية. إن رصد التفاعلات الاجتماعية بين الفاعلين في إطار علاقات السيطرة والخضوع، قد جاء من خلال التركيز على فكرة المواقف المسرحية التي عن طريقها يمكن الوقوف على الوجود الحقيقي لممارسات الأفراد في إطار المواقف المتباينة خاصة على صعيد المواقع الأمامية، أو على صعيد المواقع الخلفية (كواليس المسرح).

إن الانطلاق من مفهوم الذات أو النفس في إطار الحياة اليومية جعل الدراسة الراهنة تسعى إلى رصد الفريد وليس العام من خلال رصد العلاقة بين الخاضعين والمسيطرين، ذلك الذي مكنها من تصوير الأدوار المتباينة التي فرضتها طبيعة الفسحات أو الحيز الاجتماعي الذي



يسمح بأداء هذه الأدوار. لقد فرض الموقف والمكان على الدراسة الراهنة إمكانية وضع أيدينا على التصرفات والسلوك التي ارتبطت بالتمثيل في المواقف المتباينة، تلك التي توضح بجلاء طبيعة العلاقة بين السيطرة والخضوع في إطار الواقع اليومي المعاش.

ومن الأهمية بمكان أن نشير أيضا إلى أنه إذا كانت الدراسة الحالية قد ركزت على مفهوم الذات وتفاعلاتها مع الآخرين، وما يصدر عنها من مواقف في إطار المواقع المتباينة، فإنها لم تغفل واقع التكوينات الاقتصادية والاجتماعية وظروفها التي فرضت عليها طقوس التفاعل الاجتماعي.. أننا لا نغفل العلاقة الوشيجة بين الذات والمستوى الثقافي السائد، تلك التي تفرض مجموعة من مفاهيم السيطرة والمعاني الرمزية. إن التيمة النظرية التي سمحت بإنجاز هذه الدراسة حاولت أن تكشف الواقع المعاش، وعالمه غير الرسمي، الذي خاصمته الدراسات السابقة، وحاولت وحسب أن تركز على العلاقات الرسمية في ضوء طبيعة وحركة التدرج الاجتماعي.